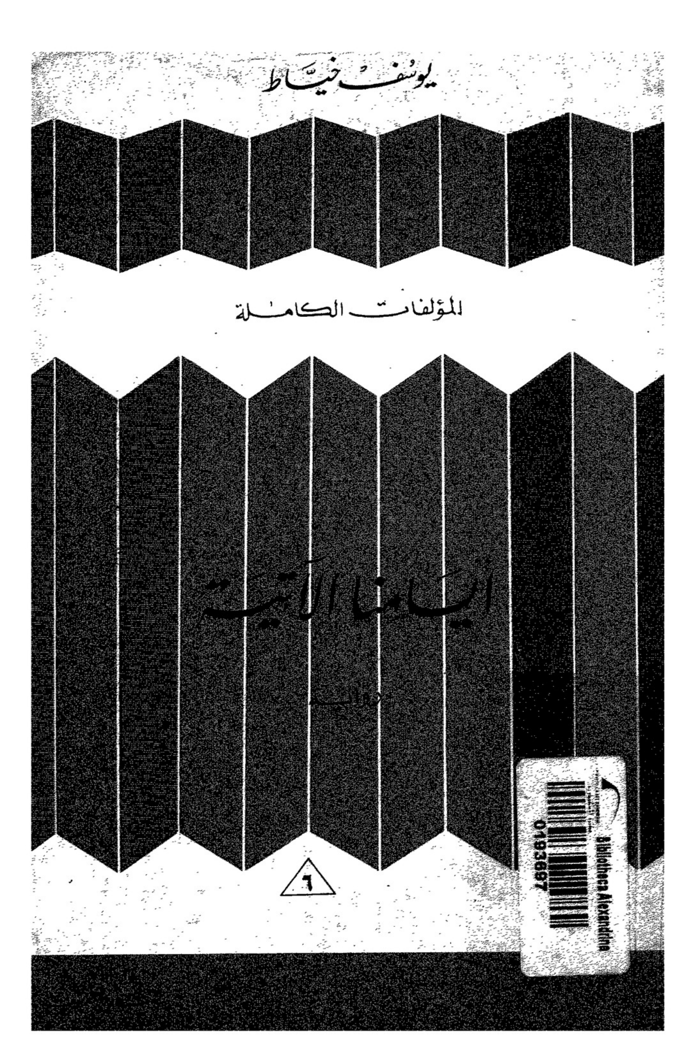

يوسف خياط
المؤلفات الكاملة
أينا الآتي
٦

أيامنا الآتية

يوسُف خيّاط

المؤلفات الكاملة

أيامنا الآتية

رواية



دار
لسان العرب
بيروت ـ لبنان

الفلك الانساني

« رب مصادفة ساقتني اليك وانت لا تعلمين انني نار تأكل ذاتها ومما دار في فلكها تأتي على ورد وفل وياسمين .. فأنت لم تتلقي كما حسبت دموع المزن وقطر الديم، وانما ما تساقط عن شجرة الزقوم من عذاب».

كتابة معقدة فوق رقعة تركها بيدها قبل ان يغادرها ــ ولما عاد اليها في اليوم التالي ..

ــ لم يثر فيَّ كلامك شعور الاسى .

ــ منى . أنت حتى الآن على وعي مهزوز. الاسى ! هل كان القصد؟. إني أخاطبك بصدق .. لكن الى أي مدى تستطيع العاطفة ان تفهم ؟!

ــ لا تحدث عقلي فأنا عاطفية . أنا لست أنا عندما أشعر بأنني افقدك.

ــ الغيرة يا منى ؟!

ــ انها علتي .

مالت اليه بانعطاف . تلاشت في مقلتيها نار الصدام . سكنتهما وقدة الرغبــة :

ــ مهما حدث .. حبيبي .. لن تسمع بعد الان ضجيج غيرتي .

أسر لها وهو يقبل راحتيها بأنه يريدها متحررة من الغيرة .. سعيدة وأضاف :

ـ منى .. وأنا صرت أغار .. حتى من أمين الاسود .

ـ انه آخر من يجب ان تغار منه .. رائد .. حبيبي .. انه زوجي ومن زمن لم أعد أشعر بأن لي زوجا .

ابتسم ونهض فسارعت تسأله :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ هل سيطول غيابك علي ؟ أنا بانتظارك . متى تعود الي ؟ هل ستأتي غدا ؟

ـ مهلا منى . حبيبتي .. سأعود . لكن سأهيم الان على وجهي ساعات .. على غير هدى ..

ـ طبعا على غير هدى . بل ومن غير هدى تماما .. اياك ان تراها .

حانقة للحظات . ابتسمت ، دست في جيب سترته رقعة فأخرجها فصاحت به ألا يقرأها الان . قرأ :

« وأنا عندما اضع شفتي فوق شفتيك أدرك من أنت كما أنت كائن حقا ،لاكما تريدني أن افهم انك قد صرت .»

مالت اليه فمال ، وطوقته فتلقى قبلتها .

هرعت الى النافذة، شاهدته يدخل الى سيارته. تملكها شعور بالرضا والخوف .. أرادت ان تبكي وهي سعيدة .. هل هو حقا لها؟ أين الهدوء النفسي ؟ زوجة وأم تحب بعد ان ظنت عواطفها قد تحجرت أو ردعتها الزوجية والامومة عن الحب ..

عاد الاولاد . وقع خطاهم على السلم . انشغلت بهم وتدبرت شؤونهم وما خرجت من تفكارها وتأكد لها ان حالتها غير طبيعية .. وانها طعمة لقهر الغيرة .

★ ★ ★

طرطوس كاللوحة الدالة على قدم . لامست ساحرة الحياة ، رقودها فتيقظت من أعماق التاريخ . والمدن أطفال كبار ـ حياتها استمرار الى قرون وعصور .. أو ينالها ما ينال الطفل المعاق ، فتكبر أعمارها ولا تعظم أحجامها ، وتزمن وتتعتق شرايينها وتضمر اطرافها .

اما هذه المدينة التراثية الاثرية فأتتها مرحلة نماء عصري ، لا تباثل

له بحياة الطفل الا مجازا ، جعلتها تجتاز في سفر التطور شوطا وراء شوط والعمران ينفخ فيها روح الاتساع والامتداد .

لرائد العالم ملاحظة .. المدينة تنمو وقد حسبها الكثيرون فينيقية عتقها الزمن لتكون في متحف البلدان فرجة لعيون العصر الحاضر ، تذكر بقوافل الاقــوام .. وانها قلب شاخ فتراكم فوقــه التاريخ وبردت في أوردته الدماء فلا تسري في الجسد الا بما يجعله يسلك بين الاحياء .

اما الملاحظة الثانية ..

البلدة وهو شيئان فيهما التماثل . فهل سأل عن التي حسبها فيمندرج الوعي الحضاري والبيولوجي قد آلت الى طلل في عملية استمرار هزيلة؟ ـ أم نفسه ذاتها ؟ ـ ولماذا التململ في نفسه وما تفسيره ؟

يوم أتى الى طرطوس ـ مدينته ـ انفتــح أمامه عالم جديد ، بعد انقطاعه عنها الا بزيارات قصيرة متباعدة ، وكان قد تخرج من الجامعة بدرجة ماجستير في الادب ثم مرت سنوات ، وتقلب في شتى الامكنــة والعناوين ، وفي نفسه أن قد حان وقت الهدوء ، فالبحار والسياسي ورجل الاعمال والمغامر والاديب ـ فيه بعض من كل منهم ـ يأتيه زمن يدفعه الى الاستقرار .

بعضهم يكتب مذكراته ، ومعنى هذا في تجارب الحياة ، ان لا رجاء بعدئذ .

رائد العالم مجموعة من هؤلاء ـ بخصائص متميزة ذاتية ـ يؤلف في شخصه انسانا ذا صراعات وقد مخر زورقه في بحر الاربعين .

عاد الى طرطوس ليستقر ويهدىء في نفسه كل الذيحملهمنتناقضات وما تمرس به من « آفات » ـ كلمة خير من « عيوب » ـ وهو على يقين من ان الاستقرار يشكل خلاصة انسانية لإعصار هب وفعل ثم تلملمورحل مخلفا آثاره .

★ ★ ★

عندما التقى رائد العالم بالسيدة منى شاكر لم تثر فيه شيئا .. ونسي بعد ايام كيف تم اللقاء .. هل سبق له أن التقى بها من قبل ؟

في خارج المدينة أوقف سيارته .. الطريق يصعد الى قرى السفوح المنخفضة . غدير الولي الشيخ جمال امام ناظريه .. جف فيه الماء فكشف عن قاع متشقق .. على جنباته أعشاب خضر وازهار بدأت تيبس .

أشجار السنديان العتيقة الى جانب امتدت غصونها كأذرع عملاقة تحضن الفراغ الارضي الاخضر بظلال زرق غامقة تنشر برودة صيفية .

مرت عليه اوقات ، عصفت باستقراره رياح قاسية ..

« ــ رائد العالم .. زمن يواجهك تمخض عن مرحلة نكران لجميع القيم .. طبع الناس بالريبة والظن ، كمش اليد على ما تملك ، وأغلق القلب على ما يحس » .

البلاد في حالة حرب تجر طاقات الناس الى نطاقها ..

« فأي دوامة جرفتك الى مهوارها منذرة ؟ أين الاستقرار وفلسفات ذاتية كثيرة ومثلها غيرية وضعتها على الرف الاعلى ؟ » .

ثم كان له لقاء آخر بمنى ...

أسماها يومئذ : فتاة الذهب .. ذلك ان في وجهها سمرة القمح البلدي السوري .. وفي عينيها بريق يخفي ما وراءه من مجهول . وليس البريق وحده بل الجفون نفسها لها مداليل احتار في تفسيرها .. والنظرات في تطلعها الخاطف تري الطيبة وتخفي الاسرار . وليست النظرات وحدها.. بل روح من ورائها .. هذه ضيعته فلا يدري . أروح تريد شيئا .. أم أنها لا تريد ؟!

أسماها عندئذ المرأة الغامضة .. يفتش عن عينيها ليرى لونهما ، عن نظراتها يستشف من خللها ارادة الروح أو لا ارادتها .. يريد ان يسألها : ماذا تريدين ؟

تخبىء عينيها مثل كوكبين وراء الغيوم فيرى اهدابا وظلالا وغلالة نفس مطمئنة فيمعن النظر في قسماتها .. في ذهب وجهها .. في شفتيها بعناقهما الذاتي وقلة ما تنفرجان لتبتسما ..

ويخيّل اليه انها المرأة .. « الأقنوم » .. التي كان يبحث عنها في كل ماضي أيامه .

الحديث دافىء والنظرات كالومض لا تفصح عن شيء ولا تظهر لونا..
فتاة الذهب ذات السر .. المرأة ذات الغموض .. بغير عقد .. كل ما حولها ــ هي نفسها المحور ــ يؤكد انها سعيدة مكتفية لا فراغ يعذبها .

أفكاره الان تحوم في غير مدارها .

يصرف اسئلة تعايشه في واقعه ..

بلد كبير .. مقدار حجمه يملأ شقا بين بحر وبحر . تعداد شعوبه في الامم يقيم في ميزانها ثقلا يرفع ويحط .. نفخت عليه ريح صرصر ووافته كارثة لا تبقي ، فتبلبل أمره وصار له من استثنائية الامور قانون .. ومن هذا القانون ما جعله في ضياع وهذيان ، وهو ما يزال مندرجا في اعتقاد ان شيئا لم يحصل له فيحوله عن مساره المغلوط ، ويجعله على مستوى الواقع .

★ ★ ★

من قديم الازمان والناس يفاجأون بأمور طارئة فيفرغون لها ..

فاليوم خمر وعطر وخصر مطواع .

وغدا خمر وعطر وخصر مطواع .

فالغد يأتي .. وكان في اليوم قد أبيحت الاشربة والزهور وصدور النساء .. « علة الكون لا تبديل لها ».. لماذا الامر في غدٍ ؟ أليس أحسن اللحظات ما يعيشها المرء في حاضره ؟.. ما أدراه بعد أنه الاحسن ؟

غادر رائد العالم ظلال السنديان العتيق ، وخلف الغدير المشقوق بطنه بالجفاف ، مستسلما الى فكرة ان كل استثنائية الواقع وهذا الموجود المهزوز .. لا غد له .

أسرعت به سيارته بلا تحقيق غاية . لا شعور بالمسؤولية . لا واقع. يحس لاول مرة بنفسه كالضائع في الفضاء الخارجي بغير ما زمن او ثقل أو أمل او مكان .

توقف فجأة .. مشهد يتمثل الى جانب من الطريق ، في ارض بور . رجال يحفرون الخنادق .. خارج المدينة .. في رأسه مفهوم تمخض عن معادلة:

« هراء كل هذا .. فانتظار مقاتلة العدو وراء المدينة كانتظار وقوع المدينة في قبضة العدو .. مع ذلك .. ثمة من بمستطاعه عمل شيء اذا تركوه يعمل » .

نزل من سيارته . تناول معولا .

ما شعر بيأسه كالان وهو يحفر الارض القاسية .. واتسع الخندق لجسد آخر يحمل السلاح .

★ ★ ★

في جلسة مسائية بالشرفة والدنيا صيف .. أمين الاسود انتهى من الكأس الثالثة وهم بالرابعة .

زاغت عيناه فأطلق بتعثر كلمات مبعثرة يؤكد بها لمنى أنه يشرب ولا يسكر .. ليست ثمة في الدنيا خمرة تسكره .

عاد من داخل القطر بعد غياب اسبوعين فاستقبلته منى بكلمات مقتضبة تتسع لتترجم الى مشاعر مختلفة .. لكنها غير حميمة .

نظر الى اولاده الثلاثة بغير حرارة شوق .. وداعبهم قليلا ثم نفضهم عنه متأففا وقد شعر بأنه تمادى في عواطفه ، ووضع كأسه فوق المائدة وأتى باشارة من يده فانصرف الصغار الى غرفتهم مستائين .

ركز في منى نظراته الزائغة فتقلقلت الرؤية مثل كلام غير قويم ... صامتة ساكنة كالشاردة .. غير حاضرة بقلبها وحسها .. وهو ينهض .. ويدخل الى غرفة النوم .

رفعت المائدة من الشرفة ولحقت به وأطفأت الضوء فجذبها اليه كالمنقض فتأوهت وخلصت شفتيها من شفتيه وتحرك فوقها ومرت دقيقة وعاد النور يملأ الغرفة وبدا هو في حالة هادئة استكانت لواعج جسده وذبلت عيناه ونام .

ما انتظمت أنفاسها ، تحس بغبن يبلغ بها حد المهانة .. للمرة بعد المرات التي لا تحصى ارغمت على تمثيل الدور .. ومرة بعد المرات المماثلة كانت تهرع الى الحمام فتفرغ ما فيجوفها تقززا وتغسل شفتيها ووجهها.. تبكي بصمت . لا . من زمن لم تعد تبكي .. منذ ان جاء ابنها الثاني

فتركت له ــ لمن لا يدرك ــ مهمة البكاء .. لن تبكي بعد الان هي المرأة المنتدبة لتدرك وتسلك سلوك العارفات .

حادثة طريفة من أبعاد ماضيها بدمشق .

(الزمن احدى الدكتاتوريات بعد الاستقلال . وموعد الانتخابات النيابية يقترب وللمرأة صوت لاول مرة .

شاب جاء يسأل عن أبيها فجرى بينها وبينه حديث من وحي الحاضر، أكدت له انها تعرف كيف تختار مرشحها عندما تبلغ السن القانونية ، فرد عليها جازما قاطعا بان الانتخابات لم تخلق للمرأة ، فأكدت له انها عما قريب ستنال شهادة البكالوريا ، وسألته بازدراء :

ــ وأنت .. ما خطبك .. هل تفك الحرف ؟!

ــ ضحك وهز برأسه :

ــ يا للمرأة . فارغة العقل مهما تعلمت .

« تعيسة التي ستكون زوجة لمثل هذا البهيم ».

لماذا فكرت هكذا في نفسها ؟ لا تدري .

شرق غليظ الذهن جلف ، كيوم أتاه نبي يحدثه بالامثال عساه ان يفقه .. تتاجه مثل هذا الرجل. وخلصت منى الى ان امرأة مثقفة تتزوج هذا الرجل تكون قد حكمت على نفسها بالموت قرفا .

في عمق ليلها الحالم تلمست وسادتها فلم تصدق انها كانت تبكي ، كما لم تصدق ان ذلك الشرقي المتخلف .. هو الذي يرقد الى جانبها في الفراش .. أمين الاسود .

كيف حدث هذا ؟! ماذا يجديها الآن ان تعلم ؟؟..)

★ ★ ★

في اليوم الثالث لقدوم أمين الاسود ، ودعها وانصرف .. وكعادته عند الوداع لا هصر خصرها ولا قبل شفتيها ولا شدعلى يدها . الى اللقاء .. تلك هي الكلمة ..

بعد قليل ينصرف اولادها الى مدرستهم ..

« لم يكن لنا سوى حسام . حسان يتحرك في مجهول الحشايا . ثمرة

لقاح .. هذا كل شيء .. علاقة بلا مشاركة..ويقولون ان العلم سيكتشف المولود اللقاح . الجنين المختبري .. بماذا سبق العلم بعض الازواج » ؟

خرج اولادها الثلاثة .. تلاشت ضوضاؤهم .

« .. ثم جاء حسان فتركته يبكي ـ كنت كارهة ـ يريد بغريزته شيئا في كما تريد النبتة لتعيش .. ضنينة انا بهذا الشيء كأنني أتلذذ بتعذيب وليدي .. وعندما ألقمته حلمة ثديي شعرت بأنني ما كنت أمنع عن ولدي غذاءه .. بل عن شخص آخر استأثر بي في كل ما أملك من حس وكيان » .

فتحت المذياع . موسيقى هادئة تتسلل الى اعصابها .

« .. وأتت مها . تختلف عن أخويها . أنثى . جناح مكسور ـ أتت نتيجة غلط في الحسابات الزوجيـة والاحتياطات الحضارية ـ وانها أم الغد .. لا يزال ابناؤه يتلقون الكلام بالامثال لغلاظة اذهانهم . الف نبي عصري ان تضافروا على فرد لن يجعلوه على شعور سديد » .

لياليها الثلاث مع أمين الاسود ..

في الاولى والثانية .. حدث المقدور . في الثالثة .. لا .. ابتسمت بقـرف ..

« .. في طفولتهم يعرفون كيف يستخرجون اللبن من الاثداء ويستدرون الحنان .. وعندما يكبرون يخفقون في تعاملهم مع المرأة » .

فتحت باب الشقة .. هتفت مأخوذة :

ـ نسيتك يا رائد .. فهل نسيتني انت ؟! لم تتلفن ..

ـ كما تشائين .. ما اعترفت انا كما اعترفت انت .

ـ هل صدقت ؟

ـ أعترف بأن لك الحق بتصرفاتك .

ـ الا في ان أنساك .

ـ قد يحدث ذلك .. مني .. قد يحدث ..

انكار غاضب في وجهها .. آسية ولته ظهرها .. أمسك بكتفيهـا فاستدارت اليه واستقرت بين ذراعيه فاحتواها :

ـ قولي لن يحدث هذا •• ارتعشت فصاح بغضب ـ او••سيحدث••
ـ كيف تجرؤ على قول ما تقول ؟ كيف ؟ أو انك تريد ان تعذبني ؟
ـ لا •
ـ أنا أتعذب •• ابكي •• أخاف ومن حولك فراشات طائشات ••
نفضت رأسها •• كنفض هموم عالقة بها •• ابتسمت ••
ـ أين امضيت يوميك ؟ هل شاهدتها ؟
أفلتها وعاد الى مقعده فجلست الى جانبه فجذبها اليه فتأبت وغنجت وصدت •• تنظرها بشوق •• خبا النــور اللألاء في عينيها •• والذهب المشرق في خديها ارتفع الى كلمة النار • تتوهج •• مطبقة الشفتين ••
ـ مثيرة وأنت غاضبة •• وجهك •• آس • وعيناك •• تتهمان •
ـ لو يعكس وجهي ما في اعماقي لرأيت ما يخيفك ، هل شاهدتها ؟ هل التقيت بها ؟ لماذا لا تجيب ؟
ـ أنا بريء من هذه التهم •• هدى لم تذهب الى أهلها في حمص •
ـ أعرف • حبيبي •• رائد •• اليوم صباحا كانت في الشرفة تشرب القهوة مع سعيد عارف ، بدت لي متناقضة مع هذا الزواج المسن •
لفّت ذراعيها حول عنقه ، جمدت حدقتاها فيمقلتيهما كعيون السمك المصطاد • نأمات مثيرة ترتعش فوق شفتيهــا • شعرها الاسود بث عطرا دافئا • كلماتها متقطعة بقبلاتها المتواترة الهادئة ••
ـ لست أدري ما بي •• أراها وأنت غائب فاطمئن •• واخلو الــى نفسي فأفكر بك فتنتابني الهواجس وكأنها معك ـ أهي الغيرة العمياء•• حبيبي ؟
رنت ضحكته بنبرات هادئة ، أبعدها عنه وهي متمسكة به ، تنظر وجهها المقطون بالشوق فألفاها مخضلة العينين ، همست تشكو وألقت برأسها الى كتفه :
ـ مريضة انا • تنتابني حالات غريبة من الذهول والضياع •• واشعر بأنني تحولت الى تمثال بارد •• لا دم فيه ولا حياة • وقد يخيل الي انني لم أبلغ سن المراهقة •• فتاة عاشقة لا تدري من تحب ••

دقات قلبها تنبض فوق صدره . نهداها مثل جناحي طائر يرتجفان . ناعمة ، دافئة ، مستسلمة . آمنة . وجدت ما تبحث عنه فبكت ..

(ـ ألقي برأسك على كتفي وأغرقي فيَّ شجنك ..
من ألقت برأسها فوق كتفي وبكت ..
ستكون لي الى الابد ..)

ـ من الشعر الغنائي البرازيلي ـ

ـ أحبك .. مني .
ـ أعد قولك حبيبي .

كأنها تغفو .. تلاشت من حولها الدنيا . تمزقت اغلالها ،احتواها بين ذراعيه .. لمَّها كأم لوليد ـ بدنها الدقيق التقاطيع الحار أسلس له .. راحتاه تلامسان كتفيها وظهرها .. تسبحان فوق تقاطيعها .. خصرهـا بطنها نهديها .. عنقها المرتفع الدقيق يطلب شفتيـه .. آهات حب .. ورغبة .. وفجأة وقفت ..

بنزق .. بدلال .. أمسكت بيده تجذبه فينصاع .. تأودت ، بـين ذراعيه وخارجهما .. أطرافها تتَهَدْهَد وتتثنى.. بدنها كله يرتعش .. تسحبه الى غرفتها .. الى سريرها الغارق في ظلال نافذة مرخية الاستار .

وكالحلم تساقطت عن شجرة الربيع وريقاتها ، فاذا بها مفككة القيود عارية بين يديه .. يقبلها .. ويرفعها وذراعاها تطوقان عنقه .. شعرها الحزين في ساعة لذاتها مسبل يغطي ساعديه وظهرها ..

ولا يمنعها هذا في وحدة ليلها ان تناديه شوقا واحتراقا . تحس بالفراغ كأنها تطلب المستحيل .

★ ★ ★

التقى بهدى سعيد في السوق فهمست له ان يدركها في المنعطف الغربي الذي يقل فيه وجود الناس .

وفي سيارته بدأت تعاتبه :

ـ هربت مني . أخذتك مني تلك .

انطلقت بهما السيارة . الشمس ترخي حبالها النارية عند العصر . في

الافق طيوف لونية . وفوق البحر سحب خفيفة متلاشية .. يؤكد لها ان دربيهما مختلفان :

ـ المسؤولية يا هدى .. أما تلك .. منى فلا شيء بيني وبينها .
وجهها يعكس ألماً ، وفي عينيها عذاب .

ـ أنت تقتلني وتقضي على أحلامي .. ما ذنبي ان احببتك ؟ رائد ، هل تسمعني ؟ هل تعلم انني لم أعد أحيا ؟

ـ هدى . عزيزتي . أنت تعرفين انني أحبك ـ لكن لا يمكن ان يدوم هذا .. .. في الواقع .. ما من احد يحيا في هذه الايام .. أنت مثقفة وذكية .. تصوري اوضاع البلد .. نعيش في قلب مأساة . نحن اليوم شعب أذله العدوان . ارضنا مغتصبة . حدودنا لا نعرف أين صارت . كثيرون فقدوا بيوتهم .. وانت وأنا نحكي بالحياة والحب ..

استنجدت بقهر :

ـ وما شأني أنا بهذا ؟ ـ وبصوت هادىء ـ منذ ان وعيت على الدنيا وانا بلا أحد يحبني الى ان التقيت بك فتواعدنا ، فصرت لي البيت والحب . منذ ايام ذهبت الى حمص فأحسست بأني غريبة بين أهلي فعدت الى بيتي لاجد نفسي غريبة ايضا ..

التقطت أنفاسها . وضع راحته فوق كتفها :

ـ ارجوك . هدى .. لا تقولي شيئا آخر .. انا فاهم .

عاد بها وانزلها في حي منعزل . وتابع سيره خارجا من المدينة مرة اخرى . السرعة تحت القصوى ، تتزايد .. الاشجار الى جانب الطريق كالاشباح الراكضة الى الوراء .. فقد المذياع صوته .. الريح تعصف بجنبات السيارة .. يومها ..

★ ★ ★

(ـ السيدة هدى سعيد . الآنسة جمانة رئيف . السيد صابر منير . واسماء .. ووجوه .. واحاديث . وتقضّى وقت آخر .. محا الرؤية فكانت مثل طيف . والتقى بها ثانية . وعرّفوه بها وقالت :

ـ سبق ان تعارفنا .

ـ أذكر .. لكن أين ؟ ذاكرتي صارت آلة معطوبة ..
ـ أنا لم انس الاستاذ رائد العالم .. وليس لان زوجي يذكرك دائما.
ـ معذرة . لن اغفر لنفسي اني نسيت .

وحدهما .. في شرفة منزل احد الاصدقاء .. يتطلع في وجهها .. فتخفض نظرها ويحمر خداها .. عيناها باتساع البحر .. ضائعتا اللون بين الاخضر والازرق . باشراق كبريق ثغرها المفتر عن ابتسامة خجول..

ـ وستنساني ثانية .
ـ بل سأكون ان نسيتك غير جدير بتقدير هذا الجمال الذي اراه .
ـ كلام شاعر .
ـ اطمئني . هجرت الشعر من زمن .
ـ ارجو الا تهجر الذكرى .. فتنساني .

بثوب زهري ملتصق ببدنها الفارع المائل الى الامتلاء .. عيناه تختطفان جميع تقاطيع جسمها ـ أنثى مسكوبة في قالبها باتقان ـ تستقر نظراتهما فوق صدرها المرتفع النافر وكأن نهديها اختصما فتباعدا فاستقلا بعنف .. وهي في عامها العشرين . جسد ضاج كالبحر ..؟ شعر اشعة شمس من ذهب .

ـ الذكرى .. لا . ليس من السهل التجرد من الذكرى .. لكن . لماذا الذكرى وامامنا الدنيا قائمة موجودة ؟
ـ ربما اذن .. الحق على الذاكرة ؟!
ـ لا اخفي عليك . كنت اتمتع بذاكرة مدهشة وانا صغير . اذكر للآن احداثا ومشاهد جرت امامي .. ربما كنت ما ازال في الثانية من عمري .. ارجو الا تظني هذا مبالغة . وعندما كبرت صرت اجد تفسيرات لتلك المشاهد خاصة .
ـ وبالطبع ـ وهي تبتسم ـ لها الآن عندك دلالات اخرى .
ـ بالضبط .. ولاكن صريحا معك .. فاضحة في بعضها ..

رن ضحكها .. وما لبثت ان ران عليها الوجوم الكئيب ومالت بوجهها الذي انحدرت عنه نظراته .. كأنها شعرت بالندم ...

ـ ربما اساء اليك كلامي .
ـ لا . ابدا ـ وما بارح الاسى وجهها ـ كلامك واقعي وعذب .
ـ اذن ليس كلام شاعر ؟
ـ هل ندخل ونلتحق بسائر المدعوين ؟

ثم كانت لهما لقاءات .. واحاديث . لم يخنه حدسه . تجاربه لم تخفق . هو الرجل الذي تحجرت عاطفته وبدت له الحياة مؤخرا جدباً بشعا لا يدركه لين .. وكل شيء يمر في اخدود من العنف والقسوة .. لانه مغلوط .

أما سن الاربعين .. فسن يتوق للثورة عليها ...)

★ ★ ★

اول وعد . واول موعد .

(عندما استقر رائد العالم في بيته ، بين مريم واولاده .. شباب وصغار ، كان نادما .. فطوق خصر زوجته الظاهر الامتلاء ، وبه شوق الى شباب عمره ، كشاعر يحن الى اول قصيدة كتبها ، ويظل يعيش فيوحيها.

ـ تجربة تمر بالرجل يا مريم فيضعف ويقوى ويضعف بعدئذ او لا .. ما وجدت بعض ساسة القوم الا كمن تغريهم حسان النساء فينزعون عنهم مواثيقهم وعقائدهم ويصيرون بلا مسؤولية كخيول بطرة .. يرفسون الآخرين .

ابتسمت بطيبة لا تخلو من خبث وسألته :
ـ أمجازا تقول هذا ام بالمشاهدة ؟
ـ لماذا لا تسألين ان كان بالممارسة ؟
ـ هل زوجي في خطر ؟
ـ البلاد نفسها في خطر .. الحدود . الامة .. العالم ...
ـ يهمني فقط زوجي .
ـ لا بأس .. مر الكابوس يا مريم . الانسان ايضا يتغلب على ضعفه.
قبلها فانتفضت مجفلة رافضة . وضبطتهما ابنتهما الكبرى حنان :
ـ ما هذا وما المناسبة ؟

ـ ابوك عائد من سفر بعيد يا حنان ـ وبغيظ الآن ـ وكان قد تأخر اذ ضل الطريق .

زقزقت الفتاة الجميلة :

ـ أألغاز يا امي ؟ لا . لا . ان ابي لا يضل الطريق ولا يصل متأخرا .

« اني سارح في بحر ازرق واحلام مراهق لم اكنه يوما وقد استويت في الاربعين .. واني لفي مدار هدى سعيد فاما اجد عندها دفء القلب او اضيف اسمها رقما في قائمة نساء ماضيَّ .. او تفرض مني شاكر وجودها عليَّ ، فانا بحاجة لانامل نامية بالحنان تمسح جفافي بعد ان انهت مريم معي دور الحبيبة » .

★ ★ ★

التقيا على دروب كثيرة .. بينهما التفاهم . المذياع في السيارة يبث نشرة الاخبار .. وشبع الناس من الانتصارات المرسومة بالحبر على الورق ومن نشوة خمرة لا وجود لها .. فالآن مئة واكثر من ابناء هذا الوطن الكبير قد قتلوا ...

ـ ما تقولينه صحيح يا هدى .. انا وعدتك .

ـ وانا اطالبك بوعدك .

المذياع من احدى المحطات .

(جينا نبيع كبوش التوت ضيعنا القلب ببيروت ؟)

ـ يومئذ خفت يا رائد فابتعدت عنك .. ليتني ظللت بعيدة .

« ... كنت سارحة الفكر الى بعيد يا منى . وقفت اريد قول شيء .. وانت ملت بوجهك الاسيان عني . كان وجهك ناضحا بالاسى وغادرتك » .

المذياع في دورة لبنانية .. موجز الانباء .. يؤكد ان الخسائر فادحة . تدخّل الصليب الاحمر الدولي . النابالم يحرق . يأكل . يشوه . المصابون ينقلون الى ...

« لبنان جنات عا مد النظر .. بساتين ما ينشبع منها بصر » .

ـ حاولت ان أنساك .. وأعيش للآن في دوار . لا استطيع ...

في دورة من عمان . المذيع بصوت قوي النبرات ماض في فضح العدو

واساليبه •• فالآمنون اخذوا على حين غفلة •• قدمنا شكوى الى مجلس الامن •••

ـ حاولي يا هدى •• واذا كان لنا الخيار فيجب الا تدوم علاقتنا •

« ••• اردت ، اغراق همومي في عواطف اهل بيتي وحرق الشوائب في نفسي بالنار العاطفية •• فماذا وجدت ؟ كذبا • تجاهلا • عدم تفهم » •

في دورة مصرية •• صوت يتحدى •• يتوعد •• يستنكر العدوان •

(رمش عينو •• جرحني برمش عينو ••؟)

••• « وتكرر اللقاء يا منى وقلت لك : اني انصرف الى انسانيتي ، والانسان ليس مثالا •• فاحتفظت انت بصمتك وبدوت لي ملولة فلم اتشجع » •

في دورة سعودية ، صوت يردد :

(وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون ؟)

ـ انا مرتبطة بك يا رائد • اودعت بين يديك مصيري • صرت بك قوية فلا تردني الى ضعفي •

ـ لن أتركك يا هدى ـ ثقي بي ـ كلمة الرجل لا يُخل بها •• وانا ايضا •••

المذياع في دورة سورية يدعو الى ان يعرف المرء عدوه ••• يرسلون اليه الفاتتوم والنابالم •• والعرب يقدمون لهم النفط •

(لكل ظالم نهاية •• وتعانقنا هلالا وصليبا) ••

••• « منى • انا ابحث عن ذاتي • لي نجم سيأفل • اريد ان اعيش ما تبقى لي من عمر الشباب •• ايتها الشرقية المرهفة •• كأنك لا تفهمين واحكي لك فتوافقين وتقولين ان هذا يحدث •• ولا عجب » •

ـ اريد ان اراك باستمرار يا رائد • قلبي وعقلي مفتوحان لك •

ـ هدى • لنعتدل بعواطفنا •

في دورة عراقية •• صوت ينذر العدو •• يؤكد على الكفاح المسلح ، طريقا الى التحرير •

(اصبح عندي اليوم بندقية ه صرت في قائمة الثوار) •

••• « واحتملت الوحدة يا منى • وحدك انت صديقتي •• أأتمنهـا على اسراري •• تفهم مأساتي » •

المذياع من اورشليم القدس ينصح العرب بالاستسلام للواقع ويغني:

(لف وتعالي عالرملاي •• عالرملاي •• وافرش منديلك عالرملاي) •

امسكت بيده • قبلتها بحنان • تبادلا النظرات ، ونزلت هدى فـي شارع فرعي وقد بدأ مجلس الامن يناقش شكوى العرب ضد اسرائيـل لاعتدائها الاخير على العرب •

••• « منى ــ من قال ان القلوب لا تطرح في المزاد ؟ وانـت تنظرين الى الارض والسماء • الى اليمين والشمال •• الا ّ في عيني لا تنظرين • ثمة من لا تتوانى عن انتزاعي منك والتقاط القلب المطروح على أعتـاب العواطف » •

وفي البيت كانت تجربته قاسية •• في غرفته شعر بالبرد فاغلق النافذة فلا تطل • استنكرت مريم فخاطبها :

ــ انه الصقيع يا مريم •• يمتد اليّ •• سيولي الصيف •••

★ ★ ★

ولما استيقظت هدى فوجئت بنافذته مغلقة •• كأن لقاء امس ووعـده ما كانا • وتشاهد منى في شرفتها فتتألم •

غاب رائد العالم عن المدينة مدة اسبوعين لم يدرِ احد أين كان•وعاد وهو أشد ضجرا وفي ذهنـه ان الاستثنائية التي طبعت البلد قد مسته باصابعها الجارحة وعبثت بكبريائه •

وعندما دخلت مريم الى غرفته وجدته مركز النظرات في نقطة لا يحيد عنها ووجهه مربد قاتم • يدخن •••

ــ الغداء جاهز •

ــ لست جائعا •

عشرون عاما وهي معه ترافقه في كل المراحل التي يجتازها •• الصعبة والهيّنة • تشد اليه الغطـاء في اللياليالباردة • تعنى به كالأم بطفلها • زوجة تحسن القيام بكل ادوار البيت •• الا دور الحبيبة • قاربت الاربعين

فترهلت فاهملت نفسها ففقدت انوثتها المثيرة حتى لا يمكنه ان يقارنهـا بأي من النساء اللواتي يحطن به •

« الآن • اولئك يصنعون الثورة كما تصنع الجرار • لا يعرفون العدو من الصديق • ينسون الماضي • الاخطاء مستمرة • لم تعد مقبولة • مر السنين يجعل من المجرم بريئا •• اما في ملفاتهم فيظل السياسي مطاردا • منى •• لم ارها من مدة طويلة » ••

ابتعد عن المدينة • درب جبلية تخترق كروم الزيتون الدائمة الخضرة• غابات تتعانق اشجارها المثمرة • منازل جديدة وعمارات صغيرة حلت محل الاكواخ المبنية من الحجارة « الغشيمة » والطين • واطفال حسنو التغدية• قرويات يرتدين الزي الدارج وقرويون عليهم دلائل النعمة •

(يا رب هبت شعوب من منيتها واستيقظت أمم من رقدة العدم •)

« بمستطاع الثورة ان تصنع• الناس يستبقون صنعها• يسعون الى تحسين احوالهم • الشعور بضرورة التغيير عند الناس شيء من الثورة • الجميع طالب غد وان لم يكن ثائرا • ماديا تغير الناس ولم يتغيروا فكريا •• ربما »•

الحقول بعد الحصاد شاحبة غبراء • الشمس ترخي اشعتهـا الحمراء فوق اشجار الصبار •• بقي على الواحها ما زهد بأخـذه الناس من ثمر فاصفر واحمر فلا يحرك شهية •

قريبا يأتي الخريف • اللانماء • وتتساقط من دفاتر الشجر العتيقـة وريقاتها تدوسها الاقدام • تعرى اذرع التين واللوز •• منى في فكره •• وتنسلخ عن العرائش العناقيد فلا ينتشي بها قلب أخافته الحياة • وتناثر غصون الورد آخر مخملها الاحمر ، سمادا يأكله التراب •

تجاوز بلدة « بملكة » • اوقف سيارته فوق هضبة تطل على السفوح المواجهة ، كأنها طبقات فوق بعضها •• نزل • سار ودار •• حرا طليقا يمتع النظر بتلك المشاهد المترامية الابعاد •

ازهار من بقايا الصيف • آثار من الربيع •• السماء بمستوى الجبال • وحدة رائعة شاركت فيها الارض الفضاء كأنهما عنصران مرئيان بغموض• سحب تعانق القمم بلا حرارة من ورائها عمق ازرق •• اشجار عملاقة بدت

بحجم الاصابع .
في كتف الجبل القريب يتدرج السفح صعدا . شجرتان في القمـة . الاولى ضخمة والثانية من تحتها بحجم أصغر تسعى لتصعد . وثالثة كأن صاعقة قصفت ثلثها فبدت كسيرة الخاطر محطمة الساق في انفراد .. بـلا رفيق .
منى في فكره . يخاطبها :
... « اترين هناك .. الشجرة الكبيرة تأخذ بيد الصغيرة ترفعها اليها. انهما عاشقان ساعيان الى لقاء » .
منى لا تجيب .
(واخذوني الى قبو وقبو .. « جستابو » الصدام عن النظام الساقط القيم .. وسألوني من انا ؟ من اكون ؟ ماذا اعمل ؟ ماذا كنت آكـل منذ عشرين عاما ؟ من كان يشرب البيرة معي ؟ كم امرأة قبلت ؟ كم عدد المرات نمت مع النساء ؟ متى كانت اول مرة ؟ ما عددهن ؟ ما نوع سجائري ؟ قياس ياقتي ؟ حجم حذائي ؟.
وسألوني :
ــ هل تعرف الخير من الشر ؟
ــ ولا الخيط الابيض من الاسود .
ضحكوا :
ــ اذن لا تعرف القرعاء من ام القرون ؟ ها . ها .. أرأيت؟ من الاول .. اعترف . لماذا تعذبنا ؟)
الشجرة المنفردة . منى .. عبثت بها ريح شتوية . تساقطت عنها روح الالفة . ماتت غصونها لا تعانق الظلال . لا يلجأ الى فيئها وحش فالت في البراري . ولا طريدة جرحها صياد . لا يمر بها طير حمام يحمل مكتوبهـا الى حبيب .
ــ هل يلتقيان .. في القمة .. الحجمان المختلفا القدين ؟
(قلت لهم :
ــ احبها . لا ادري عن قلبها شيئـا .. هو لي أوليس لي ؟ لكنني

كنت على موعد فأخذتموه مني • شباكي مغلق ، وهي تنتظر •
وقالوا لي :

ــ وماذا يفيدك هذا الكلام ؟ وان تكون فوق ذلك وطنيا ؟ الجميع وطنيون وعرب •• فلماذا لا تعترف من غير ان تحوجنا للعنف ؟ نحن مهذبون سنجعلك تتحدث بالصحيح •• لدينا غير العصي وسائل اخرى •• بل لماذا لا تصنع شيئا ــ غير السياسة ــ ينفع العباد ؟)

« كنت خائفة • مثل باكية • وجدتك هكذا •• مهانة العاطفة • بدوت لي مثل تلك الشجرة المعزولة تتسكع وراء نظرة حنان • تقتفي لمسة يد عاشقة • تستجدي الحب ــ كما المال ــ من بخيل •• وظننت انني فهمتك •• وتدثرت بالفضيلة ــ المجد لاسمها ــ وشعرت انا بالغضب •• فتلك حقارة •• يا حفار ــ أنا هو ــ تعاسعة المرأة التي تحبها •• أجئت تعكر بحيرتها الهادئة ؟• تراجعت • لن اتهافت • لن ارتمي عليك بحبي » •

هدى مثل تلك الشجرة في السفح مستوحدة • تواجه الزوابع والصقيع • مثلها هو •• ورجع مع المغيب مجرحا بصخور القلوب •• نفسا منسحقة بالصمت •• واحدا بلا رفيقة • قلبه مثل آخر الصيف لامسته اصابع الرماد الخريفي •

★ ★ ★

بفعل تلقائي نظرت هدى الى صديقتها الصغيرة فوجدتها سارحة النظرات الى الرجل الذي يسير الآن في الطريق على مهل •

ــ اي • اي •• ماذا جرى كأنك مسافرة في غير هنا ؟

ــ أترين ؟ هدى انظري •• الذي نزل من سيارته •••

ــ سيارة جديدة •

رفعت جمانة رأسها وتأرجحت جدائلها وتنهدت بفارغ صبر وقالت :

ــ احدثك عن الرجل ولا ترين سوى السيارة ؟• انظري اليه •••

ــ وماذا في الامر ؟ ها قد نظرت اليه •

دارت جمانة على نفسها دورة وقد شدت يديها الى بعضهما وابتسمت

بأسى • مراهقة تحلم بالرجل •• يخفـق صدرهـا بالحب •• تنهد الى الرغبات •

ـ احبه منذ اشهر وهو بي لا يدري •

ـ انت جمانة الصغيرة الحلوة تحبين هذا الرجل ؟ ان ابنته اكبر منك سنا ابتها المعتوهة الناقصة العقل •

في شرفة هدى • ابنة المدارس • صف اخير كفاءة •• جمانة رئيف • ابنة مغترب عاد الى طرطوس فعمر فيها بنايتين وفتح مخزنا يتاجر ويقضّي فيه اكثر ساعات يومه •• ميسور له عدد من الابناء •

ـ وماذا في الامر ؟ ـ تقول جمانة لهدى ـ الحب دخل قلبي غصبـا عني •

ـ في اول لقاء بين هدى ورائد أخبرته بما جرى فضحك فحذرته •

ـ انت تعدني ولا تفي بوعودك ، فما ادراني ؟!

ـ هدى فاتنة الرجال في هذه المدينة واحدى اجمل نسائها تخاف من مزاحمة صغيرة مثل جمانة رئيف ؟

ـ وحفظت اسمها ؟•• ربما فقد تثيرك المرأة عادية الجمال •• فانت لم تتأثر بجمالي ولم تسحرك فتنتي •••

ـ سافرت مضطرا • استدعوني فجأة • ؟قيمون على افكار الناس • القانون مطيتهم • إهٰ •• هدى • فضيلتهم انهم يذكرونني بأنني كنت في يوم من اصحاب المبادىء السياسية •

ـ ما زلت انتظرك • اعيش على اعصابي •• اجري وراءك •

ـ هدى • لماذا انت الآن معي ؟ أليس لانني اريدك ؟

ـ هل تحبني ؟

ـ واتساءل : ما مستقبل كل هذا ؟ ويرد عقلي بانني ساهدم البنـاء الشريف الذي اسمه زواج سعيد وهدى •

ـ انا في البناء المزعوم حجرة •• سلعة • اداة •

ـ وزوجك وبيتك واولادك ؟

ـ خذني الى ضفاف النهر الجنوبي في عمريت فاننا نقترب الآن منه•

...« لا مهرب يا منى. أسعى للحظة حنان من المرأة التي تستطيع منحي الحب . انت . اما المرأة الجسد فمثل عنقود افرط حياته . الحضارة تعرض نساء في الواجهات . مد يدك وخذ منهن من تشاء . تملك مالاً . تملك نساء . ليس اليهن اسعى . فانا احب . لا تلومين من ظننت فيه الانسان الكامل » .

ــ انت تحب منى شاكر .

لا يسمع . داخله اسى وأسف . لام نفسه ارتعشت هدى من الحنق. يعاملها كطفلة . لماذا لا يقبلها . يضمها ..؟

ــ تسألني لماذا لا احب سعيد عارف ؟ بل اسألني لماذا يجب ان احبه ؟ وان شئت فأسأل زوجات الرجال في هذه المدينة وفي غيرها ، فانك لن تقع الا على قليلات يحببن ازواجهن .

ــ تبالغين فتسيئين اليهن .

ــ وكل منهن تتمنى ان تجد في خارج بيتها حبيبا او عشيقا .

ــ لماذا ؟ ما السبب ؟

ــ اسأل الازواج ، كيف يتعاملون مع زوجاتهم في الليالي ..

★ ★ ★

ويومها .. بدء لقاءاته بالسيدة منى شاكر .

ليس في اول لقاء .. تم هذا :

(ــ ما اخبار امين ؟ هل سيأتي قريبا ؟

ــ لم يمض على سفره اسبوع .

ــ جئت وبي شوق اليكم .

لم تنظر في عينيه . ساكنة اكثر منها متحركة . قليلة الكلام مصغية ، كالصامتة .

ــ ماذا اقدم لك .. قهوة او مرطبا ؟

ــ قهوة وبمرارة الحياة .

ابتسمت وسرعان ما امتصت الرمال الجافة ابتسامتها وسألته ولم تنتظر الجواب :

ـ وهل الحياة هكذا مرة ؟

••• « سأروي لك اني التقيت بهدى ـ لو كنت تسمعين ـ فأثارتني فسهوت عن ذاتي • القلق • الملل • الاحتلال • المباحث السياسية • الاعلام الرسمي • القبور غصت بها الارض • الهموم على اختلافها ••• ويظل الحب شيئا مفهوما • مقبولا • مرغوبا •• كيفما كان •• بين طرفين من اي اتجاهين ظهرا • ربما تفكرين يا منى •• انه يغازلني •• مغرور •• من يظنني » !!

الجو حار • النافذة مغلقة • فتحها • أطل على شقة هدى • وقفت منى الى جانبه • كتفها تلامس كتفه • جمد بمكانه • هدى من شرفتها تنظر اليهما • قالت منى :

ـ ..أدعوها لتشرب القهوة معك •• وستسارع بالحضور •

ـ لماذا تسارع ؟

ـ سأجننها بوقوفي الى جانبك •

ـ لماذا تجننينها ؟

ـ سأتعسها •

ـ الحياة تحتاج الى ما يغري بتحمل مشقاتها • فلماذا تتعسينها ؟

ابتسامتها باردة • طفلة نزقة شريرة بلا قصد • مضطربة ، مرتعشة كأن بها مساً من قر • مشرئبة العنق • يقول لها :

ـ انا جِدّي • متزمت في ألمي • يجب ان اسقط في نار • في شقاء الدنيا • في تحطيم القوانين لأجد ذاتي •• لأبدأ الحياة من جديد •

لم تعد تبتسم • وجهها مقطون باليأس والعنف • تمتمت :

ـ انها غادرت الشرفة •

ـ أغضبتك • شكرا على قهوة مرارتها محلاة بهنيهة تسلية) •

★ ★ ★

وجاء تشرين ••

وأبكرت على طرطوس غيوم داكنة غطت وجه السماء بمنديل رمادي كثيف • وأبحرت في الجواء سفن الشتاء الاولى منذرة وسرعان ما زمجرت

رعود غلاظ .. ونكس الصيف أعلامه .

في أماكن عديدة من ارض سوريا ، لملم النور أشياءهم وادخلوها الى مضاربهم . وأقام الرحل أثافي المواقد في خيام الشعر . وادخل الرعاة طروشهم في الزرائب .

والمهجرون من الجولان والحمة والقنيطرة توزعوا في نقاط كثيرة من البلاد . بعد ان تساندوا الى ذراع الصيف برقيق الدثار وسامروا النجوم أشهرا ولامست ظهورهم قساوة الارض .. فانهم لم يجدوا حتى الخيام اليها يتآوون في عملية حفظ الحياة لهذا الوجود .

الامطار تهاوت سبة على أناس عهدهم بها انها الغيث المحيي . والارض . البيت . الاسرة . الكتب . نار الموقد . كل هذا صار ذكرى . فالذكرى هي القِيَمُ اذ يعز تحقيق الرغبات . ويعز الرجوع . وتقفر الارض من غصن الزيتون، فلا تحمله حمامة الى من لا يملكون الفلك الانساني .



قطار لا يسير

المدن كما أرادها الناس • الفاضلة • مدينة الانسان المثالية • تبلغ رقيّ « الإيتوبية » • أرفع ما يحلـم به الانسان ، انما تظل في نطــاق الحلم • تتبخر كما الضباب في وقدة الشمس ، عندما ينشدها في دنيــا المحسوس •

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد •) سورة الفجر •

رجال عمالقة أثرياء • لو طحنوا الذهب والفضة وعلفوهما مواشيهم ما نفد هذا العلف الفخيم • والا فما يجدي أن يكون الانسان بلا وقدة حِس بلا نفس تحب وتود الخير ؟

المدن كالناس • لها قلوب وعقول ومشاعر • وعندما تفقد المدن هذه القيم الجميلة تتحول الى رماد يغطي الجماد ، فلا مستقبل ولا خير ولا حيــاة •

وهي أعمال أسمى ما يشار إليها انها أقرب الى الخلود لانها خلاصة الجهد البشري •• والغريب ان معظم الذين بنوا المدن والصروح كانوا رجالا أشداء قساة حملة سوط • سيدهم نمرود ــ كما في الاسطورة ــ شاد بابل عسى يرقى بطباقها أسباب السماء •

طرطوس بين مدن التاريخ تعود الى أبعاد قصوى من وجود الانسان الفينيقي الساحلي ، حامل ، حرارة الرمال المتلظية ألهبت أقدامه في ممالك الصحارى فأتى ليطفئها في رمال باردة يطرح البحر الابيض المتوسط عليها

ألسنته الحصاف تحدث عن أزمان مجهولة وأبعاد طاعنة في الاوئل .. وراءها الخيال والاسطورة .

مدينة يذكرها المسنّون بالخير البـارح .. وانها الفاضلـة بمن قطنها من الاقـوام .. انقرضوا في هذا الجيـل الكسول المليء بحـب الذات ، المجبول بالتناقضات والعقد والشرور .

ــ الانسان الطيب راح وتركها مواتا وانها لن تنهض بعد اليوم .

ــ لماذا ؟

السؤال بلا جواب . ويقول المتفائلون :

ــ وسيأتي يوم فتنهض وتزيل عنها اكفان الجمود .

ــ متى ؟ بعد ان صارت في العدم ؟. او تتلاشى ؟

ــ بل ستنهض .

ويظل التفاؤل ضراما من نار يخنقـه الحضور المستمر التردي حتى ليتشاءم المتفائلون وقد لامس الضجر قلوبهم من طول الانتظار ..

العثمانيون ورواسبهم . فرنسا وبقاياها . جسر المؤامرات يعبر عليها النفوذ البريطاني والاميركي . حكام ــ الانقلابات من غرس هذه الارض وحصادها ــ اسلمها الواحد الى الآخر ، من غير ان ترى على يديه صبحا جميلا .

★ ★ ★

في « مسبح الجزيرة » بطرطوس . شرب قهوة مرة وحرق لفـافتين وفتح كتاب وجوده نبش فيه حقيقته النامية باحاسيس جديدة ، مدركـا ابعاد ثورته النفسية .

يفكر بمثالية ــ فيها بعد ــ ربما قليل ــ عن الواقع :

العائلة لا وجود لها اذا ما قامت عقبة امام الحق والسعادة .

الاخلاق نسبية . يفضل عليها الذوق والمصلحة . وعلى الذوق يفضل الجمال . وعلى الجمال يفضل التفاهم بين الاثنين ــ الرجل والمرأة .

القوانين من خلق الانسان لسيطرته المستمرة . من لا يريد سلطانـا ينفذ فيه فليحطم القوانين وبعدئذ ليستعبد الآخرين بقوانين جديدة مـن

صنع يديه .

نزل الى الرمال . في الفضاء طيور النورس اللطيفة تصيح وتنقض على فرائسها في المياه . المويجات تتمسح بالشاطىء .. تكر عنه تاركة آثارا كاذبة .

تشرين زمن الهدوء البحري .. الامواج اللطاف .. الزرقة المائية .. كأن البحر سهل شفاف منبسط . موسم ناشط لصيد الاخطبوط في الليل .

الطمأنينة تسللت الى نفسه كالخدر . غياب عن الواقع خير من الماضي والآتي .

« الحرية .. ان تعيش بلا قيد ولا وعيد . بلا ترغيب معذب » .

وعند الظهيرة ـ كالعادة في هذا الفصل ـ اضطرب البحر بعد ان مل السلام . فهو للعنف والقسوة وتحدي الاجسام الطافية ، والعداء للذين يستخرجون رزقهم من ظهوره وبطونه .

« معنى الحرية الا تستعطي سبب وجودك من ظالم او من رحيم . ان تكون انت سيد نفسك وحجرة البناء الاولى والاخيرة في بقائك . ان لا تعرف الخضوع لشفقة او طغيان . معناها الا تكون سببا مشروطا لحياة الغير واضطرارهم لك . معناها الا تكون عرضة لان تكره الناس وتحتقرهم » .

زأر الاعصار . الموج علا فكأنه أعناق أفيال ضخام هائجة . عنف جناح النورس فطواه مهددا . خافت الاسماك فتعمقت . وكان الصراع الصارخ اسطورة او .. كهي .

« رائد العالم . أين المشهد التشريني العذب ؟ أين الحرية من كل هذا » ؟ استقل سيارته . في رأسه أثر لسؤال مهزوز . كان او لم يكن على الشط الهادىء انسان حلم للحظة انه سيصنع الاعجوبة .. مثل ما صنع القدامى الآتون من شبه الجزيرة العربية ، ليلمسوا باقدامهم آكلة الشوك والجفاف ، رطوبة المياه وسلام الاستقرار ، ويعمروا هذا الساحل؟

★ ★ ★

اجتاز الطريق القفر شعت فيه المصابيح . الساعة الواحدة ليلا وقد شرب من الخمرة مقدارا غير معتدل . ليس ثمة في رأسه تخطيط لشيء .. فارغ كهذا الفضاء . يتحرك بلا ثقل . بلا تأثير بجاذبية .

صعد السلم باتزان الى شقته . مريم راقدة . رفعت رأسها فاهتز شعرها الاسود المقصَّب بفضة الخيوط الناعمة وبدا وجهها شاحبا متعبا.

ـ صباح الخير يا مريم .

لم تجب . حانقة ورافضة الكلام .

ـ هزي اليك بجذع النخلة يا مريم .. هلا فعلت ؟

عبارة يرددها كلما جاشت عواطفه .. فتفرح لقوله كثيرا ، وتساقط عليه من عواطفها حنانا ومودة .. انها على نقيض ذلك الآن . ردت بقرف:

ـ لقد ناموا بعد سؤال عن أبيهم وسؤال .

« أولادي هؤلاء الرُطب من شجرة الحياة » .

ردد هذا القول في خاطره . لو نطق به لجرى سخيفا فاكتفى بالجلوس بأقرب مقعد ومريم نهضت بجسمها الكثيف الذي فقد عنصر لطفه وانتهى الى عادية رتيبة لا رهافة فيه ولا اثارة .

ـ سأقول لك في يوم : وداعا يا زوجتي العزيزة ، فتسألين : الى أين؟ فأقول لك : ليس الى السماء يا حبيبتي التي صارت زوجة ، ويا زوجتي التي صارت أماً لأولادي ، وسجانا لي .

ـ اذن ستهجرني الى امرأة اخرى ؟

ـ قد سمعت اذن ... أترين ؟ لم اعد اخفي عنك سرا .. وكنت احسب انني اقول هذا في نفسي .

ـ وأولادك . أتهجرهم ؟ هؤلاء الصغار ...

ـ للكعبة رب يحميها . اما سمعت بهذا القول ؟ وللفراخ يوم فيه تطير . اما ان اهجرهم فلا . اما ترين حنان قريبا تتزوج فتغادرنا ؟ وبعد اوقات يصنع مثلها الآخرون .

نهضت فلف حول خصرها ذراعه وتأرجح قليلا فأرجحها وهو يقول :

ـ وانت وانا . نرسو في هذا المستقر القاع .. يا حبيبتي .

ـ بل قلْ في هذا المستنقع الآسن ـ قالت متباكية متأففة ـ والله ان حياتي معك هي الجحيم •

انتزعت نفسها من بين ذراعيه ، تثاءب وغادرها الى غرفته •

★ ★ ★

الشتاء ورحلة الصيف تقضت ورجع منها الخائبون •

« منى تتمتع بحريتها واكتفائها • وانا فريسة الفراغ والقهر أتوزع بينها وبين هدى • كالضال في متاهة لا يهتدي الى الظل والماء • هدى تتعذب بي • وانا أتعذب بمنى » ••

تميل منى وجهها عنه فلا يرى عينيها • لونهما لو يراه ربما سيفهم شيئا مما في اعماقها • تهرب من نظراته •

(فتاة صغيرة نحيلة مشوأة الشعر هزيلة الساقين طويلة • يراها في الزقاق المؤدي الى بيت مجاهد شاكر بدمشق •• تلعب مع لداتها بالكرة وليس في صدرها غير السهل بلا هضبتيه •

تفرس في وجهه مبتسمة • اراد خطف الكرة من يديها فشدتها الى صدرها وشحبت ابتسامتها كأنها تفكر • وعيناها بدتا في اول شعور الانثى بالخوف) •

استلقى بفراشه • ليس يعبأ • اسمعت مريم صوت افكاره ام لم تسمع ، فهو من اليأس قد طرح عنه اللياقة ، ومن الاسى قد فقد المجاملة •

••• (كبرت الايام واتسعت خطوات الرجال في الدروب واحتضنت أذرعهم مسافات ابعد وضمت عالما اكبر •• وقام رائد العالم باعمال تجارية عديدة بعد ان ورث عن ابيه ـ هو الابن الوحيد ـ ثروة طائلة من مال وعقارات •• ثم عاد من دمشق الى مسقط رأسه فوجد المدينة غريبة عنه وهي التي يتعشقها كأنها دماء تسري في جسده •

استقر بشقة في عمارة قريبة ـ تكاد تكون موازية ـ للبناية التي يسكن فيها امين الاسود وزوجته الحسناء منى شاكر • فتجددت علاقاته بهما •• وتعرف بعدئذ بوساطة امين ـ الى سعيد عارف الذي يقطن وزوجته الفاتنة في بناية مجاورة •

في لقائه الثاني بهدى سعيد ، الذي تم مصادفة ، توجس رائد العالم ان ثمة نارا سيصلاها اكثر من شخص واحد ..

يومئذ ـ يتذكر رائد ـ سعى الى مريم مستجيرا :

ـ شديني الى صدرك يا مريم ، ادفئي روحي المقرورة .

ـ انك يا رائد تعيش في مراهقة سخيفة وقد اكتهلت . لا يليق بـك هذا الدور .

ـ مريم . انا انسان منسحق . اتيت اليك استعيد حبيبتي . انـا بحاجة اليك .

ـ اولادك هم الذين بحاجة اليّ .. اما ان تكون بحاجة لامرأة .. فيا للعار !

ـ يا مريم . يا مريم . افهميني . الكهل الشاب مثلي يدخل في طور المراهق احيانا . انا في الاربعين لا احتاج الى اي امرأة . بل اليك انت . يعلك الجفاف في ظمئه . يقضم التراب .. وهي المرأة الزوجة المتعلقة الرسمية التعامل . مديرة المؤسسة البيتية .. لا تبالي .

لا بأس . ليكن بثا من القلب الى القلب فليس جديدا ان تعرف انه من جيل ما عرف سعادة الشباب ولهـوه ، فصباه الاول .. تظـاهرات وخطب وسياسة .. الثورة على فرنسا .. السلاح .. المعارك .

وصبـاه الثاني . انظمة الدكتاتـوريات .. الزعيم . الحنـاوي . الشيشكلي .. سجونهم . سياطهم . ملاحقاتهم . حك الجلـود باسياخ الكهرباء ، قلع الاظفار . الفلق التركـي . الجزمات الآكلة فـي معاجن البطون .

نزعت هذه الاحلام من عينيه ، كأنها اشواك في الاقدام .

ـ الا انت يا مريم . ظلت نافذتك حرما أحج اليها . وزهرة قدمتها لي ظللت بها عمرا أنتشي . ابتسامتك أسعدتني في زنزانتي . المنديـل هديتك .. ادفأ بردي . لازم صدري . كنت احسب رصاصة تخترقه . سيدرأ عني مقتلها .

ـ هذا سخف ـ هزت برأسها مستنكرة ـ الواقع غير الخيال .

ـ اسمعي يا مريم .. سأقول لك ..
ـ انا سامعة ، قل . ماذا ؟ هيا . اسرع . لماذا لا تتكلم ؟ ماذا تريد ؟
ـ كنت سأقول وفقدت رغبتي بالقول .

... « اول قبلة يا مريم كانت مسكرا سماويا ، لا مثيل له بين كل ما صنع الانسان بفنونه وحيله من اشربة الراح .. ولا نبيذ « قانا الجليل » .. ولا ما انتشى به داود من « خمرة تفرّح قلب الانسان » . وستظل تلك القبلة دينا لي عندك اطالبك به الى آخر انفاس الرجل في اعماقي .. ويوم تقولين : ان الشفاه خلقت للم اللسان فقط ، سأقول لك يا مريم اني اشاهد يد العدم تمتد لتسرق كنزي المخبوء . لتطفىء شموعي وتسكب للاشواك نبيذي » .

في عمق رؤى في ليل بلا نجوم ...

جلاد يسوق الرجال في سلاسل . السلاسل في اعناقهم . السياط فوق ظهورهم . السلاسل « تصوّص » . الظهور تنقسم .

وكف كصدر الجبال تتصدى للجلاد . وفتاة نحيلة تضم الى صدرها كرة . الكرة هي رائد ، الصدر بغير هضبتين .. وعيناها زهرتان من فرح .

استيقظ . الواقع جاثم فوق وسادته ، تمتم :
ـ يكفي الانسان انه لم يفقد بعد العزاء .

★ ★ ★

ظل امين الاسود يسرد على مسامع رائد العالم ، في بيت هذا الاخير ، قرابة الساعتين تفاصيل مشروع وصفه بأنه خيالي الارباح ، ورفض رائد الدعوة للمشاركة فيه ومما قاله :
ـ لا يا امين .. انا زاهد بالمشاريع .
ـ زاهد بالمال والارباح تعني ؟ حقا انت ثري لست بحاجة للمال .
والتفت الى مريم قائلا :
ـ اقنعيه يا سيدة مريم فقد يسمع لصوت المستقبل . المشروع للمستقبل واذا فقد هذه الفرصة كأنه يفقد الامل .

ـ انا لم يعد لي رأي يا سيد امين .
فتنهد رائد بارتياح وابتسامة فوق وجهه الوسيم :
ـ لم افقد الامل . بل ما زلت اعيش بأمل . أليس هذا هو المستقبل؟
ـ حسنا يا رائد . سأسافر وعند عودتي سأرجع الى هذا الموضوع .
والآن . ما رأيكما في ان نقضي سهرة الليلة في متنزه السلطان ؟
ـ هذا مشروع لا بأس به ـ قال رائد ـ انا موافق .
اعترضت مريم بحجة انها لن تترك الاولاد وحدهم . فقال امين :
ـ اعهدي بصغارهم الى كبارهم فكأنك موجودة معهم .
ـ لا . ارجوك ـ قالت ـ لم تعد السهرات لمن في مثل عمرنا .
ـ حسنا يا امين . اسحب دعوتك فنحن في عمر العجز .. اعوذ بالله!
قالت مريم بعد مغادرة امين :
ـ تهمك سهرة اكثر من صفقة .
ـ لماذا الصفقة يا مريم ! ام ان ما نملكه لا يكفي ؟
ـ انت لا تزال مأخوذا بالروح الاشتراكية . الدولة تدعيها وتتحدث بها . والناس يتكالبون على المال وعين واحدهم على جيب الآخر .
ـ تابعي . انا سامع . لا اقول عكس ما تقولين .
ـ انت تهزأ بي . لم تعد تقيم وزنا لآرائي .
ـ بل ان رأيك هو الماشي وتحكمين على احاسيسي بالموت ...

★ ★ ★

مقهى « الشاطىء الازرق » . المناضد مشغولة . الضوضاء وسحب الدخان والانفاس الحارة . النراجيل . طاولات الزهر . منـاضد لعب الورق . المذياع الجهوري . الاغنية ..
« نار يا حبيبي نار . حبك نار عايز اطفيها ولا خليها . يا مدوبني في أحلى عذاب » .
الاصوات عالية . اتخذ مكانا الى منضدة وصوت بقربه مرتفع :
ـ سهرنا امس حتى الثالثة صباحا ، وعندئذ بدأ الحظ يواتيني .. تصور ...

ضاع الصوت في الضوضاء . أحدهم ضرب المنضدة بيده . فتح الله عليه بالورق . عاد الصوت .

ــ رميت أوراقي . صولد . وجه مراد . أهّ لو رأيته كيف صار ، وراح يقسم بأنه سيظل حتى الفجر يلعب فقلت له : وأنا أقبل تحدّيك . هِهّ . أعنْنَد ممن أنت ؟!

« يا حبيبي نار . بعدك نار . أكثر من نار . »

ضربات على المناضد . الصوت الغنائي جادٌ النحيب . يتمطّى كهرة في شمس شباط . تتثاءَب الارواح . يسري خدر في الدم .

ــ مراد . ولو يا اخي .. نفض جيوبه فاشفقت عليه فقرضته خمسين ليرة .. وما يزال للفجر متسع . وبمستطاعي ان اقرضه اكثر واربحها منه. « حبيبها .. لست وحدك حبيبها » ..

الامواج بلا هدير ــ يراها من وراء الزجاج ــ تتدحرج . تنقض على الصخور التي قامت حاجزا اصطنعه الانسان فتتكسر بعنف فوقه وترتد وتنخض المياه وتعتكر بالرمال .. العنف غير المرتدع . الاسماك تأكل بعضها بعضا .

الطاولة المجاورة هادئة الآن . الجميع في تأمل وحساب . الاوراق مستورة . الايدي عصبية . العيون متحفزة . القلوب واجفة . انه القمار . ستتمخض اللحظة عن شيء .

في « سينما ماجستيك » ببيروت لوحة : « احذروا النشالين » . ذهبت السينما وذهب الانذار .. وبقي النشالون . الانسان يجب ان يضع يده فوق جزدانه ..

الامواج تنقض . البحر يفتت الصخور ولا يزيلها .. منذ ملايين السنين .. وكأنها تتكونَ من جديد .

« حبيبها انا قبلك . وربما جئت بعدك » .

الايدي عصبية فوق الاوراق .. « الفيش » الذي به يقامرون .. يتحرك ببطء . الاصدقاء يحلمون بغزو جيوب بعضهم بعضا ..

« وربما جئت قبلك . ولم تزل تلقاني . وتستبيح خداعي » .

الموج ، البحر الواسع ، الانقضاض ، النشالون ، المصير ، التراث، القومية ، الاشتراكية ، الجبهـة ، المقهى ، الجلوس حول المنـاضد ، الشجاعة .. اين هي ؟

ـ وعندما خرجنا مع الفجر كان مراد قد خسر كل ما اقرضته.. ثلاثمئة ليرة .. بالطبع ، بالطبع .. سيردها لي ، ماذا ؟ انا لا اخسر ، لا ، الف ام تبكي ولا أمي تبكي .. هه ، هه اذا كان الموضوع نقودا .

عساه يجد العزاء الذي ينشده ، مريم حكمت عليه بالجمود عن مباهج الحياة .

« العمـر يمضي ، حذار ، وانت محكوم عليـك بالحنين الى الاشتراكية ، ترى الآن الاشتراكية بين المناضد تدعو الناس الى صلاحهم، القمار رجس ، آفة ، تنادي في بوق المذيـاع .. من الاعـلام الرسمي « حذار يا مسكين .. لن تراها ، لن تراها .. لن تراها » .

★ ★ ★

المدينة الفاضلة ، حلـم المساكين والفلاسفة ، مفجوجـة الاوردة ، مفتوحة الشرايين، مفـتّقة العروق، نازفةبعربات الخضار، بباعةالصيصان والسمك ، بباعات السلق والفجل والبقول والزعتر ، بالحليب المغشوش، بورشات تصليح السيارات والجرارات بين بيوت السكن ، بالضوضاء ، بالابواق ، بالصراخ ...

عجوز بباب بيتها ناقمة .. بيدها وعاء الحليب .. ابتسم لها رائـد العالم فتشجعت :

ـ لو كان غش هذا الحليب بماء نقي .. لكن الله يعلم بأي ماء ؟! والخبز اسود .. يا ابني .. طحين « قاطع » مثل ايام الحرب العالمية .. لا يؤكل .

ـ الامر بسيط يا خالة .. الا يأكله الجميع ؟

ـ وهل من خبز آخر ليختاروا ؟

ـ اذن يا خالـة .. أليسوا كانوا يأكلون وحدهـم الخبز الابيض « الكماج » ؟

ـ طيب يا ابني على الاقل ليخبزوه احسن ، لماذا يغشونه في خبزه ؟!

استقبلته مني .

سيتطلع في عينيها . وافسحت له ليمر بها فتحفزت يداه للامساك بذراعيها وادارة وجهها اليه ، وكانت في حالة من الحياء والقبول بالواقع كأنها القلق .

(الصغيرة في الزقاق . مشوهة الهندام واللباس قصبية الساقين عجفاء . بلا جمال . عيناها فقط نرجستان جميلتان . لا يتذكر لونهما . قارنها بمنى .. الصدر كأنه سهل فيه شجرتان مشرئبتان بتواضع . الحلم رائع تأرجح . تأرجحت المشاهد .. الحقائق . اختلطت الاشياء .. الذكرى هي العزاء) .

ـ كنت تقول .. هي الحقيقة .. وكلمات اخرى لم افهمها وانا في المطبخ .

ـ من ذكريات الماضي . السياط كانت الحقيقة التي لا لبس فيها . مسبلة الاجفان . اهدابها غطاء شفاف يمنع رؤية اللون ويثير . قدمت له سيجارة . امسك يجمع يدها . اناملها مطبقة على الولاعة . ارتعاشة .. منها ام منه ؟ شفتاها الان عسل دافيء مطبقتان على القفير ببخل .

ـ اشتعلت ...

صوتها هادىء يقرر حقيقة لا لبس فيها . السيجارة اشتعلت . انفكت اناملهما واهتز شعرها بغضب وارتدت برأسها الى الوراء وارتفع جبينها .. وبدت عليها الكآبة .

ـ امين تلفن اليك ولم يجدك في البيت .

ـ التقينا . واتهمتني مريم بانني عقائدي اشتراكي عتيق .. وانت بماذا تتهمينني ؟

ـ ابدا . ولكن الاشتراكيين في الواقع صاروا نمطا جديدا . دولة بلا تطبيق .

ـ سمعت عجوزا تشتم بائع الحليب الغشاش ، والافران مطعمة الناس خبزا رديئا ، فقلت لها ان الجميع ـ اليوم ـ يأكلون خبزا واحدا، بعد ان كانفي الماضي ، بعضهم يستأثر بالخبز الجيد . العجوز فهمت ..

اما ما لم افهمه انا •• هل هذه هي الاشتراكية ؟
ــ ربما •• الجواب عند العجوز •
ــ سعيد عارف كان يقول منذ ايام : فلتأت الاشتراكية • لماذا نخاف وقد صرنا جميعا فقراء وتساوينا في الفقر ؟•• يتباكى ليستدر عطف السلطات فيغضوا الطرف عن ثروته الهائلة •
ــ هذا صحيح • فهو « الفقير المعدم » يقاول ويتعهد مشاريع ويقرض الاموال بالربا ويستورد ويتاجر بالسوقين •• البيضاء والسوداء •
مالت بوجهها • ابتسمت • قالت من جديد :
ــ ابي يقول ان المغبونة الوحيدة هي الاشتراكية في هذا الزمن • مصلوبة راية جميلة •
ــ رأيي مثل رأيه وكما من قبل • قال مرة رائد • انت مثلي في تفكيرك وتحليلك للاحداث •• ايه •• هه •• زمن مضى •• لم أره من مدة طويلة•
ــ شاخ جسمه وتجددت روحه • شاب بالفكر ما يزال •
ــ كم من سنين العذاب والقهر مرت •• وهذا « القطار » مزود بالوقود موزون العجلات جيد الصنع •• ولا ينطلق • لماذا ؟ لماذا !؟
ــ انسيت الاراضي المحتلة والعدو المتربص وكل شيء للجبهة ؟
ــ أهذا رأيك الخاص ام من وحي مشاريع أمين ؟
ــ لا تهمني مشاريعه •
ــ لكنها لخير الاسرة ، ومنافعها القريبة •••
نهضت وقدمت له سيجارة وتشاغلت عن اشعالها • مضطربة تنظر الى الباب • ابتسمت • قدم الاولاد • عانقتهم وقبلتهم فشعر بانها انانية• قاسية وهو غريب •

★ ★ ★

يد التعمير تخرج هذه المدينة من الجمود فيتزايد جشع الناس وتهافتهم على المكاسب •• وتتكشف نفوسهم التواقة للمال كيفما أتى • واما الظاهرة الملفتة للنظر فهي بناء المخازن تحت العمارات في كل حي وشارع بهدف تأجيرها وقبض خلو عليها متزايد السعر •

البلاد في عرف الحكم .. سائرة في درب اللارأسمالية حيث تنظيم التموين بالشكل الجماعي وليس الفردي . فلماذا اذن تبنى الطوابق الارضية في العمارات . بشكل دكاكين ومخازن بدلا من المستودعات الكبيرة ؟

الناس يفكرون على غير ما توحي لهم الدولة .. وفي بالهم الاثراء السريع غير مؤمنين بأن الاشتراكية شيء جدي في الدولة . وما من قانون يحد من الربح الاقصى .

امين الاسود مثال الرجل الطامح . متحدر من اصل عمالي .. ناجح اليوم ومن بين المرشحين للاثراء . محسوب بين من يعرفون من اين تؤكل الكتف .

يغرق الآن همومه في الكؤوس ــ عند المساء ــ يشربها بشراهة . يفكر برفض رائد لمشروعه .. ومنى في امور البيت منهمكة لا توليه اهتماما . فناداها فاقتربت بلا حماس فتناولها كيفما وصلت اليها يداه وسحبها نحوه وشدها اليه بلا كلمة او صوت والصق شفتيه بشفتيها المطبقتين وقد طوى جذعها ومال فوقها .

الاولاد ناموا . وهو ملتهب الآن وهي على نقيضه ، فمرّ براحته فوق ثدييها كأنه يجتثهما وما تزال على استسلام آلي كأنها تؤدي عملا من أعمالها البيتية . كصنع القهوة . رفع المائدة . غسل الاطباق . كوي الثياب .

قرصها في خصرها بحنق وقد ابعدت شفتيها عن شفتيه وتملمت لتخرج من بين ذراعيه :

ــ تحركي يا جماد . تجاوبي .

مالت برأسها عنه . حررت شفتيها من انفاسه المخمورة وما تزال على صمتها فنهض ونهضت . دفعها امامه بعصبية الى غرفتهما فانصاعت بنفس التلقائية الآلية غير منفعلة أو رافضة .

اتجه الى السرير وأغلقت هي الباب وأطفأت الضوء وأتت اليه فاستلقت الى جانبه فانقضّ عليها وأزاح ثوبها عن فخذيها وصدرت عنه

تأمات قصيرة .. ولحظات ثم شع النور في الغرفة ، وهرعت الى دورة المياه تفرغ ما في جوفها وتغسل فمها ووجهها .

شيئان لم تتعود عليهما طوال زواجها : الرغبة والمشاركة . وتخرج في كل مرة من العمل متقززة .

« منى جارية بلا رأي في بيت الزوج . خادم . تطبخ . تغسل . تلد .. الاوامر دائما منه والانصياع دائما منها . تعالي . تجردي .. استلقي .. باعدي .. وينتفض الديك سريعا بغرور » .

حكاية الايام الطويلة . وتنهض في الليــل على بكاء صغير تهــدىء روعه . هذا « الصوص » الصغير سيصير ديكا .. مثل الآخرين .

انامل شاعرية الملمس تزحف فوق ذراعيها . شفتان انطبعتــا علــى جيدها تقبلانه تهمسان اليها بالكلمات الساحرة . انفاس عطرة دافئة فوق نهديها . وهي ماضية مع هذا الحبيب ــ لا تدري من هو ــ حتى تبلــغ غايتها وتصدر آهاتها . ويصيح أمين :

ــ اما تكفيني متاعب يومي حتى توقظيني باحلامك السخيفة . ايتها الحمقاء ؟

★ ★ ★

ليس من احد يفهم امين الاسود مثــل سعيد عارف . ويستوعــب مشاريعه ويتذوق آراءه . وهو رجل عملي الى حد ما . نوّاحة بكّاء وقد شمله مؤخرا قانون البلدية فاستملك منه لمشروع عام جزءا من ارض في طرف المدينة ، فتحسنت ، فراح يبيعها باغلى الاثمان .. لكن . يا خراب بيته . ظلموه . لم يبقوا له شيئا .. تلك نغمة من تلحينه واخراجــه .. يغطي بها اوضاعه ، كأنه يستدرىء بها من « صيبة العين » .

عقارات . بساتين . ودائع في المصارف اللبنانية .. تعهدات . استيراد . مصرف بيتي صغير يقرض بأعلى الفوائد .

اما ملكيته الخاصة الاخرى ، غير المسجلة في دوائر العقارات ، فهي هدى سعيد أجمل جميلات المدينة وأفتن نسائها وأبينهن صبا . ملكية قل نظيرها .. لا توافق بينها وبين مالكها وهي له وحده بحكم القانون .

استمع لامين باهتمام وطلب من هدى ان تقدم القهوة للمرة الثانية وذكّرها بان شريكه العزيز يحبها سكّرية مثل العسل . وعاد الرجلان الى حوارهما في المشروع الواعد الذي يقترحه امين . وسعيد لا يخفي اعجابه بهذا الشريك « الديناميكي » مبتكر المشاريع .

هدى مستنكرة :

« أيأكل الناس الذهب كما الافعى تسف التراب » ؟

قدمت القهوة وانسحبت الى شرفتها . ثائرة الاعصاب الآن كأن سيلا في دمائها تفجر فجأة . فبينما زوجها هي وزوج تلك منى . ــ ثنائي ناشط ــ يضبطان عقارب ساعتيهما كي يحققا ارباحا جديدة .. تستقبل منى في شقتها رائد العالم ..

تنظر اليهما من شقتها . هو مبتسم وتلك صامتة . يجلس فتنظر منى اليه كأنها تملأ الآن نظرها منه . يلتفت اليها فتهرب بنظراتها عنه .

منى تلعب بعواطف هذا الرجل الوسيم العنيف الناضج جسدا وفكرا ــ تفكر هدى ــ تعذبه وتتلهى به .

رن الهاتف . منى تطلب امين فثمة عندها من ينتظره . نهض امين وقبل ان يغادر دعاهما الى سهرة في فينيسيا أو مسبح الجزيرة . اعتذرت هدى . غير راغبة بالسهر . مما جعل سعيد يلومها بعد ان اغلق الباب وراء امين ويتهمها بالتخلف الاجتماعي .

ــ وانت ــ العصري المتقدم ــ متى كنت تأخذني الى السهرات ؟

ــ انت لم تدعي لي مجالا لاجعلك سيدة مجتمع ...

ــ سيدة مجتمع ؟! انت وحدك تحسب هذا . ومع ذلك فهذا مجتمع الرجال الانانيين الساهرين وورق اللعب والكؤوس بين ايديهم .. ثم يعودون مع الفجر الى بيوتهم وزوجاتهم بانتظارهم ليخلعن لهم احذيتهم .

ــ انا لست مثلهم .

ــ والسبب ؟ ما السبب يا ترى ؟

في صوتها نكهة مرة متهكمة ومعنى مرموز فصاح :

ـ السبب . السبب ؟! الاحسن ان يقف الكلام هنا .

★ ★ ★

سعيد عارف رجل الاعمال . شب في عالم التجارة الميسورة . وادركه العهد بالتغيرات المسماة بالقرارات الاشتراكية ، فأخافته وهو في الاصل ـ كاره للضرائب والرسوم ـ كأنها لا تجبى منه بل تحتجن من دمائه .

محتقن الوجه بلون وردي يخفي ترهله تجاعيد السنين الطويلة فلا يظهر منها شيئا . اكتسى رأسه بالنديف الثلجي ، كأنه مزمن العمر .

ـ ألا ترى اذن الخراب في تلك القرارات الجديدة يا امين .. وانهم قد قضوا بها على التجارة ؟

ـ مهلا يا سعيد . انه عصرنا الذهبي وفرص الارباح الكبيرة ما تزال سانحة . الدولة تستورد وانت وامثالك توزعون . ربحكم محدود لكنه معقول وبغير مزاحمة . ما عليك لو تتكيف مع الواقع المستجد ؟!

ـ تعجبني آراؤك والله . أجل . قل . ماذا ايضا ؟..

ـ منعوا تجارة الحبوب . لا بأس . تاجر بالزيوت . غدا يمنعــون هذه . تظل بيدك مواد البناء وهي قطاع واسع .. الالتزامات . الاراضي. شراء وبيعا . القروض بالفوائد غير القانونية .. تهريب رؤوس الامــوال الى لبنان .. ولو .. انت سيد العارفين !

تضنيه الخسارة كما تضنيه المصاريف غير الضرورية . وهدى كأنها ما خلقت الا لترغمه عليها .. والا .. لماذا قبلت به زوجا ؟

(رجل بلا أهل ! الا الاقرباء الابعدون. أدرك الستين ونيفا، وعندما زار أهلها استقبلوه بحفاوة .. المال يطيح برؤوس الرجال فيتساهلون فتمتد المطامع الى حيازة النساء ..

قالوا لها انه المقدور . ومكتوب على كل بنت ان تتزوج . ومستقبلك لديه مضمون . ليس كبير سن كما يبدو من شيبه المبكر ..

قبلت به . بنت ست عشرة سنة . وصار سعيد عارف يأكل من معجن هدى سعيد وثدييها ، من غير ان تقتنع بانها تقدم الى من يستحق. ووجدت مع مر السنين ونضوجها التام انها ليست واصلة عنده الى ما تصبو اليه

أنوثتها ورغباتها . فليتحفها بالمال . بالثياب . بالمصاغات .. هذا كل ما يستطيع ان يمنحها لقاء ما تمنحه .

وكان لها منه ايضا اربعة اولاد في غضون ست سنوات ، ولم يسكت هذا التململ في أعماقها .. وسر يمور . أمرأة متزوجة . برسم الحب . المطلوب عاشق يستولي على فؤادها . يسيطر على حسها . تعشقه حتى نهاية عمرها .

★ ★ ★

شاهدته مريم خاطر ينزل من سيارته . في سريرتها منطق غريب من الاعتزاز والحنق . هذا الوسيم القوي الشخصية ذو العنفوان . رائد العالم . . زوجها هي . تعجب به النساء . واحدة محرومة ، واخرى مراهقة . اما تلك .. السمراء فما عذرها ولها زوج ما يزال شابا ؟

في قرارتها ــ هي مريم الزوجة ــ ان زوجها في خطر . تغار عليه ؟ لا . اربعيني . مبثوث الشعر بخيوط بيض .. فمن هي التعيسة التي ستتعلق به ؟ من مثلها ــ هي زوجته ــ تعرف عيوبه ؟

انتقل بها الفكر الى ابنتها حنان . ستتزوج قريبا وتنجب البنين والبنات . ويصبح ابوها رائد العالم جدا فيرعوي ويستقر في حظيرة بيته، مغلوبا . يظل لها ــ مريم ــ وحدها . يدفىء لياليها وتدفىء لياليه ، ببقايا جذوات الجسد .

توارى عن ناظريها .. فلم تعبأ ، ومضت الى بيتها ..

راعها منظره الكئيب . أمين في خارج المدينة . لم يسألها عنه. وسألته هي عما به ، وندمت . هل تتدخل في اموره ؟

ــ أيطيب لك سماع الكلام عن الالم ؟

ــ الالم ــ آسية وهادئة ــ لا يخيفني .. لكن لماذا الالم ؟

(لسنين مضت .. فتاة نحيلة صغيرة تمرح مع لداتها في زقاق ... لا . بل عصفور فوق غصن .. يقفز الى غصن . يزقزق . لا يشغله هم . شاهده صياد قاسي القلب فاطلق عليه النار فارداه فتناثر ريشه فاخذه فوجده هزيلا لا يصلح للاكل ...)

نظراتها متعثرة بالاشياء وافكارها سارحة الى بعيد .
ــ قد انذرتك . ان سماع الكلام عن الالم ...
ــ انت تسخر وتتألم . لماذا العصفور ؟
ــ يجب ان يموت البريء ليكون للموت جبروت .
ــ انت تحدثت اولا عن فتاة .. من هي ؟
خيل اليه انها واجهته .. نظرت في عينيه ..
القول هو المحسوس والالم اطار يزين حياته باكملها . صار نقطة التجمع في نفسه ولم يعد اطار الصورة .
(الزقاق ضيق .. بدمشق . الحي شعبي . صبيان وبنات صغار .. يتصايحون . وصغيرة عجفاء منفوشة الشعر تقفز مع لداتها .. يتطاير ثوبها المشوه وتشد الى صدرها كرة . زميلاتها يصحن بها ان ترمي اليهن الكرة . عيناها مشدودتان اليه . يمر بها . يلمس شعرها عابثا به . عيناه تشدانه اليها . لونهما . لا يتذكر ... لا سيما وقد مرت الايام ..)
ــ مسافات الزمن . لا شيء سوى المرارة .
ــ هل ما رويته لي قد حدث مثلا ؟
ــ المسافات تزول . اما الزمن فلا يرجع .
تشعر في رده بشيء من الهجوم . الهروب من الاجابة هو الهجوم . فماذا ستقول له ؟
ــ امين سافر ولن يعود قبل اسبوعين .
صامت . عيناه الى النافذة ..
ــ سأحضر القهوة .
ــ انا مغادر الآن . دعي القهوة لمرة قادمة .
ــ لماذا تغادر ؟ ابق واشرب القهوة .
واجمة . كئيبة. وهو مقدم على وقت سيحيل دنياه الى عذاب حقيقي.
« أهو الحب ؟ عبث . غمامة عابرة . ستنقشع الغمة ويعود الصفاء .
لو تعلمين يا مريم .. كم امرأة مرت بين ذراعي بعد خمس سنين من

زواجنا ؟ وانت صرت اما لا حبيبة . وتظنين ــ كما قلت لي مرة ــ انني غير قادر على مغازلة النساء لانني لا احسن هذا الفن » .

الفراغ . علة العصر . نتاج تطور الانسان في آخر القرن العشرين . هرب الانسان الى الفضاء الخارجي .. الى اعماق البحار .

اما هو .. ففي دوامة تدور .

سيخلد الى نفسه . يبتعد . يدخل في الصمت ، في السكون . ينسى. يتوحَّد في غاب الشعراء المهجريين .. مع ابي ماضي . نعيمة . نسيب عريضة ، جبران .. فنانون فاضلون ، عاش معهم في الكتب . فليعش حياة اشعارهم اليوم ...

بوق سيارة . كلب ينبح . باب يصطفق . جريدة بالية يعبث بها الهواء . طفل يبكي . مذياع . بياع ينادي .

الاصوات اليومية التي تعايش الاجتماع البشري . مفروضة على وجوده . تنغص خلوته . تطرده من عزلته .

التوجس . قبل ان تتحول الاشياء والناس الى اجهزة حركات واصوات . حسه الضمني الكامن فيه كعنصر النار في المادة .. يحيّره .. هل دخل في المرحلة المتقدمة للدرب المسدود ؟

الامور لا تخلق بفعل السحر .. تكبر على مهل . لها مراحل نمو ثابتة القوانين .. فمتى كانت امرأة تشغله ؟ الحب . والمرأة .. وماذا يحدث له الآن كأنه خارج عن مفهوم الطبيعة .. او فقد الفعل الحقيقي في سلوكه .

(اما القطار فمزود بالوقود . مشحم المفاصل . حار الاحشاء . قائم فوق عجلات . جديد . كل ما فيه جديد . يهدر يهدر . يضج يهتز . يهدد بالانطلاق ولا ينطلق . لا يسير . الركاب في داخله . منتظرون . أزمن انتظارهم . وسواقون كثيرون صعدوا الى غرفة القيادة . اطلقوا صفارة المسير ــ ما انطلق ونزلوا منه من الباب الآخر) .

« عيناها لا تألفانني . لا أرى لونهما . تهرب بهما مني . ويراهما صبي البقال وبائع الحليب وتاجر الاقمشة والجارات وأطفال الحي وامين

الاسود » .

امام البناية . وهي فوق . حان ان يحدد موقفه منها . حان لهـا ان تفهـم .

★ ★ ★

تدريب على السلاح وعمل شعبي . تأهب يضع المواطن تجاه واقعه .. فيعمد الى الخمرة والمرأة والاغنية وجني المال وهموم البيت .

اما هموم الوطن فشغلة الناس المتخصصين المرصودين لها .. الهزيمة .. من هنا تبدأ .

(لم يكن الشعب آنئذ يملك سلاحا . ولا مالا يشتري به السلاح . الفرنسيون يقرعون ارض الشارع بجزماتهم . لن يخرجوا .

رائد العالم يومئذ شاب طري العود . نحيل وقوي الساعد . لا هم يحمل فؤاده غير هم البلد المحتل يريد حريته واستقلاله .

كيف يوجد السلاح ؟ من اين يأتي السلاح ؟

المعركة الاولى تترك انقاضا رمادا جثثا وقطعا مبعثرة مـن السلاح . يغنمها المقاتلون .. بعضها مدمَّر . بعضها صالح للاستعمال .

ابتسامة ملأت وجهه . لم تنته ايامه . سينفخ في الرماد فتتقد الجذوة الكامنة ، كالنار في المادة ..

الماضي لم يمض . ما أطيب خمرته . تنشي . الشباب ابداع في كل شيء . في الوطنية .. المعارك لا تتوقف . الموت بلا هيبة كأنه مهزوم ...)

قال المذياع الرسمي ان الامبرياليين زودوا العدو بالفانتوم ، آخـر طراز .. لم يبال بالامر احد .

وقال ان الانسان قد نزل على سطح القمر . الناس اخذتهم الرجفة . ذهلوا ثم صدقوا . فالارض صارت شرسة متعبة ، عيشتها مرة . حروب قتل . جوع . اوبئة .

الانسان المتحضر . صاحب العادات الجميلة والسلوك الاجتماعي . مسكين .. متأزم .. لا يتحمـل الآفات : الفراغ ، الغربة . القلـق . الضياع . العقد . الضجر .. فعالجها بالعقاقير . بالجلسات النفسانيـة

والروحانية • بالفلسفات • بالمخدرات • بالبدع • بالصرعات • بالتقاليع • بالرفض • بنكران كل القيم وكل القيادات •

لم يشف فذهب الى القمر يغير المناخ •

ما طال به التطواف فوقه فعاد ليجد الآفات التي تركها ما تزال بانتظاره • فيتنام • افريقيا • فلسطين • العنصرية• السرطان • السكري• نشفان الشرايين البصرية • تصلب صمامات القلب • فواتير الكهرباء • بدلات السكن والمدارس • الوصفات الطبية •• واشياء اخرى اكثر بساطة ؟•••

كثيرون مرميون في دوامة البحر المتلاطم — رائد العالم •• ليس مفرد! بل جمع — النفوس موزعة الاهواء • الامزجة متباينة • منها ما تريد الحب • المال • الخبز الجيد • النسيان • الكفاح المسلح •

منها ما تريد كل هذه المرادات • ومنها ما لا تريد شيئا • ومنها ما لا تدري ماذا تريد • والمذياع الذي اعلن ان الامبرياليين زودوا العدو بالسلاح الجديد ، وان الانسان حط على القمر واكل فوقه وجبة من الطعام •• صاح بان عدوانا جديدا قد وقع على ارض الوطن • وان العدو رد على أعقابه •

وشهدت المدينة الساحلية ، عبور النعوش المكللة بالريحان والاعلام • وهي في طريقها لتتوزع على القرى وبيوت الحالمين بالارض المعطاءوالاطفال السعداء وبالكرامة والتحرير •

يوم ••• بكى فيه كثيرون • البكاء عاطفة والانسان لا يعيش مرتين، ورجع رائد العالم الى بيته غاضبا وحزينا •

الانسان مرآة سواه ، فعندما شاهد مريم وما بان من ترهلها وشيب شعرها ، لاح له أن الجيل الذي حقق الجلاء في سوريا ، قد أفسح الدرب لمرور آخرين •

لو انه يؤمن بالبكاء او من عادته •• لبكى •

نفسه اقرب الى هذا وروحه منسحقة •

ملحمة التائه

يقضي اوقاتا متتابعة في الجبال وعلى الشطآن ـ يفكر بهجر طرطوس الى غير رجعة .

الرياح تسوق غيوما تلعب في السماء كخيول عملاقة في سباق لا يتحكم بأعنتها احد . واليم يحترق عند الافق بنار . ينسف اليابسة وهي ثابتة بأمواجه الصاخبة العاوية .. وتتجلد اليابسة مثل اولئك الذين عرفهم رائد العالم ـ وهو واحد بينهم ـ يثبتون تحت ضرب السياط والتعذيب الوحشي .

(قوافل . الواحد وراء الآخر . مثل دواب مساقة الى الذبح ، يؤخذون الى السجون يجرب فيهم القيمون على العباد ، قوة الساعد ، والاعتداء والكره ، ويمتحنون فيهم قوة الاحتمال .

والانسان سيد الوجود يصير الى حشرة زاحفة بلا ساق تنتصب عليها . وتظل قوة العناد ـ وهي فضيلة ـ عزاءه الذي يغيظ الجلاد .

من تجارب عمره . في سجن قبيح فتحته الدكتاتورية . فكان الاضراب عن الطعام حتى الموت . او الحرية .

لم يكن من الخالين واحد . فماذا حدث ؟

الامور تبدأ ولا احد يدري كيف تنتهي . كان هذا بعد الجلاء بثلاثة اعوام) .

يتأمل البحر . في منطقة الشيخ البحري . الولي تقدس سرّه . الى جانبه يجري جدول نابع من الهضبة القريبة ـ المسافة حتى المصب ـ ثلاثمئة متر .. ضفتاه .. وكذلك .. الى مسافة .. قريب .. ينبع .

والرمال .. مثل .. عندما جعل .. لا بد .. وقد .. العنف ..
(البحر يقذف من جوفه ما زرع فيه الانسان .. سفنا مدمرة وألغاما منفلتة عائمة . واخشابا وصناديق واسماكا ميتة ..

الحرب العالميــة الثانية انتهت . ووعــد بلفور بدأ . البريطــانيون يسلمون مراكزهم خفية للصهاينة .. الهجرة اليهودية الى فلسطين ممنوعة .. زوارق تحمل متسللين من بطون البواخر الى الشواطــىء السوريــة واللبنانيــة ، ومنها الى فلسطين عبر الحدود التي يحملهم اليها عملاء ينتظرونهم على الشواطىء .

زورق يقترب من الشاطىء . يكاد يلامس الرمال . رائد العالم مــع آخرين يتربص .. لن يفلت الصهاينة .. يطلق النار من مسدس صغــير عتيق . يسوق المتسللين الى مخفر المدينة ، فيحكم عليهم بالسجن لمدة شهر واحد .. وبعدئذ . اين يرسلونهم ؟.. لا احد يدري . لكن ما يــدري هو حقيقة .. حيث يكون على الشاطىء لن يدخل الى الرمال صهيوني) .

ارتدت نظراته عن الشاطىء ورجعت مخيلته من رحلة السنين البعيدة. الذكرى فيها طعم الانتصار . الموج صاخب في النهار الشتوي . الماضي مضى . والحاضر لمن المرارة التي لا تحلو .

رجع بسيارته . لم تذهب همومه مــع ذهاب الماضي من بالــه . لا يستطيع . له مع هدى موعد مفتوح حتى يتحقق .

تنتظره في الحي شبه الخالي .

الامطار حبال تؤلف ستارة ، والسيارة الى جانب الطريق الجنوبي . تقبّل يده .. وتضمها الى صدرها . تحدث شفتاها في جسده زلــزالا يفجِّر اعماقه .. ضائعة هدى . آهاتها . نأماتها . مناجاتها . تنهداتها . نار في دمائها .

يضيع رائد العالم في عشق يتوق اليه . الجسد المؤَثـّر ــ الآن ــ الاوحد لسلوكه .. البدء والهدف . انقطع عقله عن ممارسة الانضبــاط والتقيد بالحالات السلوكية والحياتية التي تشكل وجوده . انقطــع عن الماضي الممتد حتى اللحظة التي اوقف فيها سيارته الى جانب الطريق تحت

غطاء مطر كالستارة المسدلة .

الجماد لا يحس . الانسان بطبعه منفتح للاغراءات . للاثـارة . يتجاوب .. يردد :

ـ أنا سعيد بك حبيبتي .

ـ جعلتني اعيش حبيبي .

قبلها . تأوهت .. ما كانت تنتظر كل هذه السعادة وهي فـي لهيب رغباتها . وتخاف ان ينساها ... أينساها .؟

ترتمي بين ذراعيه من جديد .. تتحد به جسدا بلا انفصال .. الحب يتبادله العاشقان .. فيه ما يحفظ العهد .. هكذا قرأت يوما في روايـة ـ كما الخبز والملح .. رمز الامانة والاخلاص .

لمسة يد . ضمة . مس شفتين . عناق جسدين . مؤشر صلة دائمة . عندما تصدق العواطف وتكبر الاشواق ـ قرأت هـذا ايضا ـ ويصير الحبيبان جسدا واحدا وقلبا واحدا . وعلاقتهما اقوى من رباط الزواج .

★ ★ ★

في البيت .. ينتظرها سعيد عارف . في عينيه لسع سياط .

ـ تأخرت . أين كنت ؟

تذرّعت بحجـة ما كانت معروفـة في العصر الحجري . الخياطة . الكوافير . طبيب الاسنان . ما من واحدة من هذه الذرائع تذهب غيظه .. يغار . رجل متعود على التملك .. صحيح انه يحب المال فوق كـل حب . لكنه لا يفرط بشيء مما يملك عقارا كان او امرأة .

ابتسمت له .. لماذا المشاكل ؟ تهيأت لخاتمة هذه الليلة . امام المرآة تبدل ثيابها . بدا له نهداها تحت الحرير . وردفاها .. ودارت فشاهد اكثر . انها ما تزال ملكه ـ وقد تأخرت فقط بالعودة ـ فلماذا يحزن ؟

تمشط شعرها تتعطر . ترش عليه من بخاخة عطرا مثيرا . يحنق ثـم يضحك يتنقوز . بين مستاء وراض .

« فرضوه عليّ بقانون فتسلط على جسدي في زيجة شرّعها مرسوم سيء مثل الزنا . وانه يأخذ من جسدي ما يشاء فليسكت اذن » .

سيأخذ . والآن .. يطوقها بذراعيه .. الآن .. قبل ان تتأبى .. بل عارية تماما .. بلا اي ستر ــ الحلال حلال . والحرام حرام مهما ارتدى من اثواب . كما ولدتها امها .. يغطيها شعرها .. ليس سواه .. ليست في وارد حبه او عشقه او قبلاته .

يلهو بها . لعبة .. وهي حاضرة وتلهو هي به . لعبة .. من غير ان يكون حاضرا . تتعادل اللعبتان . لا خلل في ناموس الحياة .

اما في ذلك اليوم .

(أبرز نواجذ غيرته وأساء معاملتها ، فصاحت به :

ــ اصنع بي ما شئت . اقتلني . لكن لا تهددني ، فانا لا اخاف منك .

ــ سأفعل في يوم .. سأفعل ان عرّضت شرفي ...

ــ لا . لن تفعل فانت تحب مالك وممتلكاتك وجاهك . من يحب هذه الاشياء لا يقتل من اجل الشرف . فالمال عنده شرف آخر اقوى ..

صفعها وندم . قالت له بحقد متفكر بارد :

ــ ان عدت الى ضربي ثانية .. تأكد .. تأكد . سأهين شرفك .

ــ اقتلك قبل ان تفعلي .

ــ لن تعرف إنْ أفعل .

« مرة قال رائد العالم ــ تتذكر هدى قوله ــ وكان في زيارة لسعيد بحضور امين ومنى وآخرين .. المناسبة ؟. غير مهمة المناسبة :

ــ امرأة من هذا الشرق تزحف على بطنها نحو قدميّ الرجل. تتمسح بساقه لترضيه . تخافه .. بيده السوط ؟ لا .. بيده المؤسسة المالية . ويوم ينتزع من الرجل هذا السلطان ، فاما يزحف زحفها ، او ينهض الاثنان معا في مساواة » .

نفثت عن كربتها . وسكت هو . فكر بعبث تصرّفه . وانتهى الى ان ما يستحق الغيرة ليس المرأة .. فالتضحية للآن اسم يطلق على شيء احمق . « الشرف . اجل .. صدقت الخبيثة ») .

تتمنع فيلتهب أكثر . يريدها عارية .. تماما .. وانها لعارية ..

تبتسم . وهو راض فرحان بامتلاك هذا الجسد النادر الجمال .. تدفع هي ضريبة عن حبها . ليأكل العجوز بقية ما ترك رائد .

★ ★ ★

(كل شيء في دمشق كان معلقا بخيط واه . الانفس تزهق بغير حساب . الاسواق تنهب بغير وازع . مدارس دمرت ومشاف دكت . والبرلمان قصف واستشهد كثيرون من حاميته ..

تتذكر منى . الثورة . من حي الميدان الى القصاع الى حي الاكراد ... عام ١٩٤٥ . أبوها ثائر على فرنسا وأمها ترجوه الا يعرض نفسه للهلاك . لا ينزل عند رأيها . فتلك فرصة الوطن ليتحرر .

من ذكرياتها .. فترة مراهقتها .. اجتازتها بهدوء وسلام . ما لها ولها الآن ؟ العنف . والتضحية .. مجاهد شاكر في المقدمة ورائد الى جانبه . فتى . جريء . منى في العاشرة من عمرها .. وعاد ابوها جريحا يستند الى ذراع رائد .

ــ لا تخافوا . جرح بسيط .

وخرج حاملا سلاحه . ولم تعد تراه .. بل تسمع به .. فتضم ما تسمع الى الصورة التي اختزنتها في ذاكرتها ، فتؤلف منهما فارس احلامها.

ما بهتت الوان الصورة وقد باعدت الايام بين الجميع . تزداد الصورة ظهورا وتتوضح خطوطها وظلالها . الخيال خلاق ، وفارس الاحلام يتسلل في الليالي الى قلب العذراء الحالمة .

تراه قدا وشكلا وروحا . حتى ليتحول الى مثال . مثل صنم معبود .. يثير فيها عواطفها .

زمن آخر أتى . الدكتاتورية نصبت حاكما . بأي حق ؟ كوريا للكوريين شعار مرحلة . يكمله ــ الخبز في الشام ــ وسمعت من جديد برائد العالم حتى لتظن انها شاهدته . كيف ؟ أين ؟

لا تدري . بطلها يوم كثر الابطال . احسنهم . امجدهم . انقاهم . وسيم . انيق . عارف . عاطفي . شجاع .

الحياة خالية من الرجل المثال . سقط الابطال. انهزموا . استسلموا.

قاوموا ، رجعوا ، غيروا كثيرا من الاوضاع • ركزوا حقائق في ضمير الشعب •

ضاعت الصورة ولم تمح ، وحل أمين الاسود في حياتها بيتا ومطبخا ومائدة عليها خمر وسريرا ليليا فكرهت الحب والجنس والرجل ، وصارت الذكرى مرارة بلهاء •

ستقطع الروابط المثالية مع الماضي •• في سبيل انجاح مؤسسة الزواج • عبثا • ربما لا ؟ الزواج من البداية لم يكن حاملا عناصر النجاح) •

★ ★ ★

تتأمل منى من شقتها • الجانب الغربي للبحر الواسع تتوسطه جزيرة ارواد التاريخية •• والى جنوبها سلسلة من الجزر العقيمة ، كهيكل عظمي لأفعى ، عائمة في اليم •• الغروب •• التهب الشفق بحريق اوراق صفر فراح دخان وردي يتبدى •

ومن البحر انسحبت نظراتها بعد ان لم تكتشف اسراره ، فاستقرت على حي الرمل المكتظ بالعمارات وفوقه ضوضاء عميقة صادرة عن هذا القلب البنائي ــ البشري وهو يخفق كمحرك جبار في سفينة يشق بها كل المحيطات •

الانسان مولد الطاقة والحركة • خالق كل جميل • واقف في عالم اسود يضيئه من نور قلبه •

تتفكر وقد التمع خداها بورد الشفق • زرقة البحر الممسوسة بنار لونت شعرها بلون غريب • وتابعت الشمس التي غابت الآن سحب شعرها المحلول الجدائل الذائب بالاحمر والاصفر • ودم الحريق الوردي جف في مقلة السماء المفتوحة فوق العباب وراح يتحول الى رماد ، والسماء بدت كأنها تستقبل ليلا بلا قمر •

ومنى تسأل نفسها : اين حبيبي ؟

اولادها يلعبون منشغلين عنها ، فتحس بالاسى بالوجد ، فتفتح المذياع وتضجر فتغلقه ، فتدخل الى غرفتها •• فراغ • قلق • تخاف كأنها

افاقت فوجدت نفسها في كهف .

الشمس انتحرت في البحر . واصلت السماء سكب قرابها المليئـة ، تغسل الشوائب عن الاصول . تمحو الغبار عن السطوح وتطرح كل قذر في البحر آكل الجيف .

« لن تغسل هم النفس . السماء بامطارها .. بكواكبها ليست اكثر من ينبوع يتفجر بالماء والنور » .

... « وانت يا منى . هل فقدت شيئا : سلسلة ذهبية . منديـلا . خاتما زجاجة عطر . مشطا فضيا ؟ لتهنأ من لم تفقد شيئا » .

شفتاها جفتا . خداها مثل ذهب فقد الوهج . بكت منى كسماء تمطر بسخاء .

★ ★ ★

وكان يوم . ليلا ونهـارا . والرب رضي بما صنـع فاستمر بعملية التكوين . والنور عم الغمر والجلد . ورأى الرب انه حسن . واختالت سفينة على وجه الطوفان تتعثر بالجيف العائمة وجثث النساء والرجال والاطفال والابقار والافاعي والطيور ، وتصطدم بالاشجار المجروفة فوق الجبال التي فقدت زهو تيجانها .

وتهادت فـوق الغوطة وبساتين طرابلس ، وفـوق ارواد وكـروم طرطوس وضاعت في نأيٍ مجهول اختفت منه الورود وغصون الياسمين.

وارسل نوح الغراب فما عاد وظلت انثاه في القفص بلا ذكر . امـا الحمامة فعادت وكان الربيع قد وصل عائدا الى ارض سوريا ولمس بأنامله الجافة بطون الخصب فأزهر شجر الزيتون وانعقد ثمرا عصره الناس نورا وشفاء ومسحوا به المعد وطيبوا به المآكل. وما تبقىمنه عبّأوه وباعوهفي اسواق اوروبا من اجل الحصول على العملة الصعبة داء هذا العصر .

لا قطع نادر . لا استيراد . قوانين جديدة . التجارة مقيدة .

النـاس يأكلون البرغـل والخبز والتين والملفـوف وسائر الخضار والبقول . منهم من يتقاضى اجورا في المصانع . في مؤسسة الحكم . في المدارس . في المقالع . في التجارة . في بيوت الدعارة .. واعتـادوا ان

يشتروا بدراهم كدحهم الوصفات الطبيـة • وان يخدموا ولا يخدمهم احد • وان يشتغلوا ليأكلوا فقط •

وحكام يسنو ّن القوانين لصالح طبقة معينة •

الحوار بين ثلاثة • التجارة غير حرة •

ــ رائد انت متعصب لافكار معينة من زمن الشباب •

ــ انا في نهاية الامر منكم يا سعيد • وان حننت الى ماضيّ •

ــ أسامع انت يا امين ؟ خراب • خراب والله •

ــلا تيأس أنت • وأكثر الناس ما خسر شيئا وما كانت تهمه التجارة الحرة •

ــ ونحن الذين نملك دفاتر التجارة واوراق الطابو والارصدة ؟

ــ حان ان يسقطونا من الحساب •

ــ بالواقع ــ تدخل امين ــ اسقطونا في إعلامهم • وما زلنا العصب الحساس في هذه الدولة •

ــ ومهما يكن من امر فالخراب آت ، ولا شيء سواه •

الحــوار تافه ــ يعرف رائــد ــ وهــو يقــارع اذرع الطواحــين الدونكيشوتية • فغادرهما يلعبــان النرد في مقهى الشاطىء الازرق •• ويضحكان متفائلين بمشروعهما الجديد •

وعند الواحدة افترقا • وسعيد في البيت ، جلس الى مائدة الطعــام متعبا ، وامامه صحون مختلفة الاطعمة ، وهدى منصرفة الآن الى اعمــال اخرى •

نظر الى الطعام ــ لماذا كل هذا ــ فتناول شيئا من هنا وشيئــا من هناك ونهض وكأن قليلَ ما أكل ثِقَل باهظ في معدته، وتناهى اليهصوتها تعلمه بأنها خارجة فتذكر شجاره معها هذا الصباح • وانها ــ يظن • بل هو متأكد ــ تحاول اثارة غيرته فيغتاظ •

لا • لن يغتاظ • فالغيرة عنده بنت حالة غير ثابتة • اما غيرته الحقيقية فعندما تفوته فرصة الربح اتيحت لسواه • يشعر بانه مهان • مغدور به • اما هدى فتعود •

اخذها رائد في منعطف حي الرمل في اوله فدخلت الى سيارته وفوق رأسها منديل يغطي شعرها وجانبي وجهها وعلى عينيها نظارات كثيفة .

ضفاف نهر عمريت وراء الطريق المعبدة . أشجار الدفلى والدلب العالية ستارة مانعة . خضرة زمردية تكسو الضفة اليمنى ــ والمنبع القريب لا يدع الامطار تعكر مياهه المترجرجة وهي تنساب الى البحر القريب .

جلسا الى صخرة ، واسقطت منديلها .. يتهامسان بعبارات لو ترجمت الى لغة الناس المتزندقة بالمنافع ، لجاءت لغوا سخيفا .

مثل طفلين لا يعرفان اصولا عقلانية للتعبير عن فرحتهما . نسيا الدنيا والناس ، في المناخ الشتوي المهادن .. لا يأتي الى المكان احد . فردوس آدم وحواء المنسي وجداه بعد الخطيئة . تعانقا بالرغبة . اتحدا . تحرك الجسدان تلاشيا .

★ ★ ★

« أوليس » مبتكر حصان طروادة ذو الحيل الكثيرة ظل عمرا ما بين خروجه من « ايتكا » وعودته اليها . اول سندباد بحري وبري في ملاحم الاسفار والحروب والتيه . لماذا كان يحارب ؟

الاسطورة تقول ان باريز الملك سيد طروادة خطف الحسناء هيلانة زوجة ملك اليونان واتخذها زوجة له . فقامت الحرب بين المملكتين فاشترك فيها الآلهة الذين انقسموا على بعضهم وتحزب كل منهم الى فريق .

« رائد العالم . تبحث عن شيء ضاع في الذكرى . مثلك الشعب تتقاذفه الاغراءات وتلعب به . تمزقه فلا ينام .. والاغراءات عملية اقناعية نفسية . والطريق الذي رسمه له خياله الى هدفه . يظنه صحيحا ويفاجأ بانه لم يكتشفه بوعيه ، بل اغروه على السير فيه بوسائلهم الشيطانية .

ثم الشعب هو الذي تعرفه ــ يا رائد العالم ــ يبحث عن درب آخر ، فيعملون ليحرفوه عنه فلا يصل ، وتكون بلبلة فكره وفوضاه وعدم وضوح الرؤية امامه .. الهوة .

تخبىء منى عينيها منه . رائد يفكر بأن أحدا غير امين لم يشاهد، عن بعد اليد من الفم ، لون عينيها .

امين لا يهمه لونهما . فالعيون للشعراء والروائيين وليس للفحول من امثال امين ، فهذا يغمرها بنظرة تلم بها كاملة من فوق الى تحت ، فتبدو له بطولها الانيق وتقاطيعها الرهيفة ، جسدا بلا روح تطل من عينيها او شاعرية تسكن شفتيها وخديها .

تجذبه اليها الرغبة بالانثى الجنسية فينقض عليها بلهفة تسبقه خشيته ان تفلت منه ، ويعصرها بين ذراعيه وينقل يديه فوق بدنها بعنف . فتستلم له وقد تتخيل لنفسها وجها وشكلا بديلا لامين تناجيه في بالها ، فيعـود هذا بالخير على امين .

تتيقظ لهذا الزيف وما جنت شيئا وما قطفت لذة ، فالزيف والتزوير يكونان في التوقيع على الوثائق ، في الكتب المطبوعة تصويرا ، في النقود وما من مرة في العواطف .

وتراه مثل الديك يتنفّش ، وسرعان ما يهبط عن حائطها وقد صاح والنار تأكل في جسدها طهره . تاركة فيه الكبت المفجوع يراكم عقدا في نفسها .. وتتلقى وسادتها دموعها ..

لم تعد تتخيل . لم تعد تنتظر شيئا . ولا تحس بما يجري لها. كأنها غير موجودة في الفعل الثنائي القطبين .

« رائد يبحـث عن سري في وجهي وشفتي . في عينـي وذراعي . وسيقول لي : ما هذا السخف ؟ اما ترين الناس في ألف مصاب وويل وانت تفكرين في شهواتك ؟! الثورات يا رائد تقـوم بدافع الجوع فاعلم يـا مثقف . يا ثوري ، الجوع في روحي . في دمي . في كل خلية من خلايا جسدي » .

★ ★ ★

يصيح امين متحمسا متخطفا :

ــ المشروع يا منى . المشروع !

ــ ماذا به المشروع . هل افلت منك ؟
ــ شؤم من الله ولا شؤمك يا امرأة . افلت ماذا يا حمقاء !؟ أتدرين معنى كلامك يا تعيسة ؟ أفلت ــ لا سمح الله ــ يعني افلات ثروة من بين هاتين .

تنهض يداه في وجهها متصلبتي الاصابع ، جشعتين ، فلا ترى فيهـا سوى الغربال لا يمسك ماء .. هكذا عواطفها تسربت من بين اصابعه .

ــ سننال التعهد فأنا دبرت الامر . وسطاء الخير ــ ولله الحمـد ــ الوطنيون المشاركون جيوبهم مع مصالح وطنهم ، موجودون . زمننا يا منى . ونحن فيه بألف خير .. فليأت القرار بالموافقة على العقد وسترين الذهب بين يديك حتى لتعترفي بأنك غير جديرة بكثرته .. ومع ذلـك فلسعيد حصة الاسد ..

ــ انا لست جديرة بأي شيء . فكيف بالذهب ؟!

ــ أكيد . الذهب . الذهب . هو الحلم يا منى . يا بلهاء . كل شيء في سبيل الذهب .. وهذا ما يسميه الفاهمون بالطموح بالتطلع الى فوق.

مد مقاطع الكلمتين الاخيرتين .. قالت بهدوء :

ــ اعرف اناسا كانوا يجرون وراء لقمـة العيش .. الرغيف المغمس بالدمع ، يلتقطونه شاكرين ربهم ــ تمثلتهم يقبّلون ايديهم راحة وظهرا ــ أتذكر ؟. هكذا . إه . ويجدون انهم حققوا الغاية .

اعترض بحنق وانتفض وتابعت بخبث :

ــ ويفلسفون ــ هكذا كانوا ــ الواقع بان الانسان يجب ان ينـال لقمته الكريمة بشرف وان المال ليس كل شيء .

ــ هل كنا احسن لو ظللنا فقراء ؟ لماذا تذكرينني .. هه ؟ وهذا ..

ادار ذراعيه مفتوحتي الراحتين فمرتا فوق الارائك والسجاد والمناضد والمزهريات وجهاز التلفزيون والتلفون والسجائر تسعة انواع في صحفة فضية والولاعة الذهبية والستائر مخمل عنابي وشفوف ابيـض سكري « فوال » .. معالم رفاه وثراء ودفء .

واتنقلت صوبها ذراعه يشير اليها بسبابته متهما :

ـ وأنت • منى مجاهد شاكر • لو بقيت فقيرا لما عبأت بي ••
وربما كنت فقدت حبك •

« يا لتفاؤل الرجل •• حبي !؟ »

لم يرتم عليها بقبلة • لم يطوّق خصرهـا او يطوّف راحتيه فوق صدرها • فلليل وليس للنهار تلك الحكاية • اتهمته :

ـ ومـع ذلك • الشبعان في القمة • ترك الجوعـة في الحضيض • الذهب • هه ! أليس الرغيف هو الشمعة التي يهتدي بنورها الناس •• والى هذا النور ينجذبون حتى ولو تعرضوا للموت ؟ كلامك هذا مـن قبل أم لا ؟

(الخبز • به يقتات الكادحون في كل مكان • الصياح مـن ألـوف الحناجر • الايدي غابة ناهضة • الوجوه غاضبة • هدير كالموج المتلاطم • وتدافع الى الامام • والشعار « السلم في كوريا والخبز في الشام » •••

رجال الشرطة محتشدون • المباحث • المخابرات •• وتهاوت العصي على الرؤوس وقذفت الحجارة واشتبكـت الاذرع بالاذرع والتحمـت الاجسام بالاجسام ولعلـع الرصاص وسالت الدمـاء وسقط من سقط وهرب من هرب ونقلوا الجرحى ووقع في الاسر كثيرون • كان بينهـم امين الاسود الذي اعلن الاضراب عن الطعام الى ان يطلق سراحهم •

وتعرض للتعذيب والتنكيل ورفض المصالحة وتحدثت عنه الصحف في سوريا ولبنان والخارج وقضى في السجن عامين •• ثم اطلقوا سراحه وقد صار رمزا للصمود الجماهيري وبطلا شعبيا) •

★ ★ ★

في سنة لا يتذكرها رائد العالم بتاريخها اتى اليه مجاهد شاكر :

(ـ أكبر منك سنا يستشيرك • هذا ما اريد ان تفهمه • فانا اثـق بقدرتك على اسداء النصح • أمين الاسود اتاني مصاهرا •

ـ أمين البطل الرمز ؟ حسنا • ألديك من هي في سن الزواج ؟

ـ منى يا رائد • ألا تتذكرها ؟ مثقفة • حاملة شهادة • وامين شبـه أمي •

احتفظ رائد بالصمت متفكرا وما لبث ان قال :

ــ ايه .. ايه .. الزمن يمر بسرعة . لا بأس . لا يفقد المرء قيمته ان لم يحمل شهادات . أتحبه مني ؟ إذن فالامر لها .

وانحسرت امواج الدمار عن كوريا التي خرجت من الحرب منقسمة اثنتين اشد تناحرا من الاول ولم يعد رائد يسمع بأمين وجرى تحت جسر الاحداث سيل الزمن يجرف الاحجام والالوان يحجّر القلوب ويعطل العواطف .

ودخلت منى بحر الزوجية سمراء جميلة . فتن بها امين فاندفع الى كسب العيش بحرص البخيل . واتى عليه زمن النسيان ، فنسي عناد المناضل المتحدي وكرامته وامجاد الجهاد ، واتى زمن الاسرة ــ الزوجة. الاولاد . البيت . زمن انتهازي محقون بجرعات من مخدر يسكن آلام الروح ويدجّن ثوريتها . وأطل من زمن آخر ، الكسب الوفير ، الثراء ، الترف .

من قال : ان ما يباع في الاسواق هي السلع ، منقولة او غير منقولة ؟ ثمة سلع اخرى تعرض .. اعناق الرجال ، جباههم . عنفوان الدم . العقل .

حلق امين شاربيه ليبدو اصغر سنا . لكن الشيب المبكر استل نضارته . اما العناد الثوري فذللته قناعات جديدة . والعقل الثائر وجد له وزنة شالته في الميزان وانصرفت افكاره الى مشاريعه وبردت سورة هيامه بمنى الفاتنة ، وفقد غيرته عليها ، وآلت الى جارية تخدم الزوج وتهدهد غرائزه الجنسية في بعض لياليه) ..

★ ★ ★

(ــ يا ابنتي . هذا طالب يد لا يرد ، ورائد العالم لم يمانع .

ــ من يكون هذا الرائد يا ابي الذي يمانع او لا يمانع ؟

ــ مثقف عارف أثق به .

ــ هل لهذا أخت ؟ اذن ليعطها له .

هل كان ابوها يظن بانها تحب رائد العالم من غير ان يحبها هذا فاراد

ان ينزعه من قلبها باعلامها انه يوافق على زواجها بأمين ؟ أيكون أبوها قادرا على هذا الاستنتاج) ؟

... « رائد العالم . انت ما زلت تعيش بعقليـة العاطفة النضاليـة والمثالية الكفاحية . وزمن كوريا للكوريين واخرجوا منها ايها اليانكيون. أنت سبب زواجي بأمين . ماذا تفهم انت عن الحب يا متحجر العاطفـة ؟ لعلك تزوجت مريم من غير ان تحبها .. ويخيل اليّ انك لا تعاشرها » .

امين اخرجها من الماضي . فتح عينيها على عنف الحياة فلا ترجو منه لمسات عاطفية ، وتعجب كيف فتح بيته لرائد لو لم تعلم حاجة امين اليه ، قروض ، كفالات . امل بالتشارك في مشاريع .

« قلت له : هدى تنظر اليك فهز كتفيه . امسكت باناملة فافلتهـا مني . الحكيم الضائـع في بلاط العزيز يفسر احـلام الناس وحلمـي لا يفسره » .

اقام امين الاسود يومين بعد وصولـه من داخل القطر وفي الثـالث تأهب للرحيل . واعلمها انه يود لو تصحبه الى الداخل فيقطنان هناك . مجرد هذا التصريح جعلها في دوار حتى ضاقت بها القاعة ، وكأنها قد صارت في داخل اناء فخاري مغلق .

★ ★ ★

هدى سعيد. تـمَـجِّـدُ الجمال. أبهى حسن. أكمل أناقة. امرأةخلقت لتدير رؤوس الرجال ـ وتفكر منى مرغمة ، بأن رائد العالم ليس رجـلا والا تجاوب معها بعد ان لا يردعه عن النساء وازع اجتماعي .

رحبت بها منى . ووجدتها مرة اخرى .. ذكية . مرحة ، جريئـة . قالت هدى بحسرة وتحد .

ـ لو كنت في لبنان او في دمشق لارتديت زي « الميكروجوب » . سعيد يقول ان « الميني » عيب فكيف الميكرو . وهو يروّي عينيه بمـا تحت الفساطين . ويبصبص عجوزي هذا .

ضحكت منى :

ـ اذا كان يحب ان يرى فلا تحرميه .

ـ أحرمه ؟ كيف ؟ لم يعد قادرا الا على الرؤية . وما همه الا المال . عندما تملكت البلدية قطعة من ارض له جن من الحزن . فقلت له اهوّن عليه . ما من بأس ولديك الكثير . فصرخ بـوجهي : لو لم يكن معـي الكثير فكيف كنت ستلبسين على « الموضة » .. الميني وغير الميني ؟ قلت له : الميني يوفر عليك قماشا . لكن الموضة تتجه اليوم الى الماكسي . قال لي : ابقي وسطا . خير الامور الوسط .

ـ ومع ذلك فهو يؤمن لك كل ما تطلبين من مال .

ـ بالطبع . كيف لا ؟! وهو في أرذل العمر . سألته مرة : انـك في خوف دائم على مالك .. وانا . الا تخاف عليّ ؟ قال : انت تعشقين الازياء و « الجخ » والمصاغات ويدك مفتوحة . فماذا تساوين اذا ما منعت عنك مالي ؟ قلت له : وانت بلا مالك ماذا تساوي ؟ سألني : بالنسبة لماذا ؟ قلت له : بالنسبة لكل شيء ، فلم يقل شيئا بعدئذ وقد فهم .

قالت منى بغير اهتمام :

ـ بالطبع انت شابة اكثر منه .

ـ اكثر منه فقط ؟ انه بعمري ثلاث مرات . زوجوني اليـه مرغمة . بالضغط ولم تكن عندي دراية .. وهو اليوم .. لا يخفاك . فأية حياة اعيش اذن ؟

الصمت بينهما . لحظات وجيزة . وبعدها قدمت لزائرتها سيجارة . وقالت هدى شاكية :

ـ يحكمنا الرجل اما بماله او بجماله . تخالجني دائما الرغبة بتركه . واتساءل : والاولاد ؟ والى أين ؟ وما معنى اذن حياتي معه ؟ يسترضيني بالمال وينال مني رغباته .

الحزن والرفض في كلماتها :

ـ كثيرات هجرن الازواج والابناء . الابناء نتاج المصادفة ويصيرون المشكل الكبير . انت لا تقدّرين مأساة بعضهن لانك لا تعانين مثلهن .

ـ انا . أنا ؟ ـ باضطراب ـ اوه ، لا ، طبعا لا . لا شيء من هذا .

في السوق تأملت هدى واجهات المحلات ، اشترت ربطة عنق انيقة .

عرّجت على خياطتها • رجعت قبيل الغروب • شاهدت رائد في شقة منى فثارت غيرتها الصامتة • اخرجت علبة سجائرها من حقيبتها فرأت ربطة العنق التي اشترتها فألقت بها الى الارض حانقة •

★ ★ ★

يوم عاصف • امطاره لا تنقطع • اقفرت الشوارع باكرا • مكث في البيت • بين يدي مريم شلة من الصوف تصنع له قميصا •

تنظّرها • يطيب لرائد أن يأخذ مريم بأحضانه يقبلها • يسألها — كما في الماضي — ان تهز اليها جذع النخلة ، فالحب اسمى العواطف التي تساقطها شجرة الحياة الزوجية • لكن مريم بلا حب الذات • تشوأ هندامها وتراجعت ملاحتها فانعكست هذه على نفسها فاعتكر مزاجها وساء •

أراد ان ينصفها • يكفر عن لقاءاته بهدى ، فلف ذراعه حول خصرها فانتفضت وهربت من شفتيه :

— هل انت سكران ؟

— اننا وحدنا الآن يا مريم •

— وان يكن !!•

اشعل لفافة • فتح الصحيفة طالع عناوينها من غير ان يفهم شيئا • رماها ، رفعت مريم وجهها عن خيوطها •

مترهلة بنعومة ولياقة ، كحيوان أليف دافىء كسول • لا تثيره • زمن الغزل ولى • عادت الى خيوطها • اطفأ سيجارته • المدفأة تمده بحرارة متمطية ، بلا لون بلا صوت •

« بعد الجلاء خسرنا وطنا عربيا • وخسرنا جمهورية • وجميع حرياتنا • واتت النكسة ومعها ضياع المبادىء والعقائد • زمن أدرجه في مرحلة المتغيرات تؤدي الى النصر ما لم تسقط النفوس تحت اغراء الصفقات » •

رفعت مريم وجهها لتقول شيئا فرأته يلف عنقه بشال صوفي رقيق ويرتدي معطفه فانحبس الكلام في حنجرتها • وعندما ولاها ظهره ليخرج،

لم تسأله الى اين ، بل قدرت كم يلزمها من وقت لتنهي هذا القميص على قده وانقضت على عملها بحنق .

أوليس يتسكع عبر الممالك ـ بعد ان انتصر على طروادة ـ يحارب الآلهة يتحدى الجبابرة . يسقط في حب ربة جميلة ويرفض الاستعباد لها . يناهض الطبيعة الهائجة والعناصر الثائرة والخرافة ، ويتمرد على الانانية. يروم بلده ليصل الى « بينولوبي » الحبيبة التي تنتظره ، فيزيل ترملها .

« بحّارك التائه وصل الى الشاطىء فأخذته تلك منك . استطيع ـ وكنت اظن ـ يا منى .. اذا ما سحقتني الحياة انني سأهرع اليك اشكو ألمي » .

عاصفة عادية ـ مثلها ثمة في صدرها ـ كسرت اغصانا قطعت اسلاكا. ريح صرصر . هوجاء تزعزع الكائنات .

★ ★ ★

ليل في الخارج وشبه ليل في المقهى . فوران الدخان والانفاس الحارة. والضجيج من كل لحن ونغم ومقاس . نقر النرد . وقرع الدومينو واصطفاق ورق اللعب . وقرقرة الاراكيل كأنها عصا المايسترو في قيادة هذه الايقاعات والاصوات .

منتدى بيتي لرواد دائمين ـ ذلك هو المقهى ـ يجدون فيه الامن وتسريح الوقت ، فلتمطر ولتعصف .

التقى بسعيد عارف :

ـ كنت خارجا ووجدت الطريق غير مشجع .

ـ أنت بحاجة لسيارة خاصة يا سعيد . سأوصلك الى البيت .

ـ انت ما تزال شابا يا رائد . ومثلي ماذا يصنع بالسيارة ؟ لا . لن اخرج . البيت يضجرني .

أتى النادل بالقهوة المرة .

« في بيته هدى الفاتنة الجمال ـ الفول لمن ليس له أضراس » .

ـ ضوضاء تغلب ضوضاء. فيدماغيمشاكل ومشاكل. أرقامومسؤوليات.

لا يخرس ضجيجها غير سخف الضجيج في مقهى ـ الشاطىء الازرق ـ

ـ اه .. اه . المرء يريد صنع شيء ولا يستطيع. مأساة؟ قل اكثر.زمن غير كريم .. لا حرية .. وضرائب تسلخ الجلود عن الاحياء .

ـ من في كل زمان ومكان يصنع ما يريد ؟

ـ في السابق ـ قبل هذا العهد . كان ممكنا .

ـ لا يا سعيد . في السابق الذي تحبه قبضوا على مئتين من مواطني هذه المدينة وكان سكانها دون العشرة آلاف . لماذا ؟ قالوا في الليل توزعت مناشير . ما الجريمة ؟ فالمناشير ضد تقسيم فلسطين !.

ـ لو لم يكونوا محقوقين يا رائد ما قبضت السلطة عليهم .

ـ والحرية ؟

ـ يا سيدي . اليوم كل شيء سائر الى الخراب . لم يعد في صناديق الناس مال ..

ـ لانهم نقلوه الى الخارج . بذمتك يا سعيد ألم تصنع مثلهم ؟

ـ أعوذ بالله ـ وهو يخفض من صوته ـ اعوذ بالله . لا . لا . دعنا من السياسة . ضحك رائد . وعاد العجوز الى شكواه :

ـ الاشتراكية . خذها مثلا . لماذا لا يطبقونها ؟ كما في روسيا مثلا ؟

ـ وهل تريد منهم ان يطبقوها ؟

ـ وماذا في الامر ؟ اما اشتراكية لا تبقي ولا تذر او يعيدوننا الى الرأسمالية .

ـ وهل نحن في خارج الرأسمالية ؟

ـ الدولة تغش الناس . تعدهم بالاشتراكية ولا تطبقها .. ومسألة الحرية . كلام بكلام .

ـ حسنا يا سعيد . لا أدافع عن الدولة . كنا في السابق ننتقد الدولة ونودع اهلنا . صرنا الآن ننتقدها في المقاهي ونحن متأكدون من ان الصباح سيسفر عنا ونحن ملتصقون باقية نسائنا . لا يطاردنا احد .

اعترض سعيد فهذه الحالة هي فوضى بنظره وليست حرية . اما

رائد فعرض عليه اللحظة ان ينتقلا الى مشرب الديك الذهبي • فالجو هنا خانق •

« يهـرب سعيـد من بيته ويغـوص في الضوضاء وتتنفس هـدى الصعداء » •

(ــ رائد • افهمني •• لم اعد اطيق هذا العجوز وتسلطه على بدني•
ــ لكنه زوجك • الشرائع خوّلته هذا الحق •
ــ زوجي هو ؟ انه مات بالنسبة اليّ • ويأتيني كالكابوس • رائـد صدق او لا تصدق • النساء في هذه المدينة طيبات • والا لقتلت في كـل يوم امرأة وزوجا •
ــ تبالغين يا هدى • وربما تفكر مريم مثل ما تفكرين •
ــ لو كنت مكانها لجعلتك الها في بيتي •• لماذا تضحك ؟)
ــ اذن هلم بنا اليه •
ــ هذه مدينة يا سعيد لا ينقصها الا كشاشو الحمام •
ــ بل صار فيها •

« الديك الذهبي » • ديك احمر تاجه اصفر في اطـار ابيض مضيء مرسوم على لافتة فوق المدخل •
ــ ديك بطرس ؟
ــ لا ، ديك الفجر يا سعيد ، يغادرونه مع الفجر •

قادهما النادل الى مائدة مشرفة من خلل الزجاج على بحر ليلي غاضب•
ــ سعيد • أترى كيف يبعدنا عن الغواية وقد احترم الفضة في رأسك؟
ــ بل فشر • ــ صاح بالنادل ــ : اهذا القصد ؟ اين هن ؟

اتجها والنادل قائد متبوع الى بار اميركي الطراز باضواء واهيـة ، وعتمة فوقه مشقوقة النور بالاحمر • ومناخ اجنبي هادىء •

صدر أخضر لمّاع شرب عصارة الضوء القرمزي فرعن وأبـاح • استقبلتهما صاحبته بصوت مدغـدغ ، واجلستهما بمقعدين عاليـين ، واستدارت تلبي طلبا فاباحت لعيونهما مؤخرة رجراجة ، التمعت الاشعة عليها فرسمت ما تحت الحرير •

وشقراء مطلية الشفتين عيناها في هالتين زرقاوين ، تناولت بأناملها الدافئة يد العجوز تشعل سيجارتها من ولاعته ، فترامت خصلات شعرها المزيف فوق يديه ، ونفثت الدخان من بين شفتين مليئتين تصحبه تنهيدة خفيضة ممطوطة جعلت رغبات سعيد عارف تتمطى، وبدنه يرتعش وينسى همومه ، وعندما لامست يده خصرها بما يشابه اللاقصد ، احس ببدنه يتزحزح بالنشاط ، وغاب عن باله المشروع الجديد ومضايقات الضرائب والكشوف .

« ماذا يغريه في هذه الشقراء بالزور ، وفي بيته افتن شقراء » ؟

رفع سعيد الكأس الى شفتيه وعيناه منغرزتان في شفتيها ، وعيناها فيه ثابتتان . مشهد اغراء . حركة اثارة . جعلته ينشد اليها ، وتسللت نظراته الى صدرها ، عالجت « ديكولت » فسطانها فاعياها ضيق المدخل الى النهدين العارمين الملتحمين ، فجعلت تعالج ازرار الفستان تسقطها بالفراسة وتكشف عن لبّات سمر ناعمة وثديين متداولين منهكين .. عتيقين مثل ورقة الليرة المطبوعة في ايام جمهورية حسني الزعيم .

ــ هل تريد ثلجا .. ماء ؟

السمراء الى جانبه . بان صدرها اكرم من زميلتها واطيب ملمسا . واحس العجوز الخائف على دنياه وثروته وهو بين الثنتين بانه يحتاج لصنين الشتوي نفسه لكي تبرد اعصابه .

ــ ألم اقل لك : لا ينقصها الا كشاشو الحمام ؟!

ــ موجودون يا رائد . موجودون .

ــ اذن . أفرغ الكأس مثلي ودحرج هذه السمراء صوبي .

ــ خذها يا سيدي بغير ما احتكار مني .. على مذهب اشتراكيتك .

ــ ارى ان ننتقل الى طاولة ، فالسهرة طويلة .

شربا بغير حساب . زايله بعض اساه فاسمع الغانية السمراء غزلا فانتشت فهمست بصوت مبحوح مثير :

ــ انت رقيق الكلام .

شفتاها شديدتا الحمرة . فظتان . همس رائد لها :

« ــ أنا لا أصدق ان هذا الاحمر المشقوق فم ؟ »

وضيّقت عينيها بغنج وقلبت شفتيها بعبوس الرضوخ والاحتجاج معا • وسأله سعيد :

ــ واذن • هو ماذا ؟

ضحكوا والتفت الجلاس القريبون الى ملعب الضحك • موسيقى غريبة ونغمات مبثوثة كالفحيح المتسلل • والسمراء تترجم الغناء :

« تركتني ومضيت بعد ان اعطيتك حبي • غمرتك بحناني •
عانقتك وهربت مني تبحث عن غيري • حبيبي انت كلما اراك •
انا بحاجة لقلب يحتويني • وانت تلاشيت في الدخان ••
أبحث عن حبيبي ؟ »

الشقراء تدغدع يد سعيد •• وسعيد مستسلم • ناسيا متاعبه • ما يزال وهي تلاطفه ركنا في هذه الدولة •

ــ أيكون الحمام المكشوش حقيقة في هذه المدينة ؟ والكشاشون ؟ اي شيء لم تأت به الحضارة ؟ المستغرب ان يوجد بعد اليوم من يستغرب•

أعجبها كلامه :

ــ زدني ارجوك • من زمن لم اقرأ كتابا • الوسط هذا يعتبرني مثقفة•

ــ يا مدموزيل •• لا تظني انني مثقف • انا احسن الكلام عندما اشاء •

ــ انت متواضع • وانا اعرف انك تعرف • وانا ترجمت لك الاغنية ••• بصدق •• اتقن لغتين غير العربية •

ــ ورمتك اذرع الريح على دمنة • فأي بحار علمك تلك الاغنية ؟

ــ خضراء الدمن ــ قالت باكتئاب ــ أعرف معناها • سمني بما تشاء •

نشوته منفتحة للاستيعاب الاكثر • ففي هذا الملهى بنت ليلٍ تسعد الرجال فيتجردون من رسميتهم وعقدهم ويتحررون من هموم المجد والمكاسب والاخلاق ويوم الدين • أنثى ليست لأحد • وجهها صريح

ضمن واقعها . يتقاسمها الجميع على مدى لياليها .. ينفض ــ رائد العالم ــ همومه في سمع امرأة .

ساقتها المصادفة اليه .. مصبوغة بالزيف الجمالي . بديكور العصر الذي لم يبق امرأة دميمة . تقدم الكؤوس . تشعل السجائر . تهمس بالاغراء .. بالاثارة . وعيناها المتعبتان ترنوان اليه كعذراء الى حبيبها .

ــ اسمي جوهرة .

ــ اسمك العراكي ؟ من أين تؤخذ الجواهر ؟

ــ انا امرأة من عائلة لها كرامتها .. طردوني .

ــ لهن جميعا حكايات وعائلات كريمة . الجواهر وحدها تؤخذ من الطين .

تغزّل بها . بحبيبة :

ــ انك لا تقول هذا الغزل لي انا .

« وأسمعها غزلي الذي اريد اسماعه لتلك . وهنا عاطفتي .. كذب . وكنت دائما اقول لهن . وهذا يؤكد ظني .. لكن ها هي .. وهناك .. بأن تلك التي .. وعندئذ .. لما » ..

ــ ماذا يا رائد ؟

ــ أراك تخلفت عن العمر سنوات يا سعيد ، شباب انت والله . « العائلة . ما العائلة ؟ المهم عندهم الطبقة . الذين يملكون تضمهم طبقة واحدة ، فنحن اناس من طبقة بين ايديها الاقلام والكراريس والمعلمون والعقارات ، تتمتع ــ بعكس الاكثرية ــ بجميع الطيبات . من الخبز الى النساء .. ــ ها قد بدأت أركّز تفكيري ــ وما نزال طبقة تسيطر على الكلمة .. قادرة وعارفة .. تبكي او تضحك عندما تريد . تبدي عواطفها ونواجذها ، مثل المطر او الصحو في اوقاته .. تقول ما لا تحس . وتحس ما لا تقول . انا دائما كنت اقول لهؤلاء الذين انا في طبقتهم ــ انتم خبثاء ــ ستظلون تلعبون باقدار الشعب الى زمن قادم طويل . نجمكم لم يسقط » .

ــ هل نغادر يا رائد ؟

ـ ليس الآن •

مسحت على حافة الكأس باصبعين غنوجين ، التقيا باصابع رائد فأسرهما فانتشت فمالت اليه تقدم كأسا ••

« الكذب له بريق • القول من صنع اللسان يفقد العاطفة براءتها • يجرّد الحب من الحرارة • القلب هو الذي عليه ان يحس ولا يقول • اللحظة ـ الملهاوية الياخورية ـ صادقة • الزمن المنحط هو الذي في بعض الاحيان يقرر وجدان الانسان » •

ـ اسمي جوهرة • كنت في صندوق علاء الدين فسرقوه وحطموه ووجدوا فيه اسرارا فكوا ارصادها • اخذوني • اخذوا زمردة وألماسة وزبرجد وابريز ؤلؤة وصفيرة ومرجانة وكهرمان وعقيق وعاج وياقوت• اخذوا فيروز وفضة وجمانة • سرقوا نفائس اخرى • اقتسمها الحرامية ، الاربعون ، واستقر بعضنا في خيمة صحراوية • في مقهى ميناء • في كباريه جبل • في خمارة بلد • في بيت دعارة • في حريم •• قينات • سراري • توزعهن اللصوص • انا جوهرة • هكذا اسماني اهلي • قرأت في كراريس الادب • أعرف معنى الكلمات • فتحت القواميس ؟

ـ هل صاح ديك بطرس يا رائد ؟

ـ الديك الذهبي يفرد جناحيه ـ المجد له ـ يا سعيد •

ـ مبارك هو بين الادياك •

ـ سعيد • مرة قالت لي احدى سيدات المجتمع : ان رجال تلك المدينة جميعهم ديوك ؟

ـ هذا ثناء كبير على الرجال •

ـ بل فهمت انها تشتمهم •

ـ حمقاء • ماذا تريدهم • صيصانا ؟

ـ لعلهم أكثر قفزا وابطأ نزولا •

الغانية تسأل رائد :

ـ ويسكي وثلجا ؟ سيجارة ؟

ـ بل جوهرة •

ـ بين يديك .. مولاي .
ـ انت شيء في هذا الوجود .
ـ شيء تعني به لا شيء ..
ـ الشيء لا يخرج من لا شيء . هـل تعرفين اقدم مهنـة ؟ احزري فأعطيك سوارا من ذهب .
ـ ستخسر السوار فانا اعرف .
تململ سعيد :
ـ هل صاح ديك بطرس معلنا الفجر يا رائد ؟
ـ هل عندك في البيت من تنتظرك وراء الباب ؟

★ ★ ★

ـ السوار من ذهب . فيه جوهرة . فيه لؤلؤة . مرجانة . ياقوت . احذري ما يكون ؟
ـ سؤال جديد ؟
ـ وسوار ثان .
ـ وأعتق كلمة ؟
ـ سؤال ثالث ؟ هل تريد ويسكي ؟
ـ أجل .. « جوني ووكر » .
ـ مع الصودا ام الماء ؟
ـ وماء كثير كثير . وحكاية كالاسطورة ؟. سؤال رابع لـه سوار رابع .

وعد سعيد عارف آنسته ان يأخذها الى لبنان ويسهّرها في « كازينو المعاملتين » وسيجعلها تجرب حظها في « الروليت » .

ـ انا اعرف . ستخسر أساورك الاربعة : تجارة الجسد .
ـ كلمة مهذبة . والثاني ؟
ـ الوعـود .
ـ كلمة واضحة . والثالث والرابع ؟

ـ الحب • والطوفان •
ـ لك الاساور الاربعة •
استدار اليه سعيد عارف :
ـ ما هذه الاساور ؟•••
ـ نجحت جوهرة في الامتحان فربحتها •
صفقت بمرح وعيناها غفل من خداع اشرأبتا الى وجهه فأمسك بيديها وجمعهما بين يديه وبان في عينيها الفرحتين التوجس :
ـ ثمانية اساور مقابل سؤال واحد • تربحينها او تخسرين كل شيء ••• وتسافرين في قطار • القطار جديد • محركه قوي • كباساته مزيتة• اجهزته مضبوطة • وعجلاتـه يا جوهرة •• عجلاته مستـديرة • ومزود بالوقود • ـ انتبهي ـ المحرك يدور • يهدر • الصفارة تصرخ • هـل فهمت يا آنسة الدمن ؟ القطار لا يسير • ان لم يسر لن تصلي ولا احـد سيصل الى الهدف • السؤال هو : لماذا لا يسير القطار ؟
ـ حضّر الاساور الثمانية • سأقول : هل تحت عجلاته خطوط ؟
ـ تسألين ام تجيبين ؟
ـ بل اجيب •
ـ صاح الديك يا سعيد • هيا بنا •••
ـ هل حان ان نذهب حقا ؟
أفلت يديها المتكورتين بين راحتيه • ورمى الى المنضدة مئتي ليرة :
ـ اشتري اساورك ـ وللنادل ـ هات الحساب •
وهنت الرياح وتماهلت الامطار وتسلل النور مع الفجر بلا ضوضاء •• وبدت الشوارع المقفرة بلون رمادي كئيب •
« أصحيح ان في المدينة كشاشي حمام ؟ هل صارت تقبل شهادتهم في المحاكم » ؟

★ ★ ★

دخل في النهار ثملا يتلمس دربه • ونهضت هدى تفرك عينيها فرأتـه متأرجحا وهو يخلع ثيابه • وقبل ان تقول شيئا ارتمى بفراشه ونام •

وفي الصباح التقت بمريم في السوق فسألتها هذه عن زوجها متى عاد الى البيت ؟ ألم يكن مع رائد يخمران في مبغى ؟ واضافت :

ـ ولعلك كنت ساهرة تنتظرينه يا مسكينة ؟ انا لا أنتظر زوجي . ما من رجل في الدنيا يستحق ان تضحي امرأة بنومها من اجله . خاصة من امثال زوجك وزوجي ـ فكأنهما يظنان نفسيهما شابين في ربيع العمر . « وكنت تسكر في خمارة مع مومس ؟ وحمقاؤك المترهلة تنعتك بالكهولة . ولا تضحي بنومها من اجلك » ؟

ـ المهم يا عزيزتي هدى ، أنت وأنا علينا أن نهتم بالأبناء وليس بالزوج . الرجال اوغاد لا يؤتمنون .

وعندما رجعت مريم الى البيت وجدت رائد قد حلق ذقنه واستعاد نشاطه واناقته . وبدا لها عكس ما صوّرته لهدى ، شابا قويا لكنه متعب قليلا .. ولعله ـ تظن بلا تأكيد ـ يخونها معهن .. وسيان عندها .

اطل على الشارع . هدى تعود الى بيتها متماهلة . تراه وتحييه بهزة رأس عابرة ، تعاتبه بعدها .

« ـ سهرت الليل مع عاهرة وكذبت عليّ .

ـ جميع الرجال يكذبون عندما يعشقون .

ـ انت ظالم . فضّلت علي بغيا .

ـ البغي عابرة وغيرها مستقرة فاختاري » .

ومضى الطوفان ورأى الله ان هذا سيء فندم ووعد الا يكون مثله بعده وظل على الارض بشر قليلون يعدون على الاصابع فسهل تلقيحهم ضد الاوبئة السارية التي أتت من الجيف والاشياء العفنة والجراثيم المتنامية .

ـ حصيلة من التوراة بتصرف ـ

« أوليس » ظل تائها في ملحمته « الهوميروسية » . يدور حول اسوار « إيتكا » لا يهتدي الى منفذ ، وبينولوبه تصبّر خاطبيها وقلبها يحدثها بأن الزوج الحبيب سيعود ، وتنفد خيوط الوشاح الذي تنسجه نهارا وتفرطه ليلا :

ـ اختاري واحدا منا •

« أوليس • حبي لك قد شب عن الطوق وانت لا تأتي • خـدعت خاطبي وصبرّتهم ولا استطيع اكثر ، فهذا زمن يا حبيبي ليس للمرأة فيه حق الرفض وان تكن مثلي ملكة • كبرت « إيتكا » وتقدمت فيها الحضارة وظهرت انواع جديدة من السيوف والقسيّ يحملها « الهبيون » وانت لا تأتي • وبطلت « موضة » الانتظار الطويل • والمرأة من طبعها ان تجـد بديلا عن الذي يتأخر » •

رائد العالم يجذف بزورقه ضائعا • يتهرب من لقاء هـدى • ومنى تخبىء عينيها كالوجه الخفي للقمر فلا يرى لونهما ، فيتيه في مدينة ازدهر فيها بيع الصيصان وكش الحمام واستعمال الكهرباء ، كما ازدهر فيهـا الانتظار والتمزق والتساؤل واللامعرفة بالآتي •



ملح هذا الزمن

... فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه الى الفلك من وجه مياه الطوفان وانفتحت طاقات السماء وكان المطر على الارض اربعين يوما واربعين ليلة ..

ـ التوراة . سفر التكوين ـ

... وقال أبرام لساراي امرأته قد علمت انك امرأة حسنة المنظر ، قولي للمصريين انك اختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من اجلك .

ـ التوراة . سفر التكوين ـ

... وخاطب يعقوب اباه : انا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتني قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك . فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو وباركه : لتستعبد لك شعوب ولتسجد لك قبائل .

ـ التوراة . سفر التكوين ـ

وركام التاريخ بعد العهد « المجدلي » من عهود ما قبل التاريخ . ما يزال يتحدى مدارس الاخلاق ويخرط في جسد الحقيقة دماء تسيّرها ، وليس ثمة من يحاكم التاريخ . ثمة فقط القبول .

التقى امين بشريكه سعيد في مقهى ـ الشاطىء الازرق ـ المطل على الميناء الصغير الذي يربط المدينة بجزيرة ارواد ، وكان معه رجل خمسيني أسمر اللون نحيل قوي الجسم وجهه معبر عن معاناة مزمنة فركّز سعيد نظراته فيه وقد جلس امين بينما ظل الرجل واقفا يتحدث الى شخص التقى به .

ـ من هذا الذي معك يا امين ؟
ـ مساعدي الامين وعصاي التي اتوكأ عليها .
ـ ولك فيه مآرب اخرى .. فمن يكون ؟
ـ انه عزيز عبد الرحمن . بالضبط لي فيه مآرب .

التعريف ما يزال منقوصا . الاسم . وعما تفصح الاسماء وقد اطلقوها على الابناء بروح من المحاباة او التقليد ، وما بلغوا سن الوعي والتصرف الذاتي ؟

ـ سبق لي ان تعاونت معه وارسلت في طلبه من منشآت النفط الاجنبية في الصحراء . رجل من قاع المدينة والنشأة العمالية . له رصيد نقابي ثمين .

ـ وكيف ضحى بوظيفته ومنشآت النفط لا تجاريها مؤسسة بالاجور ؟

ـ عزيز رجل غير مرغوب به في الشركة الاجنبية .
ـ الآن فهمت ...

يتذكر الليلةالساهرة مُقِراً بأن الدنيا وان انخربت يظلفيها شيء ما، جميلا وممتعا . ويتساءل عن هذا الرجل المطل بوجه مسحوق بالقسوة والمعاناة كوجوه المجرمين ؟

ـ وانه قادر على ان يسوس العمال في تنفيذ المشروع الجديد فلا يدعهم يختلفون معنا او يذهبون الى المحاكم العمالية ويجعلهم يقومون بتنفيذ مراحل المشروع في اوقاتها . وهو يحسن ادارة فرق العمل .

★ ★ ★

جعلوا عزيز عبد الرحمن مشرفا على العمال ، في تنفيذ المشروع الكبير بطرطوس وسلموه مبلغ الفي ليرة ، ليتصرف بها كما في النفقات السرية في الاعمال الدبلوماسية وجرت الاشغال بخطوات وساع ، وكان السباق مع الزمن .

ومرت اشهر اربعة يسافر امين في غضونها مرات الى الداخل للاشراف على المشروع هناك . وكان يعود متعبا . فتمد منى مائدة الشراب له ،

وتوافيه بعدئذ الى الغرفة المطفأة النور ، حيث يمارس قفزته الخاطفة ، وتمارس هي هروعها الى المغسلة متقززة تغسل وجهها وشفتيها .

سيدة فاضلة حدثت رائد بكثير من الجرأة والصراحة عن حياتها فقالت انها يوم احست وهي صغيرة بشيئين ينموان في صدرها ويتكوران، تملكها الاعتزاز بانوثتها وانها سائرة الى دنياها المسحورة .. ثم ندمت بعد ان تزوجت وعاشرت الرجل كأنها غريبة ، لا دور لها الا الانصياع ، وتمنت لو انها ظلت غريرة لا يقطن فكرها هاجس الجنس .

يطيب لمنى ان تستعيد عالم الفتاة الصغيرة . الذي ذكره لها رائد . لم يحدثها عن الزقاق المؤدي الى بيت مجاهد شاكر .

(لا هموم عندها يومئذ ولا تقزز .

سارت وراءه ، وارادت الدخول الى الغرفة التي دخل اليها ، حيث يجتمعون ، فطردوها .. وكل شيء كان بالسر . يتحدثون ويتناقشون بأصوات تكاد لا تسمع . النوافذ والابواب مغلقة) .

أمين وبيده الطاس والجارية .

(أصغت لهذره الى ان بدرت منه اشارة فلملمت أدوات المنادمة . « التصقت بالجدار وهو يمر بي . بدني هزيل وقدي طويل وشعري منفوش . عبثت به يده من غير ان يتوقف . سرت وراءه الى بيت ابي . كانوا مجتمعين سرا فطردوني » .

ابتسمت منى . سألها أمين بنبرات متعتعة :

ــ ما الذي يحملك على الابتسام ؟

ــ شيء حدث هذا النهار ...

ــ يبدو انه غير مفرح .. ابتسامتك .. حزينة) .

ــ منى ..

ــ رائد ..

بوقت واحد . توقفا عن النطق وضحكا معا . انكبت الضحك . فوق وجهيهما حيرة وأسى . ذهبت الى المطبخ وعادت بالقهوة . وعندما قدم الاولاد ركضوا اليه فغمرهم بين ذراعيه .

مالت بوجهها فلم تقع نظراته على عينيها الا كخطف البرق . ونهض فقد حان ان ينصرف . واتجهت منى بانظارها الى الشقة المقابلة فشاهدت هدى ، فاستدارت اليه فخيل اليه انه لمح لون عينيها وابتسامة على ثغرها لا يدري لماذا كانت ساخرة قلقة كقناع غير محكم الوضع .

ـ انها في الشرفة متلهفة لتنصرف . يعذبها وجودك عندي .

ـ أعرف ذلك .

ـ وانت ؟

« ما معنى هذا ؟.. في يوم ساحتاج الى من اسر اليها بآلامي . انت مقدرة لتفهميني . فهل ستفهمينني » ؟

ارتعشت شفتاها واغتصبت ابتسامة كبرياء ولا مبالاة واقتربت منه واحس بأن سعادته تتكون باعجوبة .. تختصر بحركة بسيطة .. يأخذها بين ذراعيه ويضمها الى صدره .

ـ سأعذبها بوقوفي الى جانبك . سأجننها .

الخصر النحيل طوع ذراعيه . دان للقطف . وانفرجت شفتاها وارتفع جبينها .. مثل ورقتي ورد مخملي زهري كان ثغرها .. ابتعد . وانغلقت ابواب الجنة في وجه آدم الرجل فتحول الى فلاح يزرع البقول والحبوب ليعيل اسرته ، بعد ان كان متفرغا لعشق حواء .

(عد يا ملاح الى أعالي البحار .

وارجع يا شعاع الى اصقاع الشرق .

واختف يا زهر الزنبق والليمون .

الى أن يأتي الصيف ، العاصفة ستقتلع أحسن الاشجار) .

ـ من قصيدة عصرية غير مكتومة ولا مقالة ـ

★ ★ ★

قال عزيز عبد الرحمن لرائد العالم :

ـ آخر لقاء لنا كان في اواخر الدكتاتورية الثالثة ـ قرب نهاية حكم الشيشكلي .

ـ يا للمصادفة يا عزيز . منذ ايام وانا افكر بقول لك ، سمعته منك

يومئذ عن حب طفل لرجل غريب لان حبه مستمد من حب امــه لهــذا الرجل •• وها انت قد حضرت •

ــ اراك ما زلت عاطفيا وعاشقا يا رائد • هل صدق القول ؟

ــ لم يصدق •

ــ قصدت سعيد في بيته فلم اجده • واستقبلتني شابة جميلــة •• أوه ••• هوه ••• عالم ما يزال سيئا يا رائد • حسبتها ابنته فسألتها عن ابيها فضحكت مني •

ــ كن واقعيا يا عزيز • تلك حال الدنيا وان لم ترض بها •• ما تغير شيء •

ــ لا • لا • فانا اعرف فتيات صغيرات تزوجهن رجال طاعنــون في السن وسرعان ما استهلكوهن وهرمن • يحدث هذا كثيرا في القرى •

ــ هدى لن تهرم ••

ــ ايه •• هيه •• عالم قديم ما يزال بحاجة لمعاول تقوّضه • لم يطرأ على قوانينه الاجتماعية ما طرأ على قوانينه الاقتصادية من تغيرات •

تذاكرا في ماضيهما • آخر الجمهوريات الدكتاتورية • فصّلوها مثل الثوب وألبسوها للشعب •• ثم استفتوه وجزماتهم العسكريــة تقــرع الارض : تريد او لا تريد ؟ طبعا يريد وألف يريد ••

ــ وانت • ماذا عنك ؟ كنت الوحيد فينا ينطبق اسمك على واقعــك •• رائد العالم •

ــ اه •• اه • مر الزمن وفقدنا الزهو وجاء اليأس وما من حل •

ــ المعركة ما تزال مستمرة لمن يريد • انا اشتغــل في مشروع امــين وسعيد • فأي تحالف قام بين الاشتراكي القديم والرأسمالي المرابــي ! غريب !••

ــ كن واقعيا يا عزيز • دع المثالية جانبا •• اه •• المال زعيــم بــلا تمثال •

ــ تصور المناضل امين الاسود البطل الشعبي الرمز •• يبتز العمال• ومن هو اداته ؟ انا النقابي العتيق !•

ـ ألست مبالغا يا عزيز ؟

ـ قبلت بعروض امين وانا اظن بانني اقيم صلات توافقية بين ارباب العمل والعمال في هذه المرحلة الحرجة التي تمر بها البلاد . فماذا كان ؟ صار العمال يشكون بي ويلمحون الى انني صنيعة ارباب العمل . امين يضغط علي لاضغط انا على العمال .

ـ لكن العمل يجري بسرعة مثلى كما علمت .

ـ صحيح ، والعمال وجدوا انفسهم يسابقون الزمن ، لصالح المتعهدين . والادهى من ذلك ان سباق الزمن عملية خطيرة وجهد مبذول بلا طائل بالنسبة اليهم .

ابتسم الآن عزيز بقهر وذكاء :

ـ الغلاء مستمر . التغذية . التطبيب . الالبسة . أجرة السكن .. ويا كدحة الوطن شدوا الاحزمة على البطون . في الحسابات الواقعية .. الوعي القومي .. عملة غير مقبولة في الصيدليات والبقالات ودكان اللحوم والافران .

« وأنا أعيش على الذكريات ، فالى متى يستطيع الانسان ان يأكل من زاد الذكريات وامجاد البطولات الشمطاء ؟ زمان كل ما فيه زائف . القيم غير مدركة . البطولات غوغائية . الحقيقة الواقعية الصادقة هي علاقة الرجل بالمرأة في لحظتها تلك . فسدت علاقة الابن بأبيه ، والزوج بزوجته ، والدولة برعاياها » .

(... وانفتحت طاقات السماء . وكان المطر على الارض اربعين يوما واربعين ليلة ...

قولي انك اختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من اجلك ... الصوت ليعقوب واليدان لعيسو . لتستعبد لك ممالك ... لمن العصا هذه ... ؟)

ـ أضمومة وقائع من التوراة ـ



التقوا في مكتب المشروع الكبير • رائد • سعيد • أمين • عزيز • وكان الاخير بلباس كاكي وبيديه قفازان سميكان مـن الجلد ملوثـان بالكونكريت • وعلى الجدار خارطة كبيرة لخطوط البناء • قـال أمـين الاسود :

ـ يا لها من شركة ناجحة ـ عناصرها الرئيسيون اربعة ـ لو تنضم الينا يا رائد فهذا زمن التعهدات ؟

ونعب سعيد عارف ـ مثل كاسندرا على اسوار طروادة :

ـ تسلمت الدولة تجارة الفستق وهو المنتوج الرئيسي في المحافظة • لا استبعد ان يحل الخراب • الخراب لا مرد له •

ـ كل هذا من اجل الفستق ؟

سعيد عارف كان ظريفا بالرغم من تشاؤمه وهو يرد على عزيز :

ـ اسمع يا رائد • هذا الرجل لا يعرف القيمة الحرارية لهذه المادة البروتينية •

ـ لعله لم يحتج اليها بعد كغيره •

ـ خبيث انت يا رائد • تهمز وتلمز • أتعرف ؟ سأسافر بعد ساعة من الآن الى بيروت لاعرض نفسي على الاطبـاء • أشعر بوطأة السن •

ضحكوا • وعادوا الى حديث الفستـق • ووصف العجوز سعيـد حصر الدولة لتجارة ـ الفول السوداني ـ بها ، بالجريمة بحق المزارع والتاجر • وسأل :

ـ ما رأيك يا عزيز بهذا ؟

ـ انا لست تاجرا ولا مزارعا ولا دولة • لا أتضرر ولا أتنفع • لكن الحصرَ ألغى الوسيط •

ـ الوسيط • الوسيط • ـمستاء سعيد ـ دائما هو كبش المحرقة•

ـ وماذا في بقاء الوسيط من خير ؟

ـ الوسيط هو الذي يشتري من الفلاح وصغار المنتجين ويقدّم لهم البذار والسماد والمال مقابل المنتوج •

ـ ولكن الوسيط الذي هو التاجر هنا يقدّم هذا لقاء فوائد باهظة

او يشتري منهم المحصول وما يزال أخضر في ترابــه وبالسعر البخس . وفــوق ذلك التلاعب بالتصنيف .. والتاجر ذلك المطفّف .. غشاش الوزن . ولا يخفاك يا سيد سعيد ...

ـ لا يخفاني ؟ لا يخفاني ! ـ صاح سعيد كالملسوع ـ ماذا ؟ ما دخلي انا بما تقول من تلاعب وتطفيف ؟

تدخل امين الاسود . في الجو غيوم ملبدة :

ـ لا شيء يا سعيد ـ عزيز لا يقصد شيئــا . رأيه فقط هذا الذي قاله ...

وقال عزيز :

ـ على كل حال . الامور متشابهة . وأرى ان مكاني ليس عندكم.

ـ الخراب . الخراب . هذا ما بــات كل انسان يتوقعــه . لعلك تتهمنا بشيء ؟

ـ لا . ابدا . انتم طرف والدولة آخر . لست انا طرفا ولا وسيطا.

ـ بالطبع لن يتهمنا . فعزيز منا وفينا . وبعد فليس علينا ما تتهم به.

ـ حسنا . أعتبر نفسي مستقيلا ـ يقول عزيز ـ ولست مستعــدا لتحمل مسؤولية ما يحدث .

قال رائد متدخلا :

ـ يحدث ماذا يا عزيز ؟

ـ اذا سكت بعض المراقبين او تعاموا .. فالباطون وسائر المواد . والمؤونة الخفيفة .. كل هذا يراه العمال .

صاح سعيد :

ـ تخوّفنا بالعمال ؟ انهم يقبضون أجورهم ونصرفهم .

ـ لا بأس . هذا رأيك . اما عواقب الغش قد تظهر قبل الانتهاء من المشروع .

ـ الدنيا بخير يا ناس . لماذا التشاؤم ؟ نحن لا نطلع عنك يا عزيز.

سأل رائد :

ـ هل ما قاله عزيز صحيح .

ــ تعالَ يا رائد لأريك العمل . تعالَ معي .

جال امين ومعه عزيز برائد في أقسام العمل كإبليس بيسوع في جبل الزيتــون .. هذه أورشليم . وهذه صيــدون . وهذه دمشق . وهذه أرواد . ممالك .. وذهب الدنيا فيهن . وعاج وجواهر وخمور وعطور ونفط .. اذهب عني يا شيطان ..

رائد دبلوماسي . مهذب . يصغي . يهز برأسه . يبتسم ولا يفصح، وأمين يؤكد له ان البناء متين . والاساسات قوية .. تتحمل فوق الطوابق الخمسة خمسة اخرى ، فلماذا المبالغة بجودة المواد والاكثار من مؤونـة السمنتو ؟ اما اذا أتت حرب نووية فما من بناء قوي او ضعيف يصمد .

ــ لماذا اذن التبذير. المواد مال نستفيد به وليس لندفنه في الباطون.

ــ لكنه مال الدولة وليس مالكم .

ــ كم تظن يا رائد الارباح ؟ مئتا الف . نصف مليون . قل مليون ليرة يا اخي بلا مبالغة . ألا يغريــك هذا فتتشارك معنا ؟ أم تترك هذه الارباح لسعيد عارف ؟ وماذا يصنع شيخ فانٍ بها ؟ لتبعثرها زوجته ؟

ــ كيف ذلك ؟

ــ بيني وبينه اتفاق محرر . عليّ ان اقدّم مبلغــا معينا لتغطيــة رأس مال متحوّل الى مواد وآلات وأجهزة فأكون مالكا لنصف المشروع والاّ اقتصرت أرباحي على نسبة مئوية ضئيلة . ولن استطيع تنفيذ هذا البند . ودخولك معنا يجعلك شريكا فعليا . وانت وانا لن نختلف على صيغة معقولة بيننا . ماذا قلت ؟ دع المثالية جانبا يا رجل !..

ــ لا يا امين . انا واقعي . اما انّ مراقبين متواطئين ودولــة تلزّم مشاريعها ومتعهدين غشاشين .. كل هذا من آفات اعتدنا عليها ودخلت في تقاليدنا وسلوكنا . لا تخيّب أملي بالتقدم .. لكنني لم أعد أطمــع بشيء .

ــ أراك في خوف على أمجادك النضالية القديمة . تتمسك بالخُلقية كعزيز عبد الرحمن .. فهذا النقــابي هرب من الصحــراء خوفا من ان يغتالوه ولا يزال متمسكا بالنزاهة .

ـ لعزيز مبدأ ثابت . أما أنا فالحاضر بكل مغرياته لم يعد يثيرني ..
إيهٍ دنيا فقدتُ فيك الاحساسَ بالبريق ..؟ كل شيء صار شاحبا .
المبادىء .. العقائد .. المال .. بلا جاذب .

ـ من فقد المبادىء عشق المال .

ـ لم يحدث لي هذا حتى اليوم .

★ ★ ★

العصر وسنان . مال شعاعه على الافق البحري ، يغترف منه فَهَمَ الماء بابتلاعه . وشمس عروس حلت جدائلها الصفر تبكي حبيبا ضائعا .

منى منه ببعد القطب المتجمّد . ويكفي ان يقوم أحدهما بالمبادرة فإما يجتمعان او فليفترقا .

انتحر الغروب وطفت أوشحته مبعثرة فوق سطح الماء وظلام أزرق خيّم على الكون .

تأمل رائد المجزرة الكونية بقلب مفعم بالاسى متأرجح في أزمة الانسان المسحوق سدّت في وجهه الدروب فتاق للانسياب في دهليز النسيان . الهرب .

ويأتي الليل رحمة وأمانا . والنفس القلقة تركن اليه .. الا رائد العالم لا يرى في الليل غير السكون والشلل .. ويلقي بنفسه في جو حرار ةمشوبة بنور شاحب زهري اللون ، وأنغام حالمة .

يسحره هذا الجو . عالم مستقل يبدو فيه الناس صُنْعَ الايدي وهم مكبون بجدية على أعمالهم . حرفيون بارعون دقيقون يريدون انتاج أشياء جميلة . عيون تتفرس وأيد تتحرك وأذرع لا تهدأ . ما هذا العالم العملي الساهر على شأن ذي خطورة . ينسج عباءاتِ سعادة .. لا يحصى لها عدد ؟

الديك الذهبي . مطعم وملهى طليعي . ومع كل ما يزينه من زخارف وألوان وأضواء وجداريات ورسوم وأسماك ملوّنة في أقفاص الزجاج الشلالية التساقط على جنباتها . تظل جوهرة ، مساهرةُ الرجال في الاسحار ، قطعة رئيسة تضفي على الفن العصري والديكور الحديث ،

اللمسة الانثوية التي هي اكبر فعلٍ يهيمن على الرجل .
ــ هاي . قد عدت ! مرحى . مرحى !...
الويسكي . الصودا . الثلج .. في ظلٍ من نور في كأس طفا فوقها ذهب مذاب .
ــ هل ترجمت شيئا جديدا ؟ لكن ، دعي هذا الآن وارفعي سماءَك فتشرق .
ــ الدنيا ليل وما من كوكب في السماء .
ــ الكوكب الدريّ . هل ذهبت الى البرازيل ؟
ــ سافرت يوما الى بعيد وأبحرت وطـال سفري ومعي القبطـان حبيبي وكنا في شهر عسل وسنتزوج ...
ــ بعد شعر العسل ؟
ــ ونعيش في مكان اسمه الامازون .. لكن في الليـل طلع علينا اعصار أغرق السفينة وقتل حبيبي . هل تعلم انّ للموت صوتا ؟
ــ اذن لم ترَي البرازيل .
ــ وأخذني طيار بطائرته . أنزل منها الركاب . قال : محجـوزة لحبيبتي . حلقت بنا حتى قاربت الشمس فاحترق جناحاها فعدنا .
ــ ولم تشاهدي البرازيل .
ــ أخذني سائح .. وجعلنا نسير في الليل وننام في النهار . قطعنا قارّتين واقتربنا .. ثم ظهر لنا بحر مخيف ..
ــ اذن . لم تصلي اليها .
ــ بل وصلت بقطار بلا خطوط .
أمسكت بيده وضغطت عليها بأصابعها ولامست بها خدّها .

★ ★ ★

دنا الفجر . عيون الجلاّس معاقرو الليل الساهر ذبلت . عيناهـا الحالمتان في عينيه لا تبرحـان من التطلـع اليه . ونغم زاحف تترجمه جوهرة :

(أحببتك بملء روحي ومنحتك كلّ وجـودي وصار جسدي لك أرجوحة . يا حبيبي . وبقي الفراغ بيننا . وأتى مغـامر فانتزعني منك لأن الفراغ كان ما يزال بيننا) .

ــ هاتي شيئا مبهجا .

ــ ويسكي . سيجارة ؟

ــ هذه من أدوات النسيان . هاتي ما يفرح .

ــ أحدثك عن جوهرة شرقية لا غربية . مثل نخلة تعطي ثمراً وظلا. بدويـة في كفيها حنّاء . في ساعديها وشم . الوشم طهـارة . تعرضت لتجربة . التجربة مسؤولية ..

ــ حكايتك مثل قصص أدباء تفتيت الزمن . رديئة وانا أعرفها .

ــ لا يعرفها سواي .

ــ أراهنك . اذن ثمانية أساور مقابل التي ربحتِها .

صبت له كأسا وأشعلت سيجارة :

ــ وسأربح أساورك .. أنت جوهرة وزوجك جوهـر . وأختـه لؤلؤة . اللؤلؤة في محـارة . غاص صيـاد اللؤلؤ والتقطها من أعماق البحر . فتحها . أخرج منها اللؤلؤة . عرضها للشمس . جوهر شرقي السمات رشيدي التقاليد . قتل « عباسة » هذا العصر فأنقذ شرفه فطاله القانون فزجه في السجن فترك أولاده بلا معيـل وجوهرته بلا جوهر . الاولاد صغار ، الصغار حاجة. جوهرة أمّ أبّ . معيل وحيد . صاحبة أعتق مهنة .

كانت تبكي ، لآلىء لمعت فوق خديها . سألها :

ــ انا ربحت ام انت خسرتِ ؟

الليل شحب جماله وقلّ جلالـه . ينهزم مخلّفـا وراءه الزجاجات الفارغة والكؤوس والسدادات وذوب الثلج وأعقاب السجائر .

ــ والآن .. اليّ بالاساور الثمانية .

ارتفع صدرها بنهديها المندكّيّ البرجين ، وبدا واكفا بالذبول .

ــ ألم تقل ان الصغار حاجة وعوز . أكلوا بها فخذني بدلا عنها .

مضى الى جهاز الهاتف • أدار القرص •• تتمايل الاشيـاء أمام عينيه • خرج صوته متعبا في آخر الليل •

ــ هل أجفلكِ الرنين ؟ أين أنا ؟ في ملهى طبعا • أعلم انه في بيروت• سأمرّ وآخذكِ معي • الامر لي ؟ أنا آأمر ؟ حسن كل هذا •

وعاد من رحلته المجنونة في الثامنة صباحا •• وعندما فتحت له منى باب الشقة أفلتت صيحة خفيضة تلتها أخرى • ورفعت راحتها الى ثغرها تكتم دهشتها :

ــ ماذا بك ؟ أين كنت ؟

وأمسكت بيده وقادته الى أريكة مريحة • شاحب معذَّب مسحوق بالتعب والاسى ، يذكرهـا بوجـوه مناضلين خارجـين من سجـون الدكتاتورية •••

انسحبت لتهيىء له قهوة مرة ولما عادت وجدته نائما ورأسه مائلـة الى كتفه ، وأنفاسه منتظمة • ثم أفاق وجمدت نظراته على منى بغير ما شعور بالواقع وما لبث ان قال :

ــ آسف • ما كنت أريد أن أنام • هل فوجئت بي ؟

ــ حسبت أنك عائد من كابوس •

ــ من كابوس ؟ حقا هذا هو التحديد الصحيح للذي حدث • كنت مع هدى في موعد جنوني •

ــ ماذا قلت ؟ كيف ؟ اين ؟ حقا •• هدى !

ندمت فأشاعت فوق شفتيها ابتسامة كبرياء ولامبالاة :

ــ تحدّثنا • تعاتبنا •• وقبّلتها من رأسها حتى القدم •

ــ قبّلتها ؟ لا • لا • أنت ؟•••

أُفلتَ منها الاستنكار • انخضّ الصفاء في وجهها •

ــ وهدّدت بهجر سعيد عارف •

(« هدى•• المجتمع بتقاليده ما يزال أقوى مناء لاننا نثور مأخوذين بالعاطفة ولا عقل ، ونحن ما نزال واقعين في حبائل المحافظة والادمان على تقاليد الشرق • لا • لن تهجري زوجك • لا تفكري بهذا • »)

ـ وأنت ماذا قلت لها ؟ تهديدها خطير .
ـ أراك تبدين اهتماما .
ـ بل أستمع لحكاية .
(ـ « هل أحضرتني في هذه الساعة يا رائد لتقول لي هذا ؟
ـ اما ترَين أنني ثمل يا هدى ؟)
ـ صحت بها : هذا غير معقول . هذا جنون .
ـ وكنت مع ذلك تقبّلها ..
ـ من رأسها حتى القدم .
(ـ « يجب أن ننهي علاقاتنا يا هدى وبمرة واحدة .
ـ طبعا لأنك تحبها ـ تلك المرأة . بجنون يفقدك عقلك » .)
ـ كنت في ـ الديك الذهبي ـ مع جوهـرة . سيدة تعيسة ذات أسفار وعلمت هدى فقالت لي انها لا تهتم بهذه فانها عابرة . اما تلك فامرأة خطرة تعرف كيف تسيطر عليَّ .
ـ من هي ؟
ـ لم تقل . الا انها ذكرت انها تمتص ارادتـي . هل حدثتك عن جوهرة ؟
ـ الاحسن ألا تحدثني . لا عن هذه ولا عن تلك .
ـ مللتِ الحكاية ؟ طبعا الامر لا يعنيك .
ـ لا يهمني هذا ـ بقسوة ونبراتها رافضة ـ لا شأن لي بالامر .
ـ منى . انا انسان أبحث عن شيء هام مفقود . جوهرة . جمانـة او هدى . من خللهن أبحث عن ذاتي بعد ان صرت غائبا عن حضوري .
ـ قيس هام في صحراء . تلك كانت عادة العصر . هل أنت عاشق؟
ـ أبحث عن ذاتي وليس عن امرأة . ذاتي هي الحب . أتسمين هذا عشق امرأة ؟ لقد تركت هدى حانقة .
ـ مسكينة !
ـ المسكين أنا .
ـ وكنت تقبّلها ..

ــ بل وددتُ ولم أفعل •
ـــسيدة رائعة الجمال وتهيم بك • فلماذا لم تفعل ؟!
ــ قسوت عليها • أشعر الآن بالمهانة لنبذي اياها •
وقف وأشعل سيجارة وأزاح الستارة قليلا ، فشاهد هدى في شرفتها كأنها تحرس المكان :
(الكوكب الدري للشعب • وللطغاة المذنب الشؤم •
كالمسيح تساقط الحرية دماءَها على الصليب •
أهي سكرات الموت للحرية المنطرحة •
أم ذراع الشعب القوية تتزحزح تحت الجبال ؟)
ــ ماذا تقول ؟
ــ انه شعر برازيلي • نسيت ان اقوله لمترجمة الاغاني • عاشقــة البرازيل •
ــ لعلك لم تنس ان تقوله للأخرى ؟!
ــ بل قلتــه لغيرهما ــ كمن يحــدث نفسه ــ لمن هي كل شيء في حياتي •
« يبدو أن فاهمات الانفس المعذبة هن البغايا • الزمن لهن دائما •• لانهن الدروع الواقية تمنع الفجور من ان يمتد الى العائلة المحصنة؟ » •
مضى نحو الباب • تقلصت يداه وشعر بأنه استدار صوبها • هبط السلم وخيل اليه انها ستضحك منه الان وستصفق الباب • الاسى الان في نفسه أقرب الى الاحباط •

★ ★ ★

استقبلته مريم بوجه جامد فدخل غرفته وأوصد بابها • وعند العصر جلس في الشرفة • السماء صافية باهية والغيوم خيالات تتبارى في فضاء أزرق مشع • مريم الى جانبه • لم يأت بحركة ولم يسألها شيئا • نظراته شاردة بين الغيوم •
الحمائم الهائمة الى أي كشاش تنتمي ؟ على محياه ظل ابتسامة • رجع بنظراته من برج الفضاء الى مريم ، فتشجعت فسألت :

ــ أين كنت من صباح أمس البارح الى ظهر هذا اليوم ؟
ــ أما أنت يا مريم فكنت في شاغل بالاولاد والمطبخ . زرت بعض جاراتك ، وفي المساء هيأت المائدة ثانية . وفي السهرة قعدت تستعرضين حصيلة يومك وتستعيدين أحاديث الجارات ، وربما بعض مصارحاتهن عن لياليهن الحميمة وانكساف بعضهن مع أزواجهن وأوبتهن بالخيبة .. المهم اذن أن يومك كان مليئا .
ــ سألتك عن نفسك ..
ــ وتتميزين بأنك سيدة ذكية ، رفيعة المقام . ذات كبرياء . أنوف أما أنا فلي مشاغل أخرى .

الافق الغربي يتزعفر ويحمر ويتمازج عديد ألوانه في جو بوتقة واحدة ذات لون بلا اسم.. لم ير لون عينيها ــ مني ــ كأن له اسما غير معروف. السماء في فجرها وغسقها . في غروبها وشروقها .. لها ألوان يراها .

نهضت . خيوط فضية تتخلل شعرها الاسود . اسندت صدرها العارم الى حاجز الشرفة . أمامها شقق في كل منها امرأة تشغل بالها . تحيط بها .. وتشعر بأنها الان تختنق ، فهرع اليها وأحست بساعديه تسندانها فانقادت اليه فأدخلها الى القاعة .

الافكار المشبعة بالالم تموت . تهتز النظريات التي تمخض بهـا الشقاء تنتحر فضائل المبادىء على ابواب الوجدان ، تحرق النار كل ما حولها .. لماذا هذا الكلام ؟

★ ★ ★

جمانة تواجه ثلاث نساء محترفات تجارب . تنازلهن بشبابها البرعمي بل الطفولي . وهي في نافذتها « جولييت » و « روميو » مع ظهور القمر السيار يعزف لها « سيريناتا » الحب والشوق ، فتوافيه الى الحديقةوتلتف ذراعـه حول خصرها ويهم بتقبيلها . وفجأة تنقض عليهما حدآن ديدبها تعقب الفراخ .
ــ كلما رأيتكن يا هدى تصورت الحدآن ينقضضن علىفرخ مسكين.
ــ والفرخ مَن يكون ؟

ـ أنا .

ـ والحدآن بالجمع ؟

ـ أنتن . قارحات في فن التعامل مع الرجال . لكنها ستأخذه منك وسأفرح .

ابتسمت هدى بقهر وتابعت الغريرة المراهقة :

ـ هدى . بماذا تشعرين عندما يقبلك رجل . زوجك مثلا .

ـ زوجي ؟ أشعر بتقزز . أنا لا أسمي قبلاته قبلا .

★ ★ ★

في الليل تقلبت مريم بفراشها وقد انتابتها حمى .. كوابيس توالت عليها . وهي الرافلة في حلل عدميتها . مطمئنة لشريعة عقدت بينها وبين رائد زواجا قوامه الحب . وما باركته السماء لا تفرقه الغبراء . والتفريق كالتجميع .. اذ يكون فراق في قانون الجمع . ويكون جمع في فوضى الفراق . ويصير الزواج معاشرة بالاكراه . وتصير المعاشرة من غير شرعية زواجا مع الحب .

وفي الهزيع الاخير بارحتها الحمى . وجعلت تستعرض الاناث اللواتي يحطن بزوجها .. وما معنى أن يقضي رائد يوما كاملا ونهارا بمدينتــه خارج بيته ؟ ثمة اذن رابعة لا ريب ، فمن تكون ؟

« جمانة مراهقة تحبه بصمت وغباء . ليس لها قواعد تجاربية . تحلق في سراب تتأثر بشخصية رائد ووسامته كما تتأثر بالروايات العاطفية . انها حزب لا يستطيع القيام بانقلاب ليصل الى الحكم » .

« هدى . المحرومة من الحب . تعيش على فتات الجنس بلا شبع . تقارن بين عجوز وشاب ناضج ، الفارق كبير . وهي جمال وصبا يحرك نزعاتها قلب أهوج مندفع ودم فائر وانعدام مسؤولية ، هي حزب يمد يديه فتدنوان من السلطة . ثم ينهار ولا يصل اليها » .

« وتلك يعسوب ليل مطرز الاجنحة بالالوان القزحية . محاطة برؤى من صنع أوهام الرجال . تجري وراءَ الرغيف اليومي من خلل الكأس والنديم والجنس . تأتي مع الليــل وتذهب مع النهــار . ويرجع الرجل ـ ابن القرن العشرين ـ الى كهف ضياعه وما نال الا تشاركا في مشاع .

حزب انتهازي مفضوح منسحق قبل ساعة الصفر » .

« أما تلك .. الاخيرة وهي البداية التي تكبر . امرأة ذات اقتدار. تمثال كأنها جامدة . وفيها خلاصة الشخصية الأنثوية من رياء وحيلة وإغراء وعاطفة متزنة . نار تحرق قبل أن تضيء . ظالمة في سحر النضوج. أنثى بجسد مثير ونظرات متكسرة مراوغة من عينين هاربتين .. يهيم بهما الشعراء البلهاء . ذكية وخبيثة . متآمرة . سادية . لئيمة مليئة بالعقد والتناقضات . خائبة مع الزوج . ليست أجملهن . وتتهافت بطريقتها الخاصة على الرجل . وتؤجل الانزلاق بكل كيانها تحت قدميه » .

من أين اذن يأتي الرقاد الى عيني مريم وقد أجهدها الفكر اكثر من النعاس ؟ وظنت أنها في واحة صحراوية . تحت ظل نخلة . النخلة في حمى جبلٍ رملي . الجبل تحرك . انقذف بجحافله على النخلة فأغرقها .

(ــ مريم . هزّي اليك بجذع النخلة . انها الرحمة .

ــ لم تعد هناك نخلة يا رائد ولا رحمة .

ــ يا مريم . يتساقط عليك منها رطب جَني .

ــ صارت عصفا مأكولا . والرطب احترق في بطن الرمال .)

★ ★ ★

« أعيش مفكرا بك . وأجني الشقاء . أنا أحد قساة العاطفة. مادّي المعتقدات رافض لجميع المفاهيم الميتالوجية . أشتري بالمال لحظات الحسان وأحاديثهن الليلية . وأقع في أحضان المحصنات بعد ان يمانعن .

لرائد العالم مسيرة في وجود الذات بدأها بمراهقة قاسية فجلد عاطفته وذاب في هموم الناس ليسعدهم . احترق ليقول كلمة الحق . تحدّى الدكتاتوريات . عرك في معاجن التناقضات . ووصل الى ان الحقيقة الوحيدة في الدنيا بنت لحظة عابرة ما بين الرجل والمرأة . ومثلها الرفض . وان العلاقة ــ بينهما المرأة والرجل ــ هي التي تستحق التضحية ــ وضاع في تحطيم القوانين التي اخترعتها عقول الرجال لحكم الرجال .

في يوم . منى .. الزقاق في دمشق . والصغيرة النحيلة .. كنت أسير الى بيت مجاهد حيث الشباك المغلق والباب الموصد والدخان المتصاعد المتسرب من الشقوق .. كأنَّ في الداخل نارا قدسية موقدة لتأتي على كلِ الشرور وتلك رسالة الانبياء ، وأحلام الرجال .

وعندما خرجت شاهدت الصغيرة تلعب وعيناها كانتا مشعّتين فامتدت يدي الى شعرها فعبثت به ولم أتوقف ..

أنتِ لم تثوري .. منى .. وظلت عيناك شهابين فرحين ووجهك يبرق مثلَ الذهب . فأسميتك يومها فتاة الذهب .. وبعد يومين كنت أساق الى سجن الدكتاتورية الاولى ـ حسني الزعيم بعد الاستقلال . وكانت عيناك تتبعانني كشفتين ظامئتين . كنهدين ما تكوّنا . يسكرانني كروح عنقودين وأنا لا أعرفك .

كنت بعدئذٍ في شقة .. وصارت رغبتي غير الاولى . أنضجتها الحياة .. أن أعانق الجسد العابث بفكري وكياني . ذهب النضجُ بالبراءة . فامتدت يدي الى ذراعك وجمدت . وأناملي حطت في الفراغ ولملمت شراعي وانزويت .

خفت ان ترفضي يدي . فالرفض أقدس عطاءٍ نمنحه لأنفسنا . يدي لم تعد بريئة والصغيرة لم تعد طفلة . سكن في صدرها طائران يرتعشان. وشعرها الجاف صار شلالا منسرحا . وعيناها لا أرى لونهما . وارتميت في فراغ .

هذه الرسالة سآتي بها اليك وأنا أطلب حبّكِ . »

في الصباح تمزقت الرسالة قبل أن يكتبها ، وظلت في فكره حقيقة بلا جسد ولا روح .

★ ★ ★

يكفي أن يتوارى الحراس ليتنفس الاسرى . أمين غائب . وهي تريد كتابة رسالة الى من تحب.. أسيرة في بيت زوجها . تنتظر الحبيب. فالانتظار شريعة أنشأ الرجلُ المرأةَ عليها . تنتظر الحبيب ان يأتي .

الخاطب ان يطلب يدها . الزوج أن يأخذها الى فراشه . الانتظار وجدان في وجدان المرأة .. شريعة مقدّسة .

« أتكون المرأة وجودا متكاملا للرجل من معــدن رائد العالــم ؟ فهذا تشمّع حسّه . صار صنما . أعبد هذا الصنم وأريد تحطيمه » .

يظل الى جانب عشق الحقائق الانسانيــة . عشقُ الحريــة والحب شيئا هاما في حياة الانسان . وحرية العاشق عند معشوقه بغير سيطرة او خداع . حالة من حالات السعادة .

وعصر الانسان العربي ، لئيم . صلب الاعصاب طاغية . فيه التمزق والقلق . حتى ليظن أنّ لا مخرج ولا صعود . وأنه ــ الانسان العربي ــ لفي خسر الدرب المسدود .

المنطق منشور كلواء ممزق في الريح . والكلام صناعة الاذكيــاء البارعة ، تلقي الريبة في القلوب .. وان ظلت قدرة الوعي عند الانسان ملكة بلا تاج . وتفقد الاسفار المدوّنة قيمها التراثية كأنها ــ فقط ــ كانت لقومٍ أجيالُ اليوم من صلبهم. يفاخرون بالجياد وحسن عنق الناقة وبالشهامة والكرم والحفاظ على العهد والشرف .

ثم ــ هؤلاء التراثيــون المزمنــو القِيَمِ ــ يستجدون الامــم حقوقهم . ويسرحون في أهواء ساستهم ، ويكونُ الكلام عندهم أكبر من الاعمال . وقديما قيل : السيف أصدق أنباءً من الكتب ؟

عزيز عبد الرحمن في رتل من أصدقائه الشباب . قال :

ــ يا ابني . ابحث لك عن مدفع . عن صاروخ . عن رشاش .. بندقيــة . مسدس . مقلاع . سكين .. أي شيء جــارح .. والاخير أضعف الايمان . واياك واللغو والهذر .. فليس يثبت الا ما يخرج من فم البندقية . أليس عدونا يفعل وان لم يقل ؟ فعلام نحوّل نحن الفعل الى كلام ؟! القول الجميل سمعناه وسكرنا به منذ زمان ولم يدفع عنا البلاء . فهل نسترسل الى ما غلبنا وبامكاننا ان نذهب الى النصر ؟

قد كان هذا خطابا لو كان من الاذاعات . اما وهو ملح فلا يتلاشى في الافواه ويظل يملّح بلا هوادة .

درب الى الاستقرار

اجتاز الحدود الى لبنان وتبدّت الجبال في الجنوب الشرقي شامخة بزرقة داكنة ممسوسة ببياض ثلجي .. وفي بيروت شرب القهـوة في الروشة وتناول زجاجة بيرة في عاليه وطعام الغداء في بحمدون واستقر به المقام في فندق صغير ضائع في أحد المصايف القريبة .

الشتاء يولي وركامه الثلجـي آخذ بالذوبان وأنبات خضر موشّاة بالالوان تنبعث من الارض ، وبراعم الزهر على أشجار اللوز والدراق في السفوح المحمية من الرياح .

رجع بعد يومين الى بيروت والتقى بأصدقـاء له وغادر لبنـان بعد أسبوع ، وما نسيَ ما رغب في نسيانه ، فهموم اللبناني تذكره بهمومه ، ومشاكل الشعب هناك تضعه في مواجهة مماثلة لمشاكل شعبه . وأين المهرب ؟

تجتاز سيارته الطريق الدولي الى طرطوس في صباح رائق . خرائب عمريت عن يساره .. يبدو عموداها الاسطوريان الشامخان وقمة معبدها التاريخي الموحي بأفكار عميقة غريبة .

منى في باله . ما برحته . ترافقه في رحلتـه . يقود سيارته بسرعـة مئة واربعين كم. فيخترق جدار اللاوعي ويدخل في نطاق جاذبية الجنون.. ويتوقف امام مقهى الشاطىء الازرق .

— عزيز هنا لا يزال اذن ؟!

— رائد أنا سعيد بلقائي بك .

أشعّت عيناه المتمرستان بالحزن حتى بدتا وقبين يرسلان انذارا :

ـ ما زلت بانتظار الجواب من الصحـراء •• والى ان يأتي أعاقر الدخان •

ـ غيرك عاقر أشياء أقوى •

ـ هل وجد العزاء ؟

ـ كانت تهرب يا عزيز • على باب غرفة • في خلوة جبلية •

الفتى الوسيم الحالم الذي التقى به عزيز في أحد سجون الدكتاتورية الاولى كان وجهه عذبا بريئا • يحلم بالحب وبتغيير العالم ووضع مقاييس جديدة لكل شيء •

ـ لا يزال في هذا الشعب فضيلة يا عزيز • فالمرأة تذبح الحب من أجل الشرف وان كانت تكره زوجها • إه •• الشرق عاطفـي ينهار عند الازمات •

غضون في الجبين الموسوم بالالم أبكرت تذل العنفوان • خيوط بيض امتدت توشوش الشباب ليرحل • تجهم باهت تحت وسامة ظاهرة دليل على ان الدنيا لم تتجدد وان العالم لا يزال كما هو •

ـ كنت في الصحراء أحلم بمكان اسمه ـ بئر السهلة ـ • هرب مني • إه • هه •• لماذا اليأس ؟ سأعود اليه وأستقر •

الوجه الاسمر محفور بالمعاناة • مرارة باحت بها عينا العامل العتيق بمسك أدوات الانتاج •

ـ اذن عزيز عبد الرحمن رجل بلا وطن ، اذ وطن العامل حيث يعمل •

ـ مفهوم مغلوط وقديم • فوطن الانسان له حدود ، وان تكن في بعض المرات هي السياط وقلاّعات الاظفار والفلق التركي •••

« واحد يقتله الترف والحب • وآخر يقتله البحث عن عمل • وكانا لزمن مضى قد ساوى بينهما السجن الواحد » •

ـ وان لم يأتِ الجواب فماذا تصنع ؟ ألست في أزمة مالية ؟

ـ الازمة المالية حالة تعودت عليها لا تقلقني •

ـ لو أفكر بمشروع يا عزيز ، هل تشاركني فيه ؟ واعلم انني لست أمين الاسود •

ــ إه •• رائد • هل نسيت أن ما يحدّد سلوك الانسان هي قوانين الواقع وليست الوجوه والنيات ؟

ــ وأفكاري الثورية ؟

ــ لا أعنيك بالتخصيص •• انما للضمائر أوقات يستولي عليها النعاس •

ــ النعاس • ربّما ــ لكن ليس معي ــ يطبق أجفان الضمير وما انفتحت القلوب فوعت • مأساة الانسان الحالم بالاحسن •

ــ ما تزال شاعرا • أنت لم تتغير كثيرا يا رائد •

ــ بل أنا واقعي كما من قبل ومفجوع • إيه • وماذا عن أمين ؟

ــ انهار البناء الكبير في الداخل وقُتل تحت الانقاض من قتل •

★ ★ ★

فوجئت به وعلمت انه عائد من لبنان •

ــ ماذا جرى ؟ حدثيني بالواقع • فعزيز قال ان البناء قد إنهار •

ــ البناء منهار من زمن ــ وبصوت أوضح ــ أمين هنا الآن وسيحدثك •

خرج أمين الاسود من حجرته وقال بلا مقدمات :

ــ كنت سأصبح شريكا لو أتيح لي المال • فأنا فيه كما في مشروع طرطوس •

وقد دبّ الذعر في قلب العجوز وهو في خوف اكيد الآن • فالمناقصات كانت نتيجة تدخلات ورشاوى • وقد تفتحت العيون على المسؤولية وتحديدها • حقا • صار لسعيد سبب أكيد بالتشاؤم •

منى • ورائد ينظر اليها نظرة خاطفة • اما حسبها ما تزال في خوف بباب غرفة فندق جبلي • وانها الآن آمنة مطمئنة • جبينها مرفوع كالذهب لا يفقد شروقه •

ــ اذن عزيز عبد الرحمن كان على حق •

ــ وأنت أيضا •

ـ أتعرف يا أمين ؟ عرضت على عزيز مشروعا يشاركني فيه فرفض. أصبح في ريبة منا ومن رساميلنا الوطنية .

ـ عزيز انسان أحمق . متحجر . غبي . يعيش بعقلية مثالية .

ـ انه رجل شريف . هذا كلّ ما في الامر .

ـ قلت انك عرضت عليه مشروعا ...

ـ أجل ، أن نقوم بثورة تقوّض البناء الطبقي من أساسه وتعيد بناءَه من جديد وفي ثلاثة ايام .

ـ رائد لا تسخر . قلْ انك أنت أيضا لم تعد تثق بالضمير عند المتعهدين او بقدرتي انا على ان اكون نزيها .

يضحك رائد العالم ، ومن زمن لم يعد يضحك . وانفرجت شفتا منى عن ابتسامة لطيفة ثم عادت الى جمودها . وشعر رائد بحنق وعبث ، وانه مدعو للاعتزال في غابة ينشد فيها النسيان . وقال أمين :

ـ انا خارج الى سعيد فانه بانتظاري . هل تصحبني اليه ؟

ـ بل دعه يا أمين ـ قالت منى كردّة فعل ـ لا تدخله في مشاكلكما.

نظر اليها الرجلان . رائد باستغراب وأمين قال :

ـ حقا . هذا منطقي جدا . ولا تنسي يا منى أنك لم تقدمي له القهوة حتى الآن .. وأنت أيها الرأسمالي الزاهد بالثراء سأجد لك مشروعا يغيّرك .. وسيكون مشروعا نزيها وشريفا يساهم في اعمار البلد ويعطينا أرباحا كبيرة .

ـ هل هنا للآن شيء اسمه النزاهة في الاعمال ؟ باعتقادي ان النزاهة بَطَلَت عن الدارج .

أسند رأسه الى ظهر الأريكة فذكّرها يوم جاءَها مع الصباح متعبا ينشد لديها أذنا واعية وقلبا حانيا فقدّمت له القهوة المرة وهربت من نظراته .

فبراتها غاضبة وساخرة :

ـ هل كنت طوال هذه الايام في لبنان ؟ لماذا لبنان ولك في الجوار من يبحث عنك ؟

ــ أيهمك أن تعرفي ؟

ــ يهمني طبعا ــ وارتبكت قليــلا ــ أقصد أنني •• لا أقصد •• ما تتصوره ••

ــ أتصور ماذا ؟

ــ لست أدري • انما •• أعني •• ــ غاضبة وعصبية ــ ظننت أن لي الحق بأن أسأل أين كنت •• أعتذر •

نهض حانقا متألما فمدت يديها لتمنعاه من الخروج وارتمتا الىجنبيها واستندت الى الباب وارتجف كل بدنهــا وارتفعت حرارة الى خديها • في أعماقها أحاسيس تتبدد مثل طيور مذعــورة في الفضاء • فهذا رجل متحجر ــ تفكر في نفسها ــ يضحك وهو متألم • يقوى على العاطفة • يسخر • لا يبكي •• فالذين يكون يكون عادة في صدورهم أفئدة • بكت • أراحها البكاء كما أتعسها ذهابه •

★ ★ ★

لم تصدق مريم انه عــاد منذ الصبــاح ولم يأت الى البيت الا عند المساء • لم يعبأ ودلّل ابنته حنان وأسماها صغيرته الجميلة فاحتجت هذه بأنها لم تعد صغيرة وأكد لها انها تظل صغيرته المدللة ما عاش • ووعدها بأن يهيء لها زفافا رائعا على مستوى محبته لها •

ــ وأمي ؟ لم تعد تحبها •

ــ ما هذه الترهات ؟ أنا أحبك وأحب أخوتك • ألا يسعدها هذا ؟

ــ ان كان خطيبي سينساني عندما تتزوج ليقصر حبه على اولادي فأنا أرفض الزواج به منذ الآن •

ــ زمنك غير زمني يا حنان •

سمعت مريم الحوار فخاطبته :

ــ لن أرى النعيم بحبك •

ــ أسمعت يا حنان • اذن لماذا أجهد نفسي بحب لن يسعدها ؟!

ومرة أخرى كان عليه ان يغــادر البيت الى المقهــى • الركن الملاذ

البديل للبيت . وكما قال سعيد عارف : في المقهى تتغلب ضوضاؤه على ضوضاء العقل المهموم .. وكثيرا ما فتح رائد المذياع على ثرثرة وسخف وفي رأسه أزمات وقلق ، فتغلب الضجيج على وضعه النفسي المتأزم .

لكن صدر مريم كان من قبل عزاءه الكبير وصار اليوم جبلا على ذروتيه صقيع ومع ذلك يدعوها لتضمّه اليه وتهمس له كما في الماضي فالهمس يبعده عن همومه .

التقى بعزيز عبد الرحمن :

ــ هل تعلم يا عزيز أن في المدينة كشاشيّ حمام ؟

ــ ما العجب يا رائد ؟ وأراك كما كنت من قبل الفتى الحالم الذي يريد صنع كل شيء من جديد ، فالناس هم الناس وليس كما تريدهم أن يكونوا .

ــ ألأنّ المدينة كبرت صار فيها الكشاشون ؟

ــ ما من مدينة تكبر الا ويكبر فيها الناس . وتكبر أمورهم . همومهم . تناقضاتهم قساواتهم حيلهم . المدينة انسان فاقد البراءة والعذرية لا قلب لها .

أوركسترا المقهى بكل آلات عزفها الايقاعي ، الصادر عن المناضد . ومعه الاحاديث التي تبتلع الزمن ولا تؤثر فيه .

ــ الناس في بورجوازية حياتهم. الاكتفاء ــ اللاشاغل. واللاحدود وطن ملتهبة . واللاأرض محتلة واللااستثنائية . واللاحرب واللاسلم .. وكل شيء للجبهة . هذه هي الحجارة فابنِ بها صرحا يا عزيز .

ــ حجارة طيبة . ينقصها الوعي السليم .

ــ كان الناس في زمننا واعين . فماذا صنعوا ؟

وجه عزيز مخدّد أسمر . وكهل هو بعيد عن المبالغة والتأزم . وزمنه يظنه قائما لم يذهب .

★ ★ ★

كبرت منى على آلامها . لم تعد صغيرة تلهيها كرتها عن الوجود .

عاشت عمرا بلا حب • ستعيش كلّ عمرها بلا حب • فمن تحب ؟ ومن تكره ؟

تخاف الرجل وتكرهه • فرجل زوجها لرجل • ورجل نصح والدها بهذا الزواج • جميعهم لم يكونوا على مستوى أحلامها• والآن لن تسمح لاي كان بأن يعكر مياه ينبوعها ولا لرائد العالم • تأخرت منى بمولدها وسبقها هو فلم يلتقيا •

ــ تبكين ؟

ــ أين كنت طوال هذه المدة ؟

ــ منى • لا تسألي الضائع : كيف ولماذا وأين ومتى •• عندما سألتني تذكرت مريم والغريب في الامر انني لم أنزعج •

ــ طال غيابك حتى ظننت أنني لن اراك بعده •

جلست قبالته • امرأة بلا عنفوان • في غير حالات الاثارة • وتلهب دماؤه مع ذلك • نساء كثيرات يظهرن ويخفين ، عاشرهن حتى تمرس بهن فوجدهن امرأة خاضعة لدواعي العرض والطلب • جنس • تلك هي آخر مقولة له في المرأة • فهل يفهمها ؟

ــ منى • انقلب كل شيء في ذهني • لم أعد أعرف ما الصحيح •

ــ لانك لا تفكر بقدر ما تتصرف •

ــ أتصرف باحثا عن وجودي ولا أقع عليه •

ــ ووجود الآخرين ؟

ــ وجود الآخرين • ماذا تعنين ؟

ــ أنت تعرف •

وقف • ولاها ظهره • توجست • تسمرت بمكانها بعد ان نهضت واستندت الى مصراع الباب ، ترنو اليه متحفزة • غاضبة • حانقة حزينة• مغلوبــة •

ــ أنت من يجب أن يعرف •

ــ كيف لي أن أعرف ؟! لعلني أسأت الى كثيرين وكثيرات •

ــ كلا •• أجل •• قد أسأت •

ــ أنا عاهدت نفسي في يوم أن أنفض همومي بين يديك. أنت الوحيدة تفهمين شعوري . وكنت كلما رأيتك آسية أتساءل : ماذا أستطيع أن أصنع لها .

شفتاها تنفرجان بارتعاشة وفي وجهها غموض . مرارة هما وجفاف .

ــ لم أعد اعرف شيئا. أبحث عن ذاتي . وانا ضائع . لي الحق بأن أجد من تفهمني وتبادلني شعوري .

ــ لا . ليس لك الحق .

ــ ألانني متزوج ؟

ــ أجل . لا .. انما .. ليس ذلك .

ــ مريم لا يهمها أمري أنا ؟ ما شعورك نحوي .

ــ من أين لي الجرأة ــ كالهمس ــ على هذا الذي تسألني ؟

لم يفهم قولها وقال بحرارة ويأس :

ــ أعتذر . وأنسحب من دنياك . سأهجر هذه المدينة وقد يعود اليك صفاؤك . فأنا أتدخل في حياتك ، وهي موضوع لا حق لي فيه .

ــ لم تتدخل في أمرٍ غريب عنك .

ــ هل أنا طرف في المشكل ؟

ــ أنت المشكل .

ــ اذن اذا ما انسحبت من دنياك .. هل ينتهيَ المشكل ؟

ــ لا . لا ينتهي شيء .. فأنت .. منذ وقت طويل .

المقاطع الاخيرة نطقت بها بخوف وهمس يكاد لا يسمع . صوتها راجف ولونها منخطف وهي مطرقة الوجه بحزن .

ــ أيهمك اذن أمرُ مريم ؟

ــ يهمني فقط رائد العالم .

ــ هل فهمت خطأ ؟

ــ لا . لم تفهم خطأ . فهمتَ ما أعني .

ــ واذن ماذا يجب أن أعمل ؟

ــ أنت تعرف .

ــ الآن صرت لا أعرف شيئا . أبدا ..

خطا خطوتين ووقف قرب الباب . في دوار . لا . هي التي في دوار.

ـ أرجوك . ظننت . لكن . أعتقد بأنني أخطأت فهم ما قلتِ .

ـ لم تخطىء فأنتَ فهمتَ ما أعني ـ بصوت يكاد لا يسمع ـ أحبك منذ زمن .

ـ كنت أخاف من هذه اللحظة . كم فكرت بالهرب .. لو أسافر الآن . هل ينتهي كل شيء ؟

ـ لا . أبـدا ـ رفعت رأسها بكبرياء ـ اعتبر الذي جرى كأنه لم يكن .

ـ ويكون بهذا حل المشكل .

ـ أبدا لا يحل هذا شيئا .

ـ أين اذن الحل ؟ أنت كنتِ حريصة على ألا يقع شيء . ماذا سيكون ؟

ـ أنت تدري ـ بانعطاف ـ لن يكون شيء .

فتاة حالمة . مراهقة . وأخيلة عاطفية تحيط بها وجعلت تقول :

ـ من زمن بعيد وأنا أحس بالحب نحوك .

ـ وأنا كذلك . وأمين يا منى ؟

ـ لا أحبه . لم أحبه في حياتي . أكرهه .

تناولت سيجارة ولم تستطع اشعالها . أعصابها مضطربة . يداها مرتعشتان . أمسك بأناملها وهو يشعلها لها . رفعت اليه عينيها . وهي فرحة سعيدة :

ـ منى . لون عينيك . شاهدت لون عينيك .. الآن .

قال أكثر مما يصبو اليه . تفجّرت سعادته في نفسه . بينه وبينها رهبة الموقف والحدود . وغادر الشقة فارتمت بأريكة تمسح أجفانها غير مصدقة ما قد حدث . في حلم هي الآن . يحبها . يحبها ..

أخذتها تيارات الواقع وأعادتها الى حضورها .. المذياع ..

(أنا وأنتِ ظلمنا الحب) .

منى تحيا .. حبيبها لها . مقاطـع الكلمـة .. غير متعوّدة عليها ، وانتابها الاسى فجأة .

★ ★ ★

اتجه بسيارته الى جنوبي المدينة . الطريـق السوداء تلتمـع . هو مخلوق من جديد . قلق . مضطـرب . خفيف الثِقل كأنه بلا وزن . سعيد في قرارته . وسرعة سيره تجـاوزت المئة والاربعين . وسيـارات باتجاهه تنحرف الى أقصى يمينها . وأخرى يتجاوزها كأنها تنجذب الى الوراء .

غائب عن حضوره .

« ظننتهـا امرأة لا تحب ، مثلَ كثـيرات يهمهن الستر ولا تهمهن السعادة » .

تدنت السرعة . مر بمزار الشيخ البحري الطاهر في درب رملي تحيط به كثبان جرداء . أنسام البحر تلامس وجهه . أوقف سيارته قرب مصب الجدول على شط البحر . المذياع يقول شيئا . ماذا تقول الدنيا ؟!

الناس . وبعضهم في الخنادق على الحدود . بعضهم في الخيام . أتى الصيف وما أخـذ رائـد به علمـا .. يستعرض رتلا من الوجـوه .. الاسماء .. واحد بينهم وقف متحديا يتفرس فيه . ما كان يحسب له حسابا . أمين الاسود . لايتزحزح .

« سلبتني من هي ملكي . أَمَتي . جاريتي . آمرهـا فتنصاع . تهدّىء رغباتي . وتموت وتحيا باشارة مني » .

طيف أمين جعل يتعملق حتى بلغ اتساع البحـر وغطى جزيرة أرواد وزرقة السماء والافق والغروب المتلظي بنار والغيوم الممزقة فوقه فكأنه الكسوف قد وقع .. ثم انفجر بلا صوت مثل فقاعة الصابون .

وجه رائد بمستوى الافق . عيناه باتساع الابعاد .

« من قال لهذا الديك المسرع ان يستولي عليها ؟ اخطأت يا مجـاهد شاكر باستشارتي في الامر . انا كنت امنح البطل وساما لست املكـه ،

واني جئت اليوم انزع الوسام عن صدر من لم يعد بطلا . اين الاخلاقية ؟ السجون وزنزاناتها — يا صديقي القديم — تذكي في الناس روح الحفاظ على المروءات والاخلاق ، ومعترك الحياة يقضي على كل هذا . الابطال يتلاشون وينكشف معدنهم ، على نقيض الذين لا يتغيرون مهما قسا الزمن عليهم . لا شيء يستغرب بعد اليوم . اخطاء الماضي تزيلها اخطاء الحاضر . لولا شهادتي بأمين ما قبلت به منى شاكر » .

وجد من يستحق ان يعيش من اجلها . المدينة تفتح لها ذراعيها ، تعانق العائد . يسوق سيارته باعتدال . كيف سيلقى ذلك الرجل .. زوج منى شاكر ؟ وانساق بقوة دافعة لمقابلته . وانفتح الباب وظهر امين امامه :

— ادخل يا رائد . جئت في وقت مناسب لتشاركني بالشراب . مالي ارى على وجهك هذا القناع المأساوي كأنك قادم الى مأتم ؟

صاح بمنى ان تأتيه بكأس . واستقر ورائد حول المائدة . منى بعينين قلقتين . فوق ثغرها ابتسامة خفيفة . غضت طرفها فذبلت جفونها وبدا جبينها مستسلما .

تشابكت نظراتهما . رفع الكأس وامين يقول ان سعيد عارف دعاه للتشارك في الارباح مناصفة من غير ان يقدم رأس مال ، وذلك عندما وجد ان المشروع غير قابل لتحقيق الربح المرجو ، فأبى امين ذلك ، مفضلا ان يظل يعمل معه على اساس مرتب محترم . واضاف :

— عزيز عبد الرحمن رجل عقائدي وذو مبادىء يفكر من زاويتها . اما انا فواقعي . تريدني معك — قلت له — لا بأس . انا اترك المبادىء جانبا . العمل هو العمل اقدس ما في الحياة . والمصلحة هي المصلحة . مقدسة ايضا . اما العقائد والتحفظات الخلقية .. حسنا . مالنا ولها ! فقال لي سعيد : ولو يا امين . من انت ، ومن انا ؟ لا يصير الا ما يرضيك فابق معي .. بقيت معه . بالطبع ثمة وسائل لا بد منها للوصول الى بعض الارباح الاضافية وسعيد يعرف انني استطيع — وليس غيري — تحقيقها .

— يليق واحد كما للآخر . حلت البركات .

— اي مثل الطيور على أشكالها تقع .

ــ ولا مذمة يا امين ، فالامر كذلك • الاخيار للاخيار •

ــ وانت • ماذا عنك مؤخرا ؟

ــ أنا انتهيت من العراك لم اعد اتحمس لشيء كمن فقد العزاء •

« لماذا ؟ وحبي ؟ وانا التي وجدتها ؟ وذاتك ؟ من وجد ذاته في زمن الضياع فقد وجد الكثير » •

ناداها امين والكأس الثالثة تخوض في رأسه معركة التأثير • وعيناه في رحلة الذبول ، وامرها ان تأتي بالثلج وتترك الكسل جانبا • المرأة ــ برأيه الصريح ــ ما وجدت الا لتخدم الرجل في جميع الحالات •

أتت بما طلب وعاد أمين يقول :

ــ جميعهم يغشون والا ما كان ذلك الثراء السريع ، كل شيء جائز وحلال • التجار والمتعهدون لفي عصرهم الذهبي ــ واسم هذا العهد ــ الاشتراكية •

ــ وشريكك سعيد ما يزال ينعب بالخراب كالبوم •

ــ ربما يأتي عليه وقت فينعب عن صحيح يا رائد •

ــ هل ستحدث تغيرات على البنية الاقتصادية في البلاد ؟ هل تقول هذا عن قناعة ؟

ــ واذن • تظنني ماذا ؟ رجعيا • رأسماليا • امبرياليا ؟ انا واقعي وثوري ايضا في تفكيري • لكنني اختلف عن الثوريين التقليديين الداعين الى حرب بين الطبقات وتأريث نار الاحقاد بين الاغنياء والفقراء انا على العكس ــ ادعو ــ صاح هنا بحنق ــ منى ــ هاتي كوبا نظيفا آخر يا امرأة • ــ ادعو الى سلام اجتماعي •• وتصالح بين الطبقات • وتعايش الغني والفقير •

رفع كأسه • جوزة عنقه بارزة متقلقلة • يداه ارتفعتا • واحدة بالكأس وواحدة بقطعة بطاطا • وانزل الثلاث • قطعة البطاطا أدركت فمه وراء جرعة العرق واستقرت الكأس فوق المنضدة والرأس قرب صدره • ومضغ وطقطق بفمه واسبل يديه وتابع :

ــ سلام اجتماعي • تصالح • لماذا التناحر والبغضاء ؟ الارض مليئة

بالخيرات • والدنيا كلها مال ــ صاح الآن : اين الكوب يا امرأة ؟ اسرعي به يا حمقاء ــ اما الطبقات فلا حرب بينها في المجتمع • بل مصالح متبادلة ويسود العدل •

قال رائد :

ــ سعيد غارف ومن يمثلهم • وعزيز عبد الرحمن ومن يمثلهم • لتحقيق طبقة واحدة يجب ان تزول الطبقة الاخرى• او تمزج الاثنتان في واحدة وهذا لا يكون بغير التشارك بينهما •

ــ لا • لا • انا قلت : لا طبقات ــ التفت الى منى بحنق ــ واخيرا جئت بالكوب ، وتابع ــ أي لا عداء بينهما • اشرب يا رائد • اشرب ولا يهمك •

غزلت عينا امين في محطة الكأس الخامسة • واحس رائد بانه دخيل بينهما فاستأذن وانصرف •

وتوقف في الشارع • رفع رأسه • انطفأ النور في غرفتها • غامت الدنيا في عينيه زوجها يجعلها الآن تخون حبيبها • يتمزق • المهانة • الغيرة • فمن يزاحمه على منى ؟ زوجها ••• وهو لهذا له ثقل • فهو من بمقدوره ــ متى شاء ــ ان يسحبها الى حجرته • يعرّيها وينالها •

★ ★ ★

جوهرة تشرق في الليل ، حلية زائفة • من حولها الرجال • تسافر على وعودهم • تنام على عهودهم • ترتاح لاقوالهم • وتستيقظ •• فلا سافرت ولا غفت ولا استراحت • يعانقونها بشبق ويغادرونها بقرف •

في غرفته تأرجح المصباح • انطفأ • اشتعل • عاد فانطفأ فاشتعل • تساؤلات امام عقله : من الجدير بها • زوجها الذي لا تحبه ام الغريب الذي تهواه ؟

ومريم حبه القديم • ذهب الحب وبقيت مريم • والعواطف • كم من الناس لا يعبأون بها ؟! اما العالم فيبنيه ــ كما يؤمن عزيز عبد الرحمن ــ المتألمون ــ وهم صنف من الناس لا يبالي بجماليات الدنيا ورفاهها •• يكتفي بالضروري من الخبز وبالقليل من العواطف •

استيقظ وصوت في سمعه حتى ليحسب انه لا يزال في احلام ليلته .

— جئت مبكرة لأدعوكما ومعكما الآنسة حنان الى غداء في متنزه السلطان في بملكة . وسيكون معنا سعيد عارف وزوجته وعزيز عبد الرحمن .

اتى رائد . ووافقت مريم .. وناداها احد اولادها فهرعت اليه فقال رائد لمنى :

— لماذا اتيت انت ؟

— لاتأكد من انني استطيع مواجهتها . حبيبي رائد . لم انم لحظة هذه الليلة .

وعادت مريم وخرجت منى . واكدت مريم لزوجها ان منى جميلة جدا وانيقة وعلى نقيض زوجها ولعلها لا تشعر بهذا الفارق . فقال :

— بل انها اكثر من جميلة . بارعة الجمال . لكن ما الفارق ان تكون على نقيض زوجها . تشعر بهذا او لا تشعر ؟

— انت رائد العالم لا تعرف خطورة الفارق ؟

واتت حنان فسألت اباها اين كان طوال هذه الايام لم تره . فقال لها وهو يقبلها بانها بعد ان تتزوج قد لا ترى اباها طوال سنة ولا تشعر بشيء من الخيبة . فانكرت قوله ورفضت الاخذ به . وهزت مريم رأسها ناقمة. وعلمت حنان بالدعوة الى متنزه السلطان ففرحت :

— اذن ستكون معنا يا ابي ؟

ضمها الى صدره . ثمة — كما يشعر الآن — مكان في فؤاده متسع لابنائه . كأنهم هم له درب الى الاستقرار .



قلوب تبني ذاتهـا

في متنزه السلطان وباقتراح من امين رتبت مريم جلوسهم ، فاتبعت نظاما استاطيقيا معينا ، وجد فيه رائد نفسه ــ بمصادفة عن غـير قصد طبعا ــ بين منى وهدى ، فاقنعت بهذا امين وسعيد ، ببراءتها من غـير ان تقنع رائد ، وجلست هي قبالـة الثنتين • وعن يمينها جلس سعيد وعن يسارها جلس امين اما على رأس المائدة فحنـان وخطيبها يقابلهما علـى الطرف الآخر عزيز عبد الرحمن •

عيناها ترصدان وقلبها يتشفى وهو يتفتت بكبرياء • وصوت مـن المسجلة يغني عتاب المحبين وعذاب القلوب •

قدم رائد شيئا الى كل من جارتيه مما على المائدة ولم يأل جهدا في ارضائهما بكلمات مجاملة لطيفة • واشعل لكل منهما سيجارتها وهو يبتسم ابتسامة شفافة• ومريم تُسَيِّر نظراتها فيه وفيهما مثل دورية بوليس مراقبة•

دار على المائدة حديث اشترك فيه الجميع • وتبادلوا الانخاب بكثير من المودة والسرور • وصعدوا الى سطوح البناء المسوَّرة يشرفـون على المدينة الرابضة على شاطىء البحر الابيض ، وهم ماضون في الحـديث ، كأنه ما انقطع ، وقد تجاوزوا فيه الى مختلف نقاط الحرارة والتأثر •

المرفأ الكبير فوقه غلالة من ابخرة البحر في ساعة الاصيل ، يخرّقها لمعان الامواج • وقال عزيز :

ــ هذه مدينة خرجت من عدمية الوجود •

ــ الانسان ينمو وتنمو معه المدن وعهد التاريخ ببعض مدنه القديمة

انها متحف للآثار وقاعة استقبال واسعة للآتين من الخارج وبأيديهم آلات التصوير والنواظير المكبرة •

وعلق امين :

ــ الفضل في اعمارها يرجع الى المغتربين العائدين • ينـــون فيهـــا العمارات •

وقال عزيز عبد الرحمن :

ــ الشعب هو محقق التحولات السياسية الكبيرة في نظام الحكم •• وما نمو طرطوس الا نتيجة للنشاط السياسي التحرري • هذا اذا تجاوزنا بناء العمارات الى ما هو اهم •

ــ اي نشاط تحرري ؟ تدخل سعيد عارف ــ لــولا المتعهدون مـــا اختلفت عن قرية كبيرة •

ورد عليه رائد العالم :

ــ قد كنتم فيها من قبل ولم تبنوا شيئا • المشاريع الكبرى هي نتاج تلك التغيرات السياسية •

صاح أمين كأنه وجدها •••!

ــ ألست انت القائل يا رائد : ان بناة المدن كانوا دائما اناسا حملة سوط ؟ حسنا • اين دور السوط ؟

ــ السوط هنا رمز العنف والصلابة ، والحكم القوي • ففي السنين التي كان يناضل فيها الشعب ، كان الحاكم يواجهه بالعنــف والشدة • والسوط تحول مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الى ايد اخرى •

قال عزيز :

ــ السوط هو السوط في اي يد كان • لان الحرية لا تتجزأ •

ــ انت تغالط نفسك يا عزيز ــ سخر سعيد عارف ــ هــل نسيت دكتاتورية الطبقة الواحدة • العمال ؟ ما موقف طبقتهم من الحرية التـــي لا تتجزأ ؟

ــ الحكم يجب ان يكون للاكثرية ضد الاقلية • فهل هو كذلك ؟

لمنى رأي استمدت الرغبة بالادلاء به من ماضي ابنة المناضل مجاهد شاكر :

ــ قبل كل امر • اين الحرية ؟

رفع زوجها كأسه وقال بلهجة خطابية هازئة :

ــ الحرية موجودة ، والا ما كانت النساء يناقشن الرجال ويدخن السجائر ويشربن الخمرة ويلبسن الفساتين القصيرة •

لم تتأثر بتحامله • فليقل ما يشاء •

ــ كل هذا من حقوق المرأة • تنتزعه من الرجال الاسياد • لكن هل الاسياد احرار ؟ انهم ليسوا احرارا • واذن فعلى الرجل والمرأة ان يتحالفا من أجل تحقيق الحرية •

من جديد علّق أمين :

ــ منى• يجب ان تسافري مع عزيز لتناضلي في أوساط المرأة لتحريرها•

لم تفلت مريم الفرصة :

ــ ربما السيد سعيد يوافق على هذا الاقتراح فيسمح لهدى بالنضال في سبيل حرية المرأة ؟

اجابت هدى :

ــ ولا بد اذن من تأليف تنظيم نسائي • وبما انك يا مريم لست عدوة المرأة وحريتها فستكونين الرئيسة يا عزيزتي • على الاقل بالنسبة للسن بيننا •

وسعيد قال بكثير من الدالة والشأن والنكتة :

ــ لا • لن اسمح لهدى بالطبع فانا لا استغني عنها •

قال رائد ضاحكا :

ــ في موضوع الإستغناء او عدمه الامر بهذه الايام لهن • فما رأيك يا أمين ؟

يرى أمين ان الاربعة الآن اقطاب مرحلة ما تزال قائمة • يمكن ان يخدموا البلد ويجنوا ارباحا خيالية ، فيكون تشاركهم للمنفعة العامة والفردية • ولا يهمه الامر الذي سأله فيه رائد العالم :

ـ واذا قبلتم ـ رائد وعزيز وسعيد وانا بالطبع ـ فلـدي مشروع احدثكم عنه غدا وذلك بمعزل عن تأثير الخمرة . فقد شربنا جميعا .

وافق سعيد ورفض رائد وأصر عزيز على الذهاب الى الصحراء . وفكرت منى بأن رائد فوق غايات المال واما مريم فوصفت ـ في سرها ـ زوجها بأنه كسول متقاعس وهدى استنكرت المال الذي يدور حولـه الحديث والعمل .

« هل أسف المال الذي يحلفون باسمه ، اطفىء به لهيب رغبـاتي ؟ وعجوزي غير قادر الا على الارباح . وانا ؟ آلست مشروعا له اهميته » ؟

الانظار الى بعيد ـ السهل والبحر ـ وبينهما البساتـين . ـ سفن راسيات في المرفأ . فوقها شمس تنحدر الى الافق الزهري اللألاء المحترق بنار عصفرية . وحول المدينة كالطوق الاخضر تعانقت الكروم والحقول . اقتربت مريم من رائد :

ـ كأنك تحلم ..

ـ واخرجتني من حلمي يا مريم .. كنت ارى القلوب المصدعة تبني نفسها بنفسها عندما يدرك اصحابها الحس الانساني .

ابتعدت عنه بيأس ـ تفقده . هو الانسان الذي احبته ـ والوحيـد الذي تحبه . وهمس في سمع منى التي دنا منها الآن :

ـ ايامنا الآتية . اراها في عينيك اشراقة عمر جديد .

★ ★ ★

تلقى امين زيارة سعيد في مساء اليوم التالي وجلسا في الشرفة . مناخ دافىء وانسام رطبة ، واستغرقا في حوارهما وتبدت ـ كما ترى منى ـ في زوايا فم العجوز امارات الجشع والخبث بشكل يتعادل مع ما بدا على وجه امين . فكأن هذا مع فارق السن صورة للاول .

أول مراحل عمرها . تتذكره . ثم زواجهـا منه كأنه تنفيـذ لقرار سياسي اتخذوه . فخرجت من احلامها الى جانبها في السرير كومة بشرية . فجعلت تتكيف وفق الوضع الطارىء . وجعلها الزمن الخادع تظن انهـا نسيت فارس احلامها البطل المثال في اطار افكارها المراهقة .

تنظر الى الاثنين • وكل منهما استأثر بامرأة لا تحبه وان اختلفت الاسباب • فتثور نفسها على الزمن ومصادفاته العبثية • الزمن من صنع الناس • الا زمنها ليس من صنعها • فالى متى تدعهم يصنعون لها ما لا تريد ؟ بيت دخلته بالمصادفة فاطبق عليها فخا فمنعوها من الخروج منه •

استقبلت رائد العالم • همست له بانها في غربة • تشعر بالغثيان مما يجري • لم يجب وجلس اليهما فتكتما في الحديث فانسحب ليجلس في القاعة الى منى ويقول لها :

ـ مهما يكن فأنت وانا لفي احسن حال • نحن في حب •

ابتسامتها مقهورة في حرم العذرية التي أوحتها اليه ولفظت اسمه فرن رنينا غريبا استعذبته فابتسم لها :

ـ اجل • هكذا وان حملت لمحات اسى الا انها ابتسامة •

ـ رائد • حبيبي • يجب ان ابتسم • ان افرح • ان اضحك • انا حبيبة للمرة الاولى •

التقت اناملهما حول الولاعة فتماسكت لا تريد انفصالا وانتهت مناجاتهما بانتهاء جلسة العمل بين الشريكين اللذين انضما اليهما في القاعة، وكان العاشقان للحظات وجيزة يتحديان جميع قوانين الاجتماع منذ حمورابي الى ما بعد كارثة الايام الستة •

خرج رائد وفي عينيه نقمة • الحب اختلط بالكره • ثمة اطار يضم كل التناقضات • حبيبته تخونه مع زوجها • مأساة ستتكرر كثيرا ، فهي واحدة بين الاسماء التي تطلق على المرأة :

جارية • أمة • قينة • زوجة •

وهو فريسة ظنون تشقيه •

اعلان مضاء في اعلى الباب ارشده الى ما يجب صنعه لتلك الليلة • الديك الذهبي ـ ديك بطرس او ديك هذا البلد ؟ المنفوش السريع القفز السريع الارتداد • خرب العش • مغرم بالصياح •

في المدخل عبر الممر • الحيوان البر مائي المحنط • رابض بسحنة نمر وجسم سمكة • مكشر الانياب حانق مما صار اليه • وقد حاول الفنان

ان يجعل منه مخلوقا ممدينا مؤنسنا ، فاهانه واذل عنفوانه .

اقفاص زجاجية تسقسق بالماء الشلالي . واسماك ملونة مأسورة في السجن العقيم . الاضواء وردية واهنة . لوحة تضم في اطارها ديكين ، حتى اذا ما أضيئت بدا الديكان وهما يقتتلان .

استقبلته جوهرة وشعرها الاسود اللماع يضم سحنة المرأة الموحشة في بلبال وشقاء . كشرت عن اسنانها بابتسامة حزينة خجول وصدرها يسبقها ناهضا كجدار قديم يهدد بالسقوط .

عدة الليل الساهر . ويسكي . صودا . ثلج . سجائر . ولاعة . صحون قليلة مختارة من المازة . صدر صمد للعبث ووجه مزوّق بالمواد التجميلية . يؤلف هذا كله لوحة حضارية دخلت في العصر كما دخل الملح في طعام الانسان .

يتجاوز الزخرف والماكياج والثياب الزاهية والحلي الزائفة .. يدخل الى نفسها .. الصخرة الانسانية التي هي الخير والشر والطفولة البريئة..

ابتسمت له وسالت نظراتها فوق وجهه آسية . لم يبتسم وارادت صنع كأس له فرفض تناولها فانصاعت وترددت ـ الرضوخ من بنت مهذبة . جارية ارث التقطت من سوق البصرة في الزمن الغابر .

رفعت كأسها نخبه فلم يرفع كأسه فغرقت ابتسامتها في كأسها ـ والصابون اخترعه الانسان ويحرّكه في يديه كما يشاء . الاكتشاف الكبير هو تحريك المرأة بين الاهواء والنزوات والانانيات والاستئثار .

« واخترع الدولاب واكتشف النار والملح . وظل الدولاب اكبر عدو للزمن يتحداه ويسبقه » .

نفضت جوهرة شعرها ورفعت رأسها وتخللت خصلاته باناملها بضجر وحملت كأسها الى شفتيها ..

ـ جوهرة . احكي او اقول انا عما بك ؟

ـ ليس عندي اساور .

ـ عندك ما هو اثمن منها فهل تقامرين به ؟

ـ معك اقامر بحياتي . بروحي .

« في التاريخ نساء لعبن ادوارا تحويلية في مجرى الاحداث عندما كان الرجال ــ كما هم اليوم ــ بحاجة للانثى تملأ فراغهم العاطفي » •

ــ هل تلقيت نبأ مزعجا فتألمت ؟

ــ أنت تقرأ الغيب • سأخسر معك الرهان • زوجي سيخرج من السجن بعد شهرين ونصف • هددني بالقتل بعد ان اتهمني بالزنا والعهر، وطردني عندما ذهبت لاقابله •

ابتسمت باستسلام • رأسها بين راحتيها • اختفى وجهها كسفينة تلملم شراعها لدى دنوها من المرفأ :

ــ مرة قرأت ان المحكوم بالموت يشعر بكل انواع العذاب وينتهي به الامر الى الرعب الذي لا ينقذه منه غير الموت •

وبمرح مفاجىء قالت !

ــ هل اترجم لك الاغنية ؟ انا احسن هذا كما تعلم •

ــ وتفتحين القواميس وتطالعين الكتب •

(قرنفلتك البيضاء في شعري وفي كفيك رصاص فارغ • يا جندي الحب الماضي • دعني فدمي لن يروي ظمأك • مددت ذراعي لك وسادة • فاقطف ازهاري قبل الزمن يمضي ، ضع فوق صدري قرنفلة واقرأ رسائلتي) •

أشعلت سيجارة • غامت عيناها في تفكار •

ــ بنت في مراهقتها • وأخرى بعدها • وولدان أصغر منهما ، عند والدتي العجوز •

ــ الاغنية تتحدث عن زنجية مات حبيبها في فيتنام وليس ما ترجمت•

ــ لماذا كنت تستمع لي اذن ؟ انك ربحت الشرط وانا لا املك اساور

ــ وهي ترنو اليه باغراء وظل ابتسامة فوق شفتيها ــ وانت قلت ان عندي شيئا اثمن • خذه بديلا •

ــ هذا الشيء لا يؤخذ • انه قلبك الذي يبني ذاته •

ــ قلبي ؟ انا من زمن لم يعد لي قلب •

التقت يدها بيده فأمسكت بها كغريقة بخشبة • قال وهو ينهض :

ــ لا تبتئسي • فكل أمر له حل • المشكل لم يخلق مع الانسان • ما لم يخلق في الشيء يمكن انتزاعه منه ــ سأراك غدا •

★ ★ ★

على طريق بلدة بملكة الجبلية •• الى جانب الغدير الجاف ، اشجار بواسق فردت غصونها كالاصابع الاسطورية فوق البناء القديم ذي القبة البيضاء • مثوى الشيخ جمال الطاهر الجسد شفيع الناس في بأسائهم • عجائبي تسعى اليه النساء المحرومات من الانجاب فينذرن له بعد ان عز عليهن بوسائل الازواج •

تأمل رائد المكان •• الاولياء والقديسون يعرفون كيف يختـــارون اماكن مثواهم •• في نهد من الارض حيث وارفات كالسدرة في الجنان ، ويمر الساري بالمكان فتأخذه الرهبة وهو يرى العتمة المنتصبة تحــت الاشجار الغارقة بنور البدر ، وقد حلت السكينة كالموت فيمتلىء قلبــه بالمهابة ونفسه بالرهبة ويجعل يفكر بالغيب وما وراء الطبيعة مــن قــوة تدفع البلاء ــ اذا ما رضي الاولياء ــ وتجلب السراء •

مشهد ــ بانورامي ــ قريب من الانسان • اطاره السماء الصافيــة وعمقه اللون الاخضر الغامق وورائيته استشفاف الغيب يدعوه الى التفكير وقد عجز عن ايجاد التفسيرات المادية لامور مجهولة •

رائد العالم • المادي الفكر الشاعري الفؤاد •• لم تداخل الرهبــة نفسه ، فلكل امر فرضيات وحدود وان عجزت العقول عن سبر المجهول •

تابع سيره ولم يتوقف الا امام متنزه السلطان ، المبثوث بالشجر من كل نوع • المنمق بالزهر من كل لون ، وشاهد السلطان بين غروسه :

ــ انت شجعتني ان ألجأ الى فردوسك في أي وقت اشاء •

ابتسم الرجل المهيب الطلعة • الشيخ الوقور • وما يزال في وجهــه وسامة وطيبة ، واكد له ان هذا صحيح ، واخذه الـى اقسام البستـــان المحيط بالابنية ، وجال به شارحا موضحا ، عن اوضاع تلـك الغروس والاشجار •

وما ينشد رائد سوى الهدوء والعزلة والابتعاد عن جواء المجتمع الصارخ بمشاكله ، فجلس مسند الظهر الى جذع مشمشة وارفة وما لبث ان استغرقه النوم .

استيقظ بعد غفوة . وعصافير تأخذ حقها الطبيعي من الحرية والثمر والهواء .. تزقزق وتتنقل على الاغصان . تمارس حرياتها وكأنها ترسم لها مشهدا متحركا . ليس افسح منه الا ما يتخيله الانسان عن معاني الحرية .

العاشرة صباحا . تحديد الوقت اعاده الى واقعه . أهو من حدود الحرية ؟ ورسالة هدى التي وجدها في سيارته ؟ للحرية قيود . ضاع الفردوس عاد رائد العالم الى حاضره . فسّر بعض أوضاعه .

مريم سبب لتبلور الفراغ في نفسه وربما الكره . وللاغراق في الخمرة والجنس .. وقلبه ــ يظن ــ يتسع للعديد من العواطف ، كالمعدة تتسع لعدد من الوان الطعام . وكان طوال سنين يخضع العواطف لمفهوم مادي متحالف مع الغريزة المجردة .. فالحياة صراع يلتزم فيه الانسان بالتضحية .. من العار ان يهرب او يستسلم او يدير الظهر للمواقف .

يرفض اليوم هذا المفهوم ــ كل ما حوله يشعره بالغبن ــ كما يرفض الرأي القائل بأن لمعركة المصير ــ او معاركه ــ أهلها من غير سائر الناس.

فهذا الواقع مصيري ، متشعب العلاقات . متأصل بالآخرين .. وقضيته لا يناقش فيها .. الوطن . الحدود . انهاء الاحتلال . استعادة الاراضي . حقوق الشعب الفلسطيني القومية . التقدم . امور واقعية حتمية . النقاش يكون في ما يمكن ان يحدث . فهي مبادىء وقضايا مصير . لا يزايد عليها . لا يخونها .

في الماضي كان يستعذب طعم البطولة فيزج بنفسه في المخاطر .. يتحدى الظلم يقاوم العنف . يدخل السجون . اما اليوم فان المبادىء لا تسحره مهما تفاعل معها .. ولا يشعر بانه مستعد ليكون بطلا او يموت في سبيلها .

★ ★ ★

في مقهى ـ الشاطىء الازرق ـ الضاج الصاخب ، قام حوار بين رائد العالم وعزيز عبد الرحمن : الموضوع هو الاشتراكية . وهذه الدولة متهمة بها :

رائد : ـ الاشتراكية . من لها ؟ العمال . الفلاحون وسائر الكدحة. وعندما انضوى تحت لوائها بعض الاثرياء والبورجوازيين ، حق للاولين ان يتشككوا ويتساءلوا : ماذا اتى يصنع هؤلاء الاغراب في صفوفنا وهم اول من يخسر عندما تنتصر ؟ هل يحملون لواءها ويضحون في سبيلها ؟

عزيز : ـ وماذا كانت الاجوبة ؟

ـ انا نفسي بالرغم من ايماني بها لا اضحي من اجلها . والامر نسبي. من حيث انتمائي ووضعي لست بحاجة للاشتراكية . فهي لن تعطيني اكثر مما عندي . بل لا وجه للمقارنة ، ونضالي من اجلها يعرضني للملاحقة وللهموم . المبدأ هو هم بالتأكيد . تستطيع ان تطرح افكارا كثيرة مقابل افكاري . وانا نظريا معك في ما تؤمن به . وعمليا لا .

ـ في الماضي كنت معي عمليا وكنت منتدبا لتضحي .

ـ تلك مرحلة ، لم تعد تثير فيَّ الفخار . لنقل انها انتهت . فليؤمن بمبادىء الاشتراكية وليعمل لها من وجدت لصالحهم .. الشغيلة .. الطبقيون .

اتسعت الابتسامة على وجه النقابي العتيق . قال :

ـ سأتذكر افكارك عندما احلل ذاتيات الافراد وطبقاتهم .

وانتهى الحوار في جو من الكسل المقهوي اللذيذ . وبقيت امام رائد ساعات من نهاره لا يدري اين يقضيها .. سيرى امين وسيقول له : ان احسن مواطن فينا نحن الاربعة يا امين هو عزيز عبد الرحمن . ثابت على مبادئه مناضل من اجلها . حلمه بسيط للغاية . يريد الاستقرار في بيت صغير متواضع ويكسب رزقه بعرق جبينه ويعايش ناسا طيبين يفهمهم ويفهمونه . اما نحن فاغنياء لا ندري ماذا نريد او ماذا يسعدنا .

وجد مني . وتحلق حوله صغارها فعانقهم وأحس بأنهم أسرته هو .

وكانوا من الممكن ان ينحدروا من صلبه ومنها . وعندما فارقوه ونزلـوا الى تحت البناية ليلعبوا ، شعر بالاسى .

شعورها ؟ كان يدرك من قبل شيئا عنه . يخشى الآن ان يكـون قد تغير . وافكار من مكونات ماضيه القريب .. الغريزة محل العاطفـة . المرأة جسد يناله اما بوسامته وتأثيره عليها واما بماله . الجنس هو رابط الرجل بالمرأة .

اهتزت هذه الافكار ضمن الاطار العام تكاد تقع . ولكن منحاه مع منى فيه رومانسية وشاعرية وعاطفية ومثالية . فيه جانب روحي يتعارض مع مفهومه المادي ــ الواقعي . كما تناقض زمنه مع زمنها . تقـدم هو وتأخرت هي فما التقيا في مرحلة الشباب الاولى المتناسقة ، فحدث ذلك الخلل كله .

في جيبه رسالة هدى . تؤكد له فيها ان ثمة ما يزال بعض يمـوت للحب . أيتراجع مفهومه الغرزي ان الجنس هو الغاية ؟

وجوهرة لم توفره . تنتظر ان يجد لمشكلتها حلا .. وليس سواه من ينقذها . هدى تتهمه بانه يقتلها .

تنظر منى اليه صامتة مغلوبة ببعض الحياء . ربما اثقل البـوح الاول لسانها فانعقد ؟ شديدة السعادة في اعماقها .

عذراء وحب عذري . قيس مجنون يترجى فتات حب وله من النساء الافئدة والابدان والقبل الملتهبة والبطون الزاحفة والخصور والنهود .

أمسك بيديهـا ، انهضها . صارا وجها لوجه . عيناه في عينيهـا . شفتاها ترتعشان كبرعم يتفتح عن كم نرجس ، تترجيان وهمـا بخيلتان . مترددتان خائفتان لا يدري ــ ستعطيان ــ ام هما الى الاخذ اقرب ؟ في عينيها لون فجر مزق الظلام .. لا اسم له . لا اب لا ام . جديد .

لامست أنامله خدها ــ قال هامسا : للحب العذري قبلـة شوق الحبيبين ــ وما عرفت أنامله منذ طهر الهوى الذاهب ، الا حب الغانيات والوالهات .. خصورهن . نهودهن . بطونهن . اجل حبيبي قالت له بمثل همسه ــ شفتاه فوق شفتيها وهي لا تدري ماذا تصنع ، كيف تتصرف ،

جامدة . يداها مسبلتان . تنتظر . تجربة غريبة ووضع مستجد لا تعرفه .. فألقت برأسها فوق كتفه وتشبثت به كأنها تدافع عن نفسها .

★ ★ ★

قدمت مريم طعام العشاء وشكت له حنان صدود خطيبهـا فضحـك وقال لها :

ـ صد فصدي ثم ليني ولا تشتدي . اغيرة يا ابنتي ؟

ـ أخاف منه ان ينساني .

ـ لن ينساك .

ـ كيف تعرف يا ابي ؟

سارعت مريم تقول ساخرة :

ـ كيف لا يعرف ؟ ابوك كبير العاشقين وامام المحبين ـ بـارك الله لنا فيه ـ خبير بالحب دون جوان العصر والأوان .

ـ ابي . أتعرف حقا ؟ قل لي بصراحة ..

ـ يحبك . لن يتخلى عنك .

ـ أصحيح ؟ بالواقع يا ابي .. انا أثقل عليه بغيرتي .

ـ هذا خطأ يا ابنتي . خطأ .

قفزت فرحة ومريم مستاءة ـ وقالت الفتاة :

ـ النصيحة بجمل وانا لا املك جملا .

ـ هاتي قبلة وفنجان قهوة من صنع يديك ورزقي على الله .

تدور في رأسه مشكلتان . هدى وجوهرة . اما الثالثة ـ منى ـ فقد دست في جيبه بطاقة عاطفية ؟ زارني طيفك في ليلتي . اتعذب باشواقي . عندما تغادرني احس بالخوف . هل ستنساني ؟... عد اليّ . ارجوك . لا تتأخر ؟

شرب القهوة بتلذذ . وحنان تهذر بفرحها كطير سعيد . وعندما غادر البيت كان بشعور مطمئن على عكس ما ذهبت اليه مريم من تعكير صفوه.

استقبلته جوهرة بفرح ظاهر :

ـ ظننتك لن تأتي . ارجوك لا تغضب من قولي .

انماط . اشكال . اتوا يبغون ما لا يجدونه في بيوتهم .. فالخمـرة

رأس الحكمة في قتل الفراغ والضجر كما المرأة رفيقة الرجل المفضلـة . والموسيقى غربية عبرت الابيض المتوسط الى مدينة ما زالت تبحث عـن ذاتها ورغيفها اليومي الاسود المقرر للجميع .

مزهرية فيها ورود فوق المنضدة . الكأس البلورية فيها ويسكي كذهب مذاب . الزجاجة فيها صودا بلون فضي . الثلج . علبة السجائر الحمراء. ولاعة انيقة . والاضواء ملونة .

جميعها نتاج حضارة خلقها الدولاب ..

يوم كان الغرب يطوّر الدولاب ويتقن ما ينتج ، كان الشرق العربي يذاكر في كراريس الاطلال عن الفضائل والتقوى والمروءات والكرم الذي ذبح الحصان الاصيل .. يا للوحشية !.

الويسكي . الصودا . الموسيقى . آلة الموسيقى . الولاعة . سجائر « مارلبورو وكنت » ــ المنفضة . الازهار الاصطناعية . حديد قضبـان النوافذ .. من صنع دولابهم . مادة الخوف على الفضائل . مـن صنع دولابنا .

ــ لم يهدأ لي بال وانا بانتظارك . افكر بامر وبآخر ولا اهتـدي . أتعجبك هذه الاغنية ؟ هل اترجمها لك ؟

فقد صوتها المرح وأفقدتها الحقيقة شجاعتها ــ وهي في لوحات مهنتها ــ عارية بلا تغطية .

ــ من صنعهم الغربي ام من اختراعك .. ستترجمين ؟

ــ من الاثنين .

رفع الكأس الى شفتيه . عيناها ترصدانه . تتفرسان فيه :

ــ يا الهي ! وجهك .. مرير كأنك خارج من قهر .

(ــ أنا بلا امل يا رائد . فماذا اعمل ؟ سأقتل نفسي .

ــ الحب حياة وقوة ودعوة الى السعادة . فلا تذكري المـوت يـا هدى) .

لامست جوهرة باناملها التعبة ظهر يده . الموسيقى غربية ــ المكان : لا شرق ولا غرب ــ تملأ الجو مثل الدخان .. وابخرة الكحول وروائح

الاطعمة .

ـ عندما ترين المرارة مرسومة في وجهي قولي كلاما قاسيا لأؤكـد نقمتي وتحق مرارتي .

سمرة خابية في وجهه . قسوة وحدة في عينيه . مظهر رجـل يقـاوم الدنيا . مات الكلام في الضوضاء ـ ظهر الليل مغلوبا . الانسان في كـل مكان تراءى له مصلوبا رأسه الى تحت يلامس التراب .

تنتظر ان يساعدها في حل مشكلتها . ثمة وقت . أرجأ الحل . رغبت ان يدعوها للخروج معه في ليلة مخفية . وعدها . سيكون قريبا .. ربما .. فهي تساوي ثلث هذا الحاضر .

احدى بطاقات منى . تدسها في جيبه ليقرأها عندما يخرج من عندها :

... « اكاد اصيح بالجميع : انا حبيبته ! اعدت اليّ اعتبار انوثتي يا رائد . اريدك بقربي . انا بنت الرابعة عشرة ـ مراهقة ـ لانني احبك . اتعلم انني ابكي وانت غائب عني ؟ اعد الايام . الساعات . الدقائق .. الى ان تعود . أخاف أن يأخذنك مني .. أن تنساني ؟ »

« لماذا كتبتها وتستطيع ان تقولها لي ؟! للتاريـخ احداث تسجلهـا الوثائق الخطية . الحب عاطفة تتطور او تتحول . العاشقة مثله . امـا الكلمة المكتوبة فشهادة بتوقيع » .

ـ تجعلني رسائلك احس بانك داخلة في ذاتي متمازجة فيّ . انهـا شذا عاشقة تهدىء جموح ظنوني .

★ ★ ★

بينما ينتظر عزيز عبد الرحمن الجواب من الصحراء ليسافر، اقترحت عليه زوجته الرجوع الى امين الاسود ـ لا . لن يرجع .. يقول لها .. ماضيه لن يطرحه في الوحل .. ان اصغر حرف من مبادئه التي عاش لهـا عمره وأعطاها ذاته لن يسقط ..

والمرأة المتمرسة بقساوة ظروف زوجها ـ تلح عليه ـ حيث الامـان وقربه منها ومن اولادهما .. ثم لا تجد كلاما تناقض به موقفه .. بالرغم

من عذاب وفقر جلبهما نضاله لبيتها .. لم تتذمر يوما . من يحمل رسالة عليه ان يؤديها بامانة . ترى فيه بعضا من سير الانبياء والرجال العظـام الصابرين .

ما همه اذن أأتى الجواب ام لم يأت .. مكانه محفوظ . سيودع رائد العالم قبل ان يغادر طرطوس . ولما سأل عنه اجابته مريـم بانها لا تعرف اين يكون .. وتتساءل هي في نفسها عن السبب الذي ادى به وبها الى هذه النقطة من اللاتلاقي ؟...

في صندوقه الحديدي بطاقات منى ورسائل هدى . في رأسه ـ وهو يصعد الى شقة منى ـ ان المرأة الناضجة لا تغيّر مواقفها ولا تتقلب في عواطفها كما اوراق الكتاب في مهب الريح . تعرف ماذا صنعت ـ مـاذا تريد .

بسمة سعيدة . لهفة وعتاب لغيابه . رجع محيي آمالها فرجعت اليها سكينتها .

ـ منى . حبيبتي . انت بحر هادىء يمنح السمـاء سحابها المطر . لولاك لظل لي العالم سجنا .

ـ حبيبي . أين كنت ؟

ـ سهرت امس حتى الصباح . ووعـدت جوهرة بليلة قمريـة . لا اخجل من الماضي وأخاف من مستقبل لا ادري ما يكون .. تلـك الليلة الموعودة شيء من المستقبل . منى ـ وهو يتفرس في عينيها ـ انت اكبر من ان تثيرك اعترافاتي . أنت وانا ـ منى ـ ايامنا الآتية .

ـ رائد حبيبي .. انت وانا .. ايامنا الآتية . اما تلك وليلتها القمرية فغريبتان .

ألقت برأسها فوق صدره . فطوقها بذراعيه يحميها . خدهـا ملتهب كذهب يحترق . تشده اليها . تطوّقه . لم تعد تقوى ـ تقول له ـ وتراه في نومها وفي يقظتها .. تريده وتخاف . وهو مثلها . يربأ بهـذا الحب الخارج على القانون . ان يصير عاديا .. جنسا بين رجل وامرأة ـ يقول لها ـ وانه كان يستهويهن ـ اذا ما تمنّعْن بالهدايا والمال . ويخرج من

فراشهن متقززا •• ما الحب ؟ ما الجنس ؟ اذن وما الفارق بينهما اذا كانا ممارسة في الفراش ؟•

ــ أنا لست أخلاقيا • انما لي مبدأ في الحب •

ــ الحب العذري •• لا شيء غيره •• الحب للحب فقط •• اذن ؟

راحته تلامس ظهرها الناعم وخصرها الدقيق • اضلاعها تحت بشرتها كأنها الاوتار• أنامله تعزف فوقها نغم الرغبة• تـصـعّد من أعماقها تأمات• ما برحت يداه تتكشفان فوق جسدها نقاط اثارته •

في كفيه مباذل ماضيه • نساء تنقلن بين ذراعيه • حواره الغزلي مــع جوهرة في ليل اجنبي • تهم مريم المتتالية •• لا يبالي • فالقهر هو القهر • اتت به ساعات الحرمان حفاظا على الفضيلة او ساعات الفجور مع مومس•

تفقد الحياة جدارتها عندما تغص بالسخف • بالحمق • بالفضائــل الهزيلة • مضى زمن التحسر على الاشياء • الكأس سلاح ضد القهر ــ تتلوى بين ذراعيه • يلين عناقها له • لا تستطيع اكثر ــ تتلاشى ــ تطلب منه ان يوفرها سيغمى عليها • شاحبة تقول له : لا اتحمل اكثر •• دعني ارجوك ــ ويضيع العمر في النسيان ــ افلتها • وما تزال مستندة اليه ــ الحدود ومنى • جميعها قيم وحقائق • لانهما وطن الرجل • ويأتي معهما العذاب •

(ــ لا تدمري ذاتك • هدى •••

ــ أنت تدمّرني • حبي لك سيهلكني وأنت لا تبالي بي •

ــ جوهرة امرأة مفترَسَة من الحياة • قلت لها انها تستطيع ان تعيد بناء ذاتها وقلبها الخرب فآمنت بكلامي واحسبها واصلة الى ذلك •

ــ اذن ساعدني بحبك على بناء ذاتي •

ــ انت زوجة وام ••

ــ أم ؟ اجل • زوجة • لا •

الطريق • طرطوس ــ العريضة الحدود الساحلية مع لبنان •• عداد السرعة يشير الى المئة والستين كيلومترا في الساعة • لاول مرة في حياة رائد العالم •• الجنون بعينه •

مع الليل بلا دجاه

الرسائل المدرسية التي كـان يتلقاها منهن عهدئـذ ، اراد ان يكتب اجوبة عليها فلم يستطع . انعدام الحب في فؤاده جعله عاجزا عن التعبير ، فالقلم اصدق من الادعاء واميل الى جمالية الحبر على الورق ــ لانه ليس شكلا عفويا للتعبير ، بل نتيجة ارادة ضميرية واعية .. تجعله يقوم بــين اصابع اليد .

رسالة هدى اليه ــ الثالثـة في غضون اسبــوع ــ كلماتها مأتميـة اشعلت الورق بعبق بساتين نهبت مواسمها . اشارة الى تخريب قلب عاجز عن بناء ذاته .

مضت بهما السيارة في الطريق الدولي المفضي الى الحدود . جبال طرابلس عن بعد . مكللة بغيوم زرقاء تودعها الشمس .

ــ رسالتك ام بطاقة نعوة ؟ أهذا القصد منها ؟ ام هكذا هو الحب ؟ مع ذلك .. انتصرت يا هدى .

ــ ألأنني الى جانبك وتسير بسرعة جنونية ؟

ــ أنسيت انك تريدين ان تنتحري ؟

ــ اللوحة الى جانب الطريق تقول خفف سيرك .

أوقف السيارة . اطلقت آهة ارتياح وانعطفت صوبه :

ــ خوفي عليك وليس عليّ . لو كنت وحدي ربما كنت وصلت الى غايتي .

ضحك . شمس تتسلل بوهج خفيف الحرارة ، تملأ وجهه بحمـرة لاهبة تبديه عنيف القسمات . هدى تنتظره آسية راغبة فيضحك بثورة ،

كأرض طليقة متمردة على الاتتاج ــ مليئة بالحجارة والوعر • يتمثل فيه الانسان العربي الجريــح الرافض الانسحاق • حامل دماء فــوق صدره وذراعيه يزحف بعناد • الى جانبه امرأة تبكي •

••• « أتعرف يا رجل معنى بكاء امرأة جميلة في مقبل العمر ــ مثل هدى ــ امامك بصدق وحرارة » ؟

قطرات دمع وكآبة وحزن • شهيدة حــب امام محرقة حولها كهــّان اشرار •

همس لها بكلمات • الابتسامة فــوق الدمعة تبرعمت بلــون غريب الاصل جميل • رفعت اليه ثغرها وردة حب ، وعيناها نافذتان بلون صفاء البحار • الشفتان مظلومتان في ظمئهما •• مثلهما شفتاه ــ هو الرجــل الولوع بالنساء ــ قبلة من أعماق حس الجسد • وزحف الذراعين الى الذراعين • تململت وتأوهت وتمسكت به ضائعة ولكنها بــين احضانــه موجودة •

ومع ذلك • لا يعيش لها •• هي هدى سعيد •

(رائد •••

ابدأ بالاشواق التي تحرق ذلك الخافق المعذب • لم افكر يومــا ان الحب سيعذبني الى هذه الدرجة •• يبكيني طوال الليل • يؤرقني حتى الفجر •• واحلام اليقظة تداعبني •• أحلم انك تلملم البرد عن يدي • عن جفني لون السهاد وما تركته هذه الخطوط الزرق حول عيوني التعبى من الشوق •• وتبسم لي تعانقني وترتاح على كتفي الصغيرتين• أنظر اليك فأرى بعينيك كل الحياة التي حلمت بها • سأصبر قليلا لا كثيرا • لانــه ليس باستطاعتي الصبر اكثر • سأعوض لنفسي كل الحرمان الذي عشت فيه خلال هذه المدة فكن على استعداد لذلك • فكري مشتت • حيــاتي عذاب • منى) •

(رائد •••

ان البعاد عنك مر ولا اقوى عليه • اريدك قربي دوما لا ادري لمــاذا بت اخاف عليك في هذه الايام •• اني قلقة جدا ارجو ان تنزع القلق مني

•• اني في الانتظار يا عزيزي وعلى احر من الجمر •• لاول مرة تغيب عني مدة طويلة • لقد عودتني ان تعود بسرعة اليّ •• اني اصبّر نفسي لأسلو •• لقد حرمت نفسي من جميع النزهات حتى الحفلة التي حدثتك عنها • ألغيتها لانك بعيد عني • اني مشتاقة لسماع همساتك وكلمات الحب الحلوة التي تقولها لي • اني لم اصدق نفسي اني ملكتك يا رائد • ملكتك بالحب الذي كنت ابحث عنه • عندما تأتي لن ادعك تصمت ، ستحكي لي كثيرا واحكي لك اكثر ، حظي لا استطيع ان اقول انه سيء • اني المرأة الوحيدة المحظوظة لاني حصلت على حبك • أليس كذلك ؟ انا في الانتظار • منى) •

لا • ليست وحدها هدى ــ وليست المفضلة • لماذا اذن كل هذا التشبث به ، وحياتها معه عرضة للشقاء ؟

★ ★ ★

الصحراء منبت الرجال • ينبوع اسود يسكر الدول • الصحراء عندهم هي النفط • عز الله النفط • وعزيز عبد الرحمن في تلك الصحراء يرعى ــ في الليل الحار ــ النجوم والكوا كب •• وفي النهار من خلل حصوله على لقمة العيش ، يناضل ليخلق عالما •• الانسان فيه •• جديد• لم تعرفه ارض الشرق من مائها الى مائها •

« من يخلق الانسان ، يخلق له كل شيء •• سماء وهواء وماء وترابا وزهرا وسمكة ذهبية وزورقا يجري به في البحار ، ومزودا يأكل فيه وجبة يومه وشجرة ذات ظل ومقعدا يعلمه فوقه فك الحرف وتركيب الكلمات ••• ويخلق له سجنا ، والا كيف سيستعبده ويحوّله الى بهيم مستغل وأداة منتجة » ؟

عزيز عبد الرحمن في رأي رائد يعادل : الغاء الفقر والغاء القيود ، ولهذا يتعرض لفقد لقمة العيش • للقيد في يديه • للعودة الى بدء • ويتحول الحلم الى دعوة تغري بالاستشهاد ــ والحق ؟ يموت ؟ ربما ولد ميتا •

عزيز عبد الرحمن ابن ماض ملأت جنباته السجون . كالارض البخيلة نبت فيها الشوك والعوسج ــ ابن زمن لا يرثه الا لؤماء القوم وانذالهم ، ويمرح فيه المخبرون والجواسيس والنفاثات في العقد والعاهرات والمطففون وكشاشو الحمام والتافهون .

بشاعات كثيرة ما تزال موجودة . بل جميعها ما يزال ينمو . وهمة رائد الآن . ــ وليس عزيز عبد الرحمن ــ لم تعد ناهضة . الثورة صارت رغبة غير ملحة . فكيف ينظر الى قضية عسيرة المخاض اسمها : ثورة عزيز عبد الرحمن ؟

سؤال : على آذان من تقرأ المزامير ؟

هل رائد العالم يجيب ام انه ليس هنا ؟

شعرت منى بغيابه عن حضوره . منذ عصر امس وعلى شفتيه طعم قبل لواهب حرّمتها الشرائع ولعنتها الفضيلة ولم تبطلها . ان شيئا لا يمكن ان يلغي شيئا ما لم يقم مكانه البديل ، وعندما تحل الرغبة الجسدية في كيان الانسان .. حتى الرحمة تخاف وتتوارى .

رائد العالم ليس صريع ازمة وجدان . شيء يتمم المنقوص . قبلاته سدت فراغا في نفس هدى . وجوهرة ــ كأنه نسيها ــ ماذا جرى لها ؟ موعد خروج السجين من سجنه يقترب وما من حل عند رائد حتى الآن . معضلة وليست مشكلة . يحمل عن جوهرة عبأها . والصيف قبل ان يأتي .. ستقتلع العاصفة احسن الاشجار .

فهل مرت بسلام ، العاصفة المرصودة ؟

★ ★ ★

اصيب سعيد عارف بنوبة قلبية ادخل على اثرها الى مستشفى الحكمة الجراحي حيث وضع في معزل ومنع الطبيب المعالج عنه الزيارات . اما هدى فلازمته الى ان منعها الطبيب صاحب المستشفى والذي اجترح اعجوبة انقاذه من موت كان محققا .

وأتى رائد العالم الى شقة منى ، فوجدها عصبية المزاج وعيناها قد فقدتا الوداعة ووجهها كأنه الذهب احترق . وجبينها في هالة شعرها

الاسود كان مرسوما بالعذاب .

غيرة تفجّرت فجأة . شقتها لا تمارس عليه سحرا . هكذا ترى .

ــ ستأخذني الى نزهة ليلية . اختي عندي اتت من دمشق . ستشرف على الاولاد .

ــ لا يا منى . هذا جنون . لن اضحي بسمعتك .

ــ في العاشرة ليلا . أنا بانتظارك . أمين لن يرجع قبل اسبوع .

خرجت بفسطان اخضر ليلي بلا ثنايا ، مسدل على جسمها البديع بانسجام عجيب . نحيلة مراهقة البدن ــ بنت سمراء ناعمة مبكرة النضوج .. يتضوع عطرها ــ مدام روشا ــ فينتشر حولها . اما الابتسامة التي طالعت بها رائد ، فكانت واثقة معتدة . بين انمليها سيجارة تناسب مظهرها المتبرج وتطرد طيف المراهقة لتحل مكانها انثى مجرّبة .

مشت تتمايل . تقاطيع جسمها الفاره . شعرها المتماوج .. سألته ان كانت تعجبه بهذا الشكل ؟ هذه المرأة غير منى البيت الزوجي . غير فتاة الشقة . فتاة الذهب . أجمل الآن . أفتن . أروع .

أنثى غير مأسورة برجل معين ــ هكذا لو تشاء ــ وجدها بالمصادفة. كثيرة على رجل واحد هو زوجها امين الاسود .. فلماذا لا تكون كثيرة على الاثنين اللذين ثانيهما عشيقها الذي اختارته ؟

طرد تشاؤمه وظنه المغلوط .

ــ رائد العالم . انت جميع الرجال . جميع العاشقين . حبيبي .

منتهى التحدي العكسي .. التحذير . أيقول لها : انت لي جميع النساء .. جميع الحبيبات . كل حبي ؟ ستسأله : ومريم . وهدى . وجمانة . وجوهرة .. ما هنّ اذن ؟

في السماء قمر خارج من الشرق لم يفقد دربه . يعكس عن غيره ما ليس فيه .. يصعّد في القبة المجلوّة العتمة . حبيبات من نور ازرق ترصع المنديل الذي لم تتسع له صدر حبيبة واحدة فتقاسمته كل الحبيبات ، واهتزت افنان في شجر الطريق حطت عليها طيور ليلية بصمت وتوجس .

ودت لو تراها هدى وجميع الغريمات الى جانبه في السيارة فتنفث دخان سيجارتها في عيونهن وقد لفت ساقا فوق ساق ، ومالت اليه بجذعها الرقيق . وجهها مسحور . لا واقعي . كوكب دري في غربي البحر . نجم في الشرق . ثريا الجنوب نثارها حجارة لماعة في كل الجواء .

سماء فيها عيون منذ الازل ترصد ما يجري ولا يعبأ بها احد . كـل الحجارة الكريمة .. ياقوت . زمرد . فيروز . تتناثر على موكب اثنين يشق درب ثورة مجنونة . مشهد رومانسي في مدينـة خارجة مـن قشرة قرية . غير مقنع . غير منطقي . لم يسألها : لماذا ؟

يخطف اليها نظرة بعد نظرة . ملتحمة به . طال بينهما الصمت فـلا حديث الا ابتسامات راضية يتبادلانها ، فيزداد تلاصقهما .

اسوار ليل ازرق قامت اشجار الزيتون على جانبي الطريق ، صوت أحسن من غنَّيْن في كل عصور الانسان .. كخمرة عتقها الزمن فرحا واطلقها نشوة تسري فتلاشي العنف والالم .

(الحب كله انا حبيتو فيك وزماني كله انا عشتو ليك .)

الشوق في عينيها . الهيام في شفتيها . اذكاهما معبودها ، فـلامست بيديها ساعده وقبلت خده .. الظمأ . ومررت شفتيها فوق ذراعه ..

وصعد البدر في معارج السماء دربا لا عثار فيها ، مفتوحة بغير حصون ولا اسوار ــ ارض العرب مثلها ــ لا تمنع دخيلا ولا ترد فاتحا . بستان بلا ناطور .

طفرت طيور عن شجر الطريق ، مخلّفـة في الاعشاش فراخهـا .. ستنمو يتيمة الى ان تشتد اجنحتها .. بقهر . من يدري ؟ او تعرض ــ في يفاعها ــ ظلامتها على مجلس الامن . يا عيب يا ذل .

أناملها التقت بأنامله تتبادل القبلات . آهات من صدر المرأة العاشقة بلا تجارب . الحب ــ هو هنا . فيهما . مثل روح قدسية . فـارق بـين الانسان ومن ليس انسانا .

لا كلام . حديث القلب للقلب .

عمل ليس عاديا في هذه المدينة . يولد مصادفة بلا مقدمات . رجـل

وامرأة يتحابـان • يقطفان الثمرة الفجة اللـذيذة • الوجـود لهما منشأ طبيعي • لا وطن هو ولا قانون • ولا دولة لها مدرسة تعلم الوجـدان وسجن « يهذب النفوس » •• تلقائية حب بغير زخارف • مال • وعي • فضيلة • خلق من اللا قصد •• بغير أب ومن غير ام • غلب الجفـاف • النار • القهر • الدستور • هموم الحياة •

كالاعجوبة ولد وكان واتى بمجد كبير متمرد •

وحنت اغصان الزيتون على الدرب • وثمار اللوز كحبات نـدى • أشواك تَخِذ خواصر أرض سوريا•• البطن الخصيب بالتوائم،وجراحات نازفة • تفتح صدرها للسماء •• للاحلام • تنادي الطيور الهائمة لتعود• لتحترق الاشواك •

(يا دنيا • حبي وحبي وحبي •• الدنيا هي الحب وبس) •

★ ★ ★

استقبلهما صاحب ــ متنزه السلطان بالترحاب وعلى وجهه ابتسامـة طيبة • اين يريدان الجلوس • فالمناخ دافىء ميّال الى انسام باردة ؟ في الشرفة •

ــ لكنكما في الشرفة ستتعرضان لتيار بارد • ولعل امطـارا غزيرة ستهطل • وعاصفة ستهب • بل بالتأكيد ••

ــ في مثل هذه الليلة وهذا الصفاء ؟!

نكتة بلا شك • ابتسما • العجوز ربما يتصور اشياء من غـير وحي الواقع • احضر لهما الويسكي والمكسرات • مـا من خادم ــ لم يفتـح المتنزه ــ المطعم بعد لرواده • الصيف في أوله •

المدينة بدت بساطا من عيون النور المتلاصقة المتخاطفة وقد مدت على الشاطىء جناحيها •• وكأن السمـاء الساحرة بنجومها وحبات الزمـرد اللماع •• ملاءة منشورة فوقها •

لا يهمها في هذه اللحظة شيء من هـذا ولا ان التطور عمل ابـداعي وثوري في المدن والناس • لا يصح لاي كان ولا لكاتب ان يزج بقلمه في

المعاني الناجمة عن هذا اللقاء الغريب في مدينة كطرطوس ، ويدلي برأيه في سلوك هذين العاشقين .

أهو الجنون ؟ في حكم المقاييس ثمة لهذا السلوك نعوت . سير ضد التيار . وقوف في وجه الاعصار . تحد يائس . هروب .. الا ان الامر وقع . ولا شيء يهمهما . واكتشف رائد العالم ان ثمة خمرة غير معتصرة من نبات . تسكر وتطيش اللب . وتجرف الى غير المعقول وغير المألوف.

« زوجان اتيا ليلا يبحثان عن سعادتهما — قال السلطان في نفسه — أثمة في حياة الانسان مثل هذا اللقاء دائما » ؟

يستقطر من سبعين سنة مرت عليه بقايا خيبات . افراحا . لو يحصى الناس بمآثرهم لقل عددهم .. او بساعات سعادتهم لكانوا اقصر عمرا من الذباب .

الحديث بينهما دافيء . النظرات تنوب عن كلام الشفاه اذا يتعطل . تتلامس ايديهما . تتعانق لا تنفك . ذراعها فوق كتفه . ذراعه حول خصرها يداعبه يتلمس اضلاعها الاوتار تحت بشرتها الرقيقة الزلقة. تميل اليه بوجهها يقبل شعرها العطر .

حدث فجأة ما لم يكن في حسبانهما .

اهتزت الاشجار وخشت . وفي السماء لملم عارض المجوهرات معروضاته اللماعة ، وهرب بها من الغيوم المداهمة وتوارت المدينة وراء استار المطر ، وأتى صاحب المتنزه ونقلهما الى الداخل .

ظلت تمطر حتى وقت قريب من الفجر . ورياح خارجة من البحر كأعتى العواصف تزأر وتهدر .

وعندما راحت الامطار تعلن انتهاء اجلها . وصلت بهما السيارة الى البناية . ونزلت منها منى لتجد اختها غاضبة ناقمة . ما هذا بعمل امرأة عاقلة .. لا بأس . قد صار وستنام فالنعاس يرنحها .

تمددت شبه عارية بفراشها — وهرب منها النوم . كم ترتكب المرأة من حماقات فقط لشعورها بان لها الحق بالتمرد ؟! ايستحق الحب ان تضحي المرأة من اجله . واين في مدينة تحصي على الناس انفاسهم ؟

ليلة بكاملها وهي ملتصقة به لم تجعل منه رجلا يشتهيها • ثارت عاصفة برّدت المناخ ولم يتلمس الدفء عندها • أيجهل ما تريد العاشقة غير مرّ الراحتين حول الخصر والساعدين ؟ ومنى بالذات ؟ ألم تكن من الفتنة بمقدار يثيره ؟ حتى العجوز السلطان افصحت نظراته عن اعجابه بجمالها •

خاطرت • تعرف ذلك • بعد ان لم تصنع شقتها الاعجوبة ، تتسول قبلة • أهذا هو حب الرجل لامرأة من وزن منى شاكر ؟ حرام والله كل هذا الاذى !

غادرتها اختها عند الظهر الى دمشق وظلت منى وحدها الى ان جاء رائد فوجدها منقلبة التقاطيع عصبية المزاج غاضبة • وعندما غادرها شعرت برغبة في تحطيم كل ما حولها من اشياء •

وفي المساء اتصل بها امين الاسود من دمشق بالهاتف ليقول لها بانه سيتأخر بالعودة • فلا تقلق عليه ، فاعلمته بحادث سعيد عارف وانه ما يزال في المستشفى وقد نجا من الخطر بأعجوبة قام بها الطبيب صاحب المؤسسة •

★ ★ ★

في مستشفى الحكمة الجراحي التقى بهدى ولمح شحوب وجهها ومسحة حزن عليه ، لا يظن انها شقية لمرض سعيد ـ صارحته ـ فهي تكرهه ولا تكن له الآن غير الشفقة •

ـ انت حزينة • اراك • الحزن يميزك بالشعور •

ـ لست حزينة عليه فهو جعل يضايقني مؤخرا بغيرته ••

ـ ما غيرته عليك الا لشعوره بما انت عليه من صبا وفتنة •

ـ هل تراني هكذا وتعاملني أسوأ معاملة ؟

ـ اننا نلتقي • أليس هذا يحدث بين وقت وآخر ؟

ـ هذا لا يكفيني • رائد • انا شقية ووحيدة الآن • هل تأتي الى شقتي ليلا ؟

« المرأة • المرأة • المرأة » •

ردد الكلمة ، فالترديد يعمق المعنى • يكشف عن المضامين •• اما هذه فلا شيء يفك رموزها • وستظل المرأة في حريتها المكتسبة تسلك سلوكها وهي في القيود • أعذب كلمة •• المرأة • أكذب كلمة • اسعدها اشقاها •

دخل ملهى ــ الديك الذهبي ــ وما يزال متجهم الوجه وركز نظراته عليها كأنه يدخل الى حقيقتها • فخافت • سينفجر غاضبا • مالت بوجهها الى الجدار فشاهدت الديكين المرسومين في لوحة فنية مضاءة احمرَّ عرفاهما وهما في عراك •

ــ اعذرني اذا قلت شيئا لا يعجبك •

ــ قولي ما تشائين فانت من انت لاصدق منهن •

ــ انا من انا ؟ واقول ما اشاء ؟

ــ انت يعسوب ليل ملون • خضراء الدمن • صاحبة حرفة الجسد • الحرفة هذه اضعها مقابل اية حرفة شريفة فتتساويان • لا تحزني • في القديم كان البغاء والعبادة يمارسان في هيكل واحد •

تناول جرعة افرغت كأسه :

ــ المجتمع المزيف القائم على اخلاق مزيفة • ينهض على جثث الغانيات والجوع والنفاق والفقر • يرفض شيئا من خلقه وثمار قوانينه • انت نتاجه • فهو فرزك • مع القرارات والافكار والبغايا •

موسقت جوهرة • بدت جميلة • اناملها قادرة على توزيع دفء عاطفي • شعرها يذيع سر عطر خفي • آلة الغناء الغربي تدور •

« ما الفرق بين رجل وامرأة ضمهما فراش • الواحد من فوق والواحدة من تحت ؟ الموضع • ذلك هو الفارق الوحيد • واذا كانت هي بغيا فهو مثلها • واذا كانت عاشقة فهو عاشق » •

(اعطني حبك وابحث عني في مرآتك • اني قطنت عينيك كالسمكة في بحيرة • اجعلني شمعة فالموت سيطوي الايام المضاءة بالشمس • وستفقد العيون جمالها ، وتبقى الصخور وحبات الرمل وقطرات الماء •• تتلاصق • تتحابب • تنجب خلودا • اعطني حبك وابحث عني في عينيك •

ادفء صدري واجعل من جسدي رمز اشواقك • قطرات الماء تتمازج فاتحد بي كما اثنتان التحمتا) •

تشردت همومه • تناول راحتيها • دافئتان مثل حبة كستناء انضجتها نار هادئة • انبسطت اساريره وابتسم •

ـ رائد ••• ـ رفعت كفها الى شفتيها ـ اعتذر •

ـ لا • لا • ليس جميلا ان تخاطب المرأة الرجل في مثل هذا الموقف بغير اسمه المجرّد • تابعي •

ـ امس البارح • حدث شجار كاد يودي بمحتويات الملهى •• والسبب خلاف على نوع الويسكي •

ابتسم رائد العالم بقهر • حضارة الترف والاختيار والاختلاف والشجار •• يتزاحمون امام الافران ويتدافعون بالمناكب حتى قرب ظهر النهار ، ليحصلوا على كيلوين من الخبز الاسمر الرديء • ويتقاتلون من اجل نوع الويسكي الذي يشربون •

« دنيا مليئة بالغرائب » •

ـ احسن حب أتدرين ما هو ؟ ولك سوار من ذهب مطعم بالالماس • او سهرة معي في ضوء القمر •

ـ يبدو انني لن اربح فالجائزتان كبيرتان •

ـ اشحذي ذهنك يا فاتحة القواميس على المفردات ولك خمس دقائق •

وقف وتنظر البحر المظلم وسرح الى بعيد •

ـ حب الام لاولادها •

صاح بغضب :

ـ بئس ما علمتك الكتب •

ـ بي شوق اليهم •• اولادي •• احبهم وسيأتي يوم فينتزعهم مني •

مر الحب في موكب • بطلاته لا يحصين : عشتروت • بتشبع • تامار • امرأة العزيز • المجدلية• كليوباترا • العامرية • العباسة • ورد الحمصية• جوليت • ديدمونه • كارمن • ايزاورا • هدى ••

ـ احسبت جوابا كهذا يحتاج لخمس دقائق ؟
ـ لم ارهم منذ وقت ...
ـ حب الارض الام ـ الوطن . حب لا تخون فيه المرأة الرجل ولا الرجل يخون المرأة . الارض والوطن شيء واحد . لا يخون .
افرغ كأسه بقهر وغيظ . وما لبث ان ابتسم . ومع وثوقها من اخفاقها رجته ان يحقق لها مطلبا فقال :
ـ بل لك مني مطلبان : حل مشكلتك او سهرة معي ليلية على انفراد، فاختاري .
لم تختر . فالحيرة .. أيهما وكلاهما تريد ؟ ألا يحق لها طلب الشيئين؟ مترقب . ظالم . ذروة لا تطالها هي . وللاخريات فيه حقوق .
ـ اختارك انت .
ـ جننت . واولادك وسلامتك وهو سيخرج من السجن . جوهرة . انا لا احب امرأة لانها امرأة وجنس . انا اكره اكثر مما احب .
ـ حتى ولو كنت تكرهني .
هو المغلوب . يعترف . تصفق فرحا . تنظر الى ساعة يده . الثانية صباحا . دنا موعد خروجها .
وهذه ليست اقل جمالا من المعدل الوسط للانثى في الفراش ـ يفكر ـ المرأة بالتأكيد جميلة عندما تحب . عادية الجمال عندما تسلو . قبيحة عندما تكره .
أطفئت اضواء الشرفة . البحر اوسع . طليق . هدى .. دموعها . دعواتها . جمانة هل نجحت في الامتحانات المدرسية ؟ صابر يحوم حولها صابرا مثل ايوب يوم المحنة . مريم مشغولة بزفاف حنان .
ـ جوهرة . حب الارض ـ لا تنسي ـ هو الابقى . سأعطيك سوارا من ذهب .



أزمة طبعت الناس من حيث لا يدركها الا اذكياؤهم . ومن لا يدري

قال « كف عدس » في الحكمة الشعبية كـانزة المحتوى • مواد غذائيـة مفقودة • ازمة خبز • افران بدائية لا تكفي لحاجات الناس • فقدان العناية الصحيـة • تحولات اجتماعية غير واضحـة • بلبلة • جمـود • صعوبات • لا يبدو ان هـذه الحالة ستخلق مجتمعـا افضل • المطامـع الفردية لم تتأثر ولم تهن • ظلت جشعة ومفترسة •

اما المواد المفقودة فلا تجبر الناس على شد الاحزمة • يستعاض عنها بغيرها • وشد الاحزمة قديـم قدم التاريـخ • ان يحيى بن زكريـا شد حقويه بحزام جلدي وسار في البراري يتبلغ بالجراد والعسل البري • يدعو الى تحويل المجتمع الى افضل ، فضاع صوته في البرية ورأسه فوق طبق رقصت به بغيّ من اسرائيل •

في العصر العلمي ـــ الحضاري • التقشف وصفة طبية لنقاهة الدول • والانسان يطور الصناعة والزراعة والعلوم واستخراج المواد الكثيرة من النفط • والى ان يتطور المجتمع نفسيا وعقليا • تمر ازمان على النـاس وهم مختلفون على نـوع الويسكي • يحطمـون المـوائد والاقـداح ويتقاتلون •

اما الشيء الاهول فشد الحزام على خصر الحرية •

ليس الجوع الآفة ام الآفات • الاقفاص يدخلون اليها المواطنين كمـا لو كانوا قرودا يمارسون فيهم نشاطات كثيرة : ضرب • قلع اظفار • تحطيم اضلاع • تهشيم اسنان • نفخ بطون كالزقوق •• وفنونا اخرى متقدمـة في مدارس مثل : الواقعية • التجريدية • السريالية • الدادائية • اساتذتها الحجاج وابن الزيات وزبانية النازية وورثاؤهم العصريون •

وتمارس فنون القمع بابشع صورها •

واذا تلغى في الدول العربية ومؤسساتها وسجونها ، حالات القمـع والتعذيب ، ويحل محلها حق الفرد بالدفاع عن نفسه فـلا بأس • حتى الجوع لا يخيف الانسان المواطن • يعرف كيف يكسب عيشه فلا يجوع ولا يظمأ ولا يعرى •

التحولات الثورية لا تستلزم القهر والتنكيل الوحشيين • يكفي ان

تكون صادقة الاساس غير مغشوشة القواعد ليتقبلها معظم الناس ويرضى عنها سائرهم • لكن ازمة النفوس في دائرة الفرد فعرفتها : منى • مريم • جمانة • هدى • اما جوهرة فهي مثلهن في الالم • لكنها ـ النثر بالنسبة للشعر ـ لا يحق لها ما يحق لهن •

★ ★ ★

بعد اسبوعـين خرج سعيد عارف من المستشفى مـزودا بتوصيـات الطبيب البارع : عدم الاهتمام بالامور جميعا • الانقطاع عن العمـل • الابتعاد عن المؤثرات العاطفية •

انكر انه متأثر بشيء من الحالات العاطفية فابتسم الطبيـب صاحـب مستشفى الحكمـة الجراحي • واكـد له ان التأثرات العاطفية متعـددة الخصائص • (وتحبون المـال حبا جما) مما جعـل سعيد يفكر في باله بانه سيعوّد نفسه على هجر هذه العشيقة الخلابة الحسن •• الصفقات المالية •

اما هدى فيغار عليها • لا • لن يغار ، فلتذهب الى الجحيم • ولتفعل في الخفاء ما تشاء • حياته هو هي الاهم والاثمن •

وضعته هدى في جو بيتي محايد • لا ضوضاء تصل اليه ولا حركة • عزلة نقائهية مثلى • وجعل يفكر بأنه قد صار أقل وزنا • أقل شبابا • اقل عزما •• وخطرت بباله نكتة جاحظية رواها له رائد من قبل ، تنطبق عليه الآن بصورة مأساوية ، فبعد ان اطعم المشفى والمعالجة بعض مالـه ، صار اقل غنى •

ألف غرفته حتى صار المألوف بغيضا • يتفرس في جدرانها الاربعـة وسقفها • في السقف ثريا كبيرة من الكريستال • عد مصابيحها • زخارفها وريقاتها • نقوشها • على الجدار لوحة معلقة •• تقاطيعها • ألوانها • ظلالها • اطارها • للنافذة ستارة • لونها عنابي غامق ـ شفوفها سكري • ثنياتها منسجمة • طاولة الزينة ـ المرآة • قـوارير العطور ـ الخزانـة الكبيرة • ابوابها نقوشها • السجادة الفخيمـة • رسومها • الوانهـا • مقطّعاتها الزخرفية ••

كل هذا ألفه حتى الملل . كلفه مالا لو وظفه في الربا لعاد عليه بربح كثير . لكن ماله يفكر بالمال ؟ أليس هو ـ كما قال الطبيب البارع ـ بعض تلك المؤثرات العاطفية ؟

يعذبه مشهد ويؤلمه من غير ان يمله .. هدى ، وهي تخلع ثيابها امام المرآة وتضعها قطعة قطعة فوق الكرسي وتصبح متجردة من كل رداء شامخة الصدر طرية الاعطاف بارزة تقاطيع البدن . او تبدو لعينيه الجائعتين بالحرير القصير الاذيال . تسرّح شعرها، تسوي هندامها . تضع الماكياج . الرتوش .. شعرها يتأرجح . ساقاها الرشيقتان . فخذاها اللدنتان .. عيناها تبرقان بزرقة صافية .. شفتاها . نهداها .. بياض صدرها .. ردفاها ..

تدب في جسده روح جديدة . تهزه رغبة مقتحمة وقد شاهدها وضعت قدمها فوق الكرسي تسوّي جوربها الشفاف بلون اللحم على فخذها المليئة . صدرها مكشوف نهداها متحفزان ليقفزا . مضغوطان بغير قسوة في حمّالة اللهب . ترش العطر فوق بدنها . تحت ابطيها . بين ثدييها . فوق عنقها . تضع الاحمر فوق شفتيها .

« لولا هذه المرأة ما كان هذا الترف المكلف . ولا تحس بي وما تثير فيّ .. الترف ـ الآن ـ لي المرأة لا » .

لم يستخدم ممرضة . وفّر ماله ـ والتمريض فن وعطاء . ـ كما في الدعاية ـ فلتعط له بعض ما يرد عليه عافيته . ناداها فدنت . تلمس بعض بدنها فنفرت منه وذكّرته بتحذير الطبيب ، فارتد غاضبا مستسلما وهي تضحك بخبث .

في نفسها شعور بالالم . التألم اصيل ـ بل هو الالم يستيقظ مندرجا في الشفقة والتوجع وحس الضمير . نظرية . اما ان تألف المريض في مرضه ووضعها حياله .؟! تزهو في زينتها وهو مستلق كالميت . تحب ـ هي وتعشق ـ وهو ممنوع عن قطف ثمار الجنس ؟ تقابل عشيقها ـ ترضي رغباتها ، وهو في فراشه ؟ لماذا ؟ بل ما المانع ؟ نها الحق بان لا تموت معه .

★ ★ ★

حنان في فرحة العمر . ووعد ابيها بزفاف احتفالي رائع يتحقق . وما يزال ابوها غائبا حاضرا يبذل المال بغير حساب .

نظرت مريم اليه . ايام الصبا . الزمن الحلو . الحب يشد بين القلبين .. تسقط نظراتها في الفراغ . حرقة واسى . تود في بعض المرات ..

(دفعها شوقها القوي فعانقته . نظر اليها ببرود واستغراب . « ما بالعادة » . جاءت حركتها العاطفية غير عفوية . انكفأت المرأة التي ارادت استعادة زمنها ومكانها . وشاهدتها ابنتها تبكي فعانقتها .

ــ تبكين يا امي ؟ لم يعد البكاء على خروج العروس مستعملا في ايامنا .

ــ اجل يا ابنتي فانت ستذهبين . وانا من جيل الماضي .

ــ بل انت ست الجميلات . انت ، من الجيل هذا يا امي .

لو كان الكلام منه لكان حبا وغزلا ، يحمل اليها العزاء) .

وفي شقة منى هرعت هذه الى الهاتف . صوت امين الاسود . سيتأخر بالعودة مدة اخرى . تأزم موقفه . التحقيق باسباب انهيار بناء المشروع الكبير ما يزال جاريا . وكل محاميا ولا يستطيع ان يعمل الآن له شيئا .. تركت السماعة حانقة مظلمة القسمات . الذهب في وجهها احترق . ستنفجر . واحدة اخرى اضافها رائد الى العدد .. اسمها جوهرة .. وذاك بدمشق .. سيان عاد ام لم يعد ــ الى الجحيم .

ــ منى . حبيبتي . لا اريد ان تتعذبي ــ ثقي بي .

ــ كيف لا اتعذب وانا اغار عليك .

صار بعضا من كيانها ــ في عقلها والذكرى المترددة . اعاد اليها اعتبارها العاطفي .. انثى مخلوقة من بين يديه . فاتنة . انيقة . صنعها من جديد حبها له . والقلق اتى . فهن يدرن حوله كأنه كعكة العيد يحاولن قضمه . وهي منى باعترافه وتأكيده ــ حبيبته الوحيدة .. وعذراء بين يديه لم يمسها .

لماذا الغيرة ؟ واقع الامر .. ان هدى زوج لعجوز بشع متهدم . هي لهب وهو انطفاء . نالت منه مالا فقط . وظهر رائد في دنياها .. وان لها

فيه حقا بالتعامل والاسبقية . مثلها جمانة وجـوهرة وربما اخريـات لا تعرفهن .. وربما ينكرن جميعا عليها الحق ــ هي منى ــ بـان تكـون الوحيدة .

الغيرة . اجل ــ الانانية في شريعة الزمن الانساني ــ الالكتروني هي الكرويات الثالثة في الدم الى جانب الحمر والبيض .

الماضي النضالي علمها ان ترتفع على الانانية .. لكن انه الحـب .. حياتها . هل ترفضه ؟ أيرفض الجسم كروياته الحمر ويبقى ؟



حب التراب للمطر

من رسائلها هذه السطور ٠
رائد ٠
لا ادري لماذا بدأت اكتب هذه الرسالة ٠ تساءلت كثيرا عن السبب ٠ أهو الحب الذي يكبر ؟ ام الشوق الذي يهزني ؟ ام الغيرة ؟ اظنه الاخيرة٠ التقيت البارحة بهدى بعد انقطاع طويل ٠ حييتها وتطلعت اليها بتحـد ونظرت هي اليَّ بغضب وتركتها وشعرت اني انتصرت ٠ ضحكت كثـيرا وانا في البيت وحدي وتمنيت ان تكون انت بقربي لاشد على يدك واقول لك استطعت اخيرا ان اواجهها ٠

رائـد حبيبي ٠ حبي لك ليس موقتا ٠ انـه حتى النهايـة ٠ اتذكر الحـديث الذي دار بيننا وكنت أجاوبـك على كل سؤال بلا مواربة ؟ كنت انا الخائفة منك ان تتركني في الطريق واذا بالعكس ٠ انت الخائف ٠ لن أدعك تكمل المشوار وحدك ٠ يدي بيدك حتى آخر الطريق ٠ اني اعتز بك يا رائد وكم اتمنى ان احمل اسمك لاكون فخورة ٠

هل يأتي يوم لاقول انا التي احبت رائد العالم ؟ وانا التي اعادت اليه شبابه عشرين عاما ؟ لا ادري كيف اقضّي الايام وانت بعيد عني ٠
منى ٠ حبيبتك ٠

انفتح الباب قبل ان يقرعه ٠ وقف جامدا ٠ القاعة بلا نور ٠ النافـذة مغلقة ٠ الستارة مسدلة ٠ صمت ٠ كل شيء بغير حراك ٠

رهيفة ٠ نحيلة بلا حرج ٠ مرخية الشعر الاسود ٠ محلولة الخصلات ٠ جمتها السلسة التسريح بلا رتوش ٠ ترخي فوق جسدها غلالـة تحتهـا

شفوف . وعنقها اطل لناظريه بدعا يحمل وجها غريب الملامح آسرا . عيناها فيهما الضوء الوحيد . في القاعة . سهل صدرها لطيف وديع بان ثدياها تحت الرداء مثل اجاصتين نافرتين .

ارتعشت شفتاها كيوم قبلها اول مرة . وبدنها ارتجف .. وهي امامه امرأة صريحة لا تخفي نفسها وما فيها . واضحة تقاطيع الجسد ، كأنها خرجت من الحمام على عجل فرمت فوقها اول غلالة حريرية صادفتها .

دنت منه . رفعت اليه وجهها ، صدرها ارتفع . ثدياها كعصفورين في السهل المنبسط يتنفضان . يشرئبان كرأسيّ حجلين فرخين ينقران وريقات الكرمة الزاحفة . يتحفزان تحت ردائها الرقيق لينفلتا بلا قيد .

ساعداها . سمرة نحاس مجلو باعتناء . واناملها عصبية تسلقت ساعديه الى ذراعيه . الى كتفيه وعنقه ، بملمس ناعم . بدفء . بارتعاش — والتفت ذراعاها حول كتفيه وظهره واستكان صدرها الضاج الى صدره .

عيناها السوداوان مستقرتا النظرات في وجهه . بدتا رماديتين مغريتين ذابلتين كأنهما سكنتا عن الحركة الا من نداء صامت واعد ومستغيث .

استتب رأسها الى صدره . ضاعت الاضواء . استوت بالظلمة في نهار بلا شمس وقاعة بلا شباك وستارة مرخية وهو يحتويها بذراعيه . ينقل يديه في منعرجات الجمال البدني لا تستقران بمكان وتتركان فيه الرجفة اللذيذة . وتحركان فيه الكامن من غريزة النار البشرية ، التي تصطرع مع الجمود وتغلبه .

يدب في اطرافها تنميل بدنها المثار يوقظ كل عرق يفتح كل خلية يحرك كل خامد فيه . تهمس باسمه بترديد .. فيه آهة عطرة تسكره فيتنشق حرارة عنقها وأعلى صدرها . يلثم لثّاتها السمر الفوّاحة . بدن حار كالحمى . كالنار .

اي سؤال بليد هذا ؟ السخف في الكلام وما من مرة كان في الصمت. صاحت بألم :

— قبلني كما تقبل امرأة تشتهيها .

اشتدت أناملها ضغطا فوق ظهره • تصلبت ذراعاها ــ في حالة ارادة لا سابق لها عملت فيها غريزتها وشوقها ــ اتفكا عن عنقه ، لامسا بدنــه بكل ما تملكان من قوة • تريد ان تندمج فيه • لا تعرف كيف • ورفعت اليه وجهها • ليبدأ هو • ليصنع بها ما يشاء • لا تدري هي من اين تبدأ •

مال بوجهه عنها • لن يحدث شيء • ابتعد • ابعدها عنه ، وقد ضاع الزمن لفترات وجيزة كانت كافية لتجعل منــه انسانا بتكــوين جديد • فنفض ــ وهو يتطلع في عينيها فلا يرى الا جسدها الذي تحولت به الى كل شيء كأنها هي ارادت ان تكون بدنا لا روحا ــ بتلقائية ، مفهــوم وجوده وكل عقلانية الوعي السلوكي •

كم مرة في العمر يحقق الانسان مثل هذا الموقف وهذه الحالة ؟ كم مرة يصل الى هذا اللقاء النادر ؟

يده بيدها • اجتازا مدخل غرفتها منساقين بعفوية لا تديرها عقلانيــة متحكمة • حالة ــ هما فيها الآن ــ طبيعية جدا • لا بديل لها • لا بشكل ولا بآخر • في مثل هذا الوضع الانساني المناهض للقوانين •

استقرا في الغرفــة المعتمة وتباعدا قليلا تربطهما الــى بعضهما بعضا يداهما المتماسكتان •• اليدان ممتدتان • تقاربت المسافة • عيناها فقدتا الحركة جامدتان ناظرتان اليه ويده لفت خصرها الدقيق • تأوهت ساعة استقرت بين ذراعيه وتملمت اضناها شعورها الطويل بالمقاومة وهــي في قرب استسلامها •

لا ترى سوى غاية يمضي بها اليها وشفتاه تهمسان لها بما لا تفهم ولا هي واعية له ــ غير الهوى ولذاذات جسدها المنفتح لتقبل جسده • وفوق عنقها الرهيف الناعم البشرة تلقت شفتيه فتحشرج صوتها واهتز كل بدنها وتسربت آهاتها الشبقة الى سمعه وراحتاه المتمرستان بالحب تــلامسان صدرها تمسحان فوق قاطنيه الصغيرين المحرومــين وقد افسح عنهمــا رداءها ، يدغدغ ذرويتهما فتكاد تجن •

وزحفت شفتاه الى ما بينهما تقبلان بمثل المسح والشم بشرتها المتوترة وتدغدغان البرعمين الاسمرين فلا تملك عنهما دفعا • تختلج بــين احضانه

واهية واهنة • وهو يسقط رداءها :

ــ رائد • ارجوك • دعني • لا استطيع اكثر •• سأمــوت او يغمى علي •

ضمت اليها غلالتها فاخفت صدرها ، واخذها الى سريرها فاستلقـت وجلس بقربها فأمسكت بيديه مستنجدة ألا يتركها • وتحركت صوبه وانكشفت ساقاها حتى اعلى ركبتيها • فلامس شعرها بأنامله ومر بهــا فوق خديها وشفتيها فقبلتها قبلات محمومة •

انهضها حتى جلست فضمها اليه • وضاعت بين يديه وغرقت شفتاها في شفتيه • وعادت بجسمها الى الوراء فانحنى فوقها ، مغمضة العينــين •• ووجهه استقر في صدرها • وشفتاه تتنقلان من عنقها الى ثدييهــا في دربهما لاشباع هذا الجسد المتلظي المحروم •

وامتدت يده الى ركبتيها • تفرك فوقهما وتنزلق حول فخذيهــا •• وبطنها يجردها مما على بدنها من حرير قصير الاردان • حتى اصبحـت عارية بكاملها مكشوفة لبدنه وللحب ، ومن جديد كانت استغاثتها بصوت خفيض يكاد لا يسمع :

ــ ارجوك • افقد سيطرتي على نفسي •• غير متمكنة •

لبست غلالتها القصيرة فماغطت الا ما يحرجها امام عينيه فارتــاحت وطاب لها ان تستلقي بفراشها تنام •

(الضوء مطفأ وانفاسه المخمورة تملأ الغرفة • والباب موصد وهــي تدنو منه غير راغبة او رافضة • يده تسارع بجذبها نحوه فترتمي الــى جانبه فينقض عليها يعرك نهديها يقضم شفتيها يعصرها بين ساعديه بعنف ينهض فيقع عليها بقسوة • ولحظات قصار •• قصار • ويتركها فتبتعـد وتنهض وتخرج الى الحمام تقيء وتغسل فمها وشفتيها وعنقها) •

ناعسة العينين ستنام • شفتاها المرتعشتان منفرجتان ترقبان • بدنها يرتجف • به حمى او برد ــ برد بحاجة للدفء • نظراتها رانية اليه • كأنهما تقولان شيئا • الحب يقطنهما • الشوق اكثر • الرغبة • التجربة الاولىمع حبيب • مثل ليلة اولى عذراء • ماذا ستكون ؟ لو تدري ! ستدري •

ـ منى حبيبتي • عمري كله لا يساوي الا هذا الوجود معك •

سكت الصوت • عناقها مجنون وراحتاهـا معقودتان فوق كتفيـه ونأماتها كأنها تبكي • يشفق على تلك التقاطيع الدقيقة التي تكوّن المرأة فيها وهو يلامسها جزءا جزءا • وكأنه يذكي النار فيها والبكاء •• التأوه الجنون • حالة لا تعرفها • وغلالتها الآن كالخيال لا تغطي شيئا من بدنها المفتوح للحب •

★ ★ ★

اشعل سيجارة • دنت منه بحياء وضعت شفتيها الهادئتين على خده • دبت فيه الحرارة وقبلاتها تتوزع فوق وجهه :

ـ جعلتني احيا حبيبي • خلقتني من جديد •

ـ كنت اود هذه اللحظة واخشاها •

ـ هل انت نادم يا حبيبي ؟

ـ اجل • تأخر لقاؤنا •• ولهذا انا نادم •

ـ هل انت سعيد مثلي ؟

ـ اخاف ان يتحول الحب الى جنس يوجد في كل مكان •

ـ حبي لك وحدك • لا يوجد الا معك •

ـ كنت حبا عذريا وكنت انا حبا جنسيا •

ـ الجنس من الحب يا حبيبي •

سعيدة • لم يذهب بعد زمنها • ما تزال في عمر الحب • لقاؤها بـه •• اعاد اليها اعتبار انوثتها • زهرة انعقدت ثمرة • عنقود عصر خمرة • انثى خلقها الوجود التناسلي لتكون سببا لبقاء النوع ، فكانت خالقـة متعة ليس اقوى منها •

يستمع لها قائلة كبث الاسرار :

ـ ويصير حبيبي عجوزا بعد سنين فيركن اليّ فأعيش له • هو لـي وحدي لا تطمع به امرأة سواي • ألازمه • أعنى به • أحبه • الا ليسرع ذلك الزمن ؟ ضحكته قطعت عليها حلمها :

ـ عسى حبيبك غيري .
ـ بل انت . وانت وحدك .
ـ رومانسية في مأوى العجزة وقاني الله منها .
تطوقه بذراعيها الدافئتين :
ـ رائد . انا امرأة ـ ربما ـ أحبت . ربما لا .. يوما . اسمع قصتي التي اخفيها لنفسي وحدي . واحكم لي او علي .
(يلاحقها حيثما توجهت . يترصدها وينتظرها حتى تظهر في الشارع فيسير وراءها . يكتب اليها الرسائل . يرسلها مع اولاد صغار يراهم تحت البناية . متزوجة منذ عامين . يناشدها لقاء يهمس بسمعها في الطريـق . يرجوها نظرة . كلمة . وهي تتأبى لا توليه اهتماما تضن عليه بنظرة . ثم اتصل بها هاتفيا وعندئذ فقط سمع صوتها وللمرة الاولى والاخـيرة . صدته ولم يعد يلاحقها . ثم جاءتها منه رسالة . كانت الاخيرة . فشعرت بحزن . قاسية وهي التي لا تحب امين الاسود بل تكرهه . ولا يمنعهـا عن تجاوبها مع هذا الغريب الوافد مانع .
أتتجاوب ؟ اتنتقم من امين الذي تحتقره وتشمئز منه ؟.. لا . لـن ترد على رسالته .. فليذهب الى نهايته . ما شأنها به ؟ ما امرها من امره. ثم علمت بعد شهر انه تعرض وهو يقود سيارته الى حادثة اودت بحياته .. كما جاء وصف ذلك في رسالته .
أهي المصادفة ؟ هل نفذ اذن وعيده في نفسه ؟ تشعر بعقدة الذنب . ومرت سنوات . وسرعان ما تلاشى ألمها النفسي . لكنها لم تتخلص مـن عقدها . فالرجل كنوع لا يثيرها . الجنس لا يغريها . تساق اليه في فراش امين ولا تأخذ منه نصيبها . تستلب ولا تعطي) .
ـ رويت لك . فماذا كان لي وماذا كان عليَّ ؟ هل احببت ؟ احكم .
ـ ربما احببته بعقلك الباطن . او خفت من امين فلم تتجاوبي .
ـ لا . لو كنت احببته ما كنت خفت من امين . فانا احبك ولا اخاف من امين وكل الدنيا .
ـ مني . ان انا ابتعدت عنك ؟ هجرتك ؟

ـــ لا • لا تقل هذا • لن تستطيع • لن اسمح لك •• انت حبي ولــن اتساهل بحبي • حبي انت وانت لي • لا تعد الى كلامك هذا بعد الآن •
عانقته بوله • واسرّت اليه :

ـــ أتعرف حبيبي ؟ ـــ بحماس ونزق ـــ سأنسيك نساء الدنيا • تأكد• سأنسيك ان في الوجود امرأة غيري • واحس بانني قادرة على ما اقول •

خيوط من قمر اسمر تداعب شعرها المرخي فوق وسادتها • جسدها في حالة استرخاء •

« اغمري بالعطر مقصورتي يا محبة واحملي اليّ طيفه عندما يغيب عني • ابعدي الصقيع عن فؤادي واطلقي حرارتك في ايماني به • واجعليه يحبني دائما » •

★ ★ ★

في الجواء المعتمة اهتدى الحمام العاشق الى وكناته فهدل وعــاشر اليفه ، كواكب سيارة تدور ولا تهتدي الى رفيق وستظل الى الابد الكوني •• كما هي •

نامت نوما جديدا • لاول مرة بعد زواجها عرفت ماذا في الحب بــين الاثنين • وردة بثت شذاها • انثى اعطت واخذت وكان قد طال حرمانها •

وهو • خرج يتساءل ـــ من لدنها : ماذا سيكون ؟

الشمعة اضيئت فاشعت • حرارتها تستهلكها • تذوب • يختفي النور• تتلاشى الحرارة • ترسو بقاياها • كما لو مأساة •

كان ملك الدنيا كلها لو ان جسدها الدنيا •

ثقته بحبه قوية • متمكنة • اما الحياة فتحرق طاقاتها الانسانيــة في عمل انساني سديد • الحب ألغى صورة الشمعــة التي تذوب • بقيــت الظنون •• لولا الظنون ـــ هي امل ايضا ـــ نعاش ناس في عدمية • وجن ناس •

الشوق يبرّده اللقاء • الحب يهدئه الاشباع • الثورات يحيّدهــا الظفر • المعارك المكتسبة في القتال تستهلكها ظلال النصر • المبادىء تتحطم

عمدها في تحقيقها . اكذوبة الانسان اكبر من الانسان مخترعها . الزيف اقوى من الحق .

ان تحب يا انسان .. ترتضي الحب كفعل رائع . ان تعلم انه فن بشري رفيع .. فهذا من المنطق الصحيح .

حبه لها تجربة جديدة ، تجعله يعيد النظر في سلوكه مع النساء . يتنكر لفلسفة قضّى عمره يؤمن بها ــ فالحب .. الجنس نتيجته وليس هذا من بهيمية الجسد . سيرى الدنيا بلون جديد حتى لو فقدتا ــ هما عيناه ــ لونهما الاصيل .

(ــ منى . حبي لك . وكرامتي لي . الاثنان معا لا ارضى بان يمسا كرامتي والحب في كفتي الميزان . الاولى تشيل الثاني . عندما تتحولين عني .. اعلمي ان كرامتي قد طعنت .

ــ رائد حبيبي . كيف تفكر هكذا ؟ كيف تظن بي الظنون ؟!)

توالت عليه رسائلها بعد ذلك .

انا في قلق مستمر ، وفي ضياع . الشوق في ازدياد . وميزان الحب ترتفع حرارته تدريجيا . وحرارته تحرق . كم انا مشتاقة لسماع تلك الهمسات الناعمة وكلمات الحب التي تجعلني اعيش فرحة العمر بها . والتحدث اليك عن الماضي البعيد القريب وكيف بدأ ذلك الحب الذي كنت ابحث عنه فوجدته بعد ان كان ضائعا ، فعاد اليّ الامل بالحياة فاسترجعت شبابي .

صرت ابحث عن الاشياء التي يهتم بها الرجل من اي نوع كانت .. تعلمت كثيرا لارضيك ولكي أبقى محتفظة بك الى الابد. ان الرغبة تزداد في الامنية التي أحلم بها لايام تموز أظن انك عرفت ؟

اني أصبحت كمجنونة . يجب ان تحقق لي الحلم مهما كانت نتائجه . اني احدّث نفسي في الليل والنهار ، وافكر حتى في تلك اللحظة التي تقع فيها عيناك عليه ــ او عليها ــ لاول مرة ــ لا فارق ــ المهم ان يكون او تكون منك انت فقط . سأترك المهمة لك . اني قلقة جدا من هذه الناحية.

ارجو الا تنزعج من كلامي هذا . ان حبي يدفعني الى هذه الكتابة والى مثل هذا التفكير .

كم اعتز بك ولولا خوفي لاجهر بحبي امام الملأ . انا تعبة كثيرا . تلزمني الراحة بالقرب منك لتعيد اليّ صبوتي ونشاطي . حبي لك الى اللانهاية . منى » .

★ ★ ★

افقد زواج حنان ــ الابنة الكبيرة ــ مريم جزءا من كيانها . وازدادت علاقتها برائد تأزما . وراحت افكار سود تعشش في رأسها تؤرق لياليها . وتواجه اوضاعها بكبرياء وعناد . . كأنها وهو غريبان . تتجاهله فيهز برأسه وهو مدرك انها تتعمد هذا وهي تحترق من القهر .

في المقاهي يتبعثر الدخان خارجا من الابواب والنوافذ المشرعة مع الضوضاء والهذر . على رائد ان يعايش هذا الجو العبثي بعض الوقت . انه حكم الفراغ .

وفي مرة التقى بعزيز عبد الرحمن في عودة له الى المدينة . في مقهى ــ الشاطىء الازرق ــ :

ــ أتذكر يا عزيز حديثنا في المزة في بعض زمن الدكتاتوريات .. عن الحب . والمرأة . وان الحب اقوى من الجلاد ؟ كانت الاضواء تطفأ باكرا وتتأرجح الدنيا في ظلام حالك . جميع الاحزاب في السجون ...

ــ اذكر . اذكر وعجبي انك ما تزال تذكر يا رائد .

ــ اه .. اه .. ماذا اقول لك ؟ المجتمع يعتبرني خاطئا .

ــ ومتى كنت تقيم للمجتمع وزنا ؟

ــ والنفط يا عزيز . ماذا عنه ؟

ــ يملكه العرب وليس سلاحا في ايديهم .

ــ في الواقع . لا يهمني شيء من هذا . اليأس ؟ ربما . لكن .. جوهرة ساقية في ملهى قالت : ليس للقطار خطوط فكيف تريده ان يسير ؟

ــ الثورة تضع الخطوط امام جميع القطارات .

ومرت ايام أخر .. وضاعت آمال كما البذور اكلتها الطيور الساطية على الزرع . واتت حكومات بلا مبادىء ولا برامج . تعاقبت .. منـذ الجلاء حتى وقت مضى .. كانت السياط هي التي تخط معالم الطريق . هزوا اعصاب الشعب وافقدوه آماله .

(من مصرع الابطال يخلق الظلم راية . آه .. وقد يصنع الشعب يوما من عظامه سلاحا ؟)

ــ من شعر جوزه بونيفاسيو ــ البرازيلي ــ

... « القلعة الضخمة .. هاجمتها العصابات .وجدت اسوارها بلا رجال . حكام الدكتاتوريات فرّغوا الاسوار . ابعـدوا عنها الرجـال فاقتحمتها العصابات وعاد الرجال للدفاع عنها من جديد . والكلمـات فقدت مضامينها وحل الصمت والسكون واللامبالاة » .

(ــ جدتي . احكي لي حكاية .

ــ نحن صرنا حكاية يا ولدي .

ــ جدتي . وبعدئذ . ماذا حدث للرجال الذين عادوا الى الاسوار ؟

ــ منهم من بقي حيا . ومنهم من قضى نحبه .

ــ جدتي . عندما اكبر .. سأكون بينهم .

ــ الى ان تكبر يا ولدي يكبر الظلم وتكبر العصابات .

ــ سأهزم العصابات .

ــ اجل يا ولدي ستهزمها ان اردت ولو كنت صغيرا .

ــ هل استطيع حقا يا جدتي ؟

ــ ما من عصابة مهما كبرت الا وتهزم .

ــ أقسم لك . سأهزمها . وانت ما تزالين في الحياة) .

الشعار يومئذ ...

(أبعدوا الفرسان عن الاسوار ثم هاجموها) .

هذا الشعار بذاته كان مؤامرة كبرى .. ثم .. اتـت النكسة فـي حزيران .

★ ★ ★

مر يومان • وبعد ان تقاسما خبز الحب وملحه وشربا من نبيذه المعتق في دنان الجسد ، صارت لها في نفسه مكانة اسمى •

ــ بدأت احيا حبيبي • اريد ان اظل معك هكذا الى الابد •

ــ البعاد مرصود للمحبين •

ــ سأجن لو يحدث • البعد يخيفني • لا تذكره امامي •

مرت انامله فوق كتفيها وظهرها وردفيها • تلمس خصرها وصدرها وقبل وجهها وشفتيها •

ــ منى حبي لك كبير • اعتز بك • تعجز كلماتي •••

هزت برأسها وساقطت عيناها ندى لؤلؤيا •• تبكيها سعادتها • ابتسامة آسية فوق ثغرها •• نظراتها مثيرة • تناديه • لن يعود الاولاد قبل ساعتين ••• الزمن ملكهما • امسكت بيده فطوق خصرها وسارت به الى مخدعها •

تبخَّرت ظنونه • لا رفض • لا قلق • ملتصقة به • خفيفة الحركة كيفما قلّبها • حررها من ثوبها • لم تشعر بحرج • فخذاها السمراوان المبرومتان تحت قميصها القصير• لامسهما • مسح براحته فوقهما• لدنتان حارّتان • يداه فوق بطنها فوق نهديها • حول وركيها • تتلوى الى جانبه في الفراش الوثير •

ــ سأنزع عنك ــ يوشوشها ــ كل اوراق التين وستكونين مثل شجرة خريفية •

تعترض بغنج ولا يعبأ • قبلاته تخرس احتجاجها •• فوق بدنها الاسمر الناعم • تتنقل شفتاه • تلثمان • تدغدغان • برعما ثدييها في كفيه استكانا وطال بهما الرضوخ • جسدها يتلوى • اضلاعها تحت بشرتها الحريرية تنطوي بانعواج مثير •• بطنها يتكور وينبسط وكل قطعة في بدنها تتجاوب وترتعش •

تغمض عينيها • تحلم • والواقع اجمل • السنوات الضائعة كيف تستردها • انها لتتجمع عائدة في لحظة آنية تأخذ بمرة واحدة كل ما فاتها• تعطي حبيبها بسخاء وفيه اخذها الذي ترغب فيه •

أصواتها . أنغام ألفتها شهواتها المكبوتة . تتواتر . تحب بالبـدن المتحرك وبالصوت بجميع مقاطعه الانثوية . الآهات والنأمات والتأوهات. تعلو وتنخفض ، تتنفس كلمات مهموسة مبتورة . تكاد تصيـح .. لا ضحك هو ولا بكاء . لغة الحب في ذروة قيمه البشرية .. الحس الغريزي والحيواني معا .. مع الحس العاطفي الروحي جميعه في الصوت الـذي يتدافع وكأنه ليس من بين شفتيها يتداعى .. من ذراعيها من صدرها من أطرافها من كل جزء في بدنها ..

في ليلتها بعدئذ . تراءت لها امرأة غريبة . جوهرة . جمانة . هدى ؟ لا تدري . تدنو من حبيبها . تمد نحوه يديها لتأخذه . بدينة جميلـة . ناعمة . في جسدها جذوة لاهبة ودم فائر .. مريم ..

منى مثل لبؤة غاضبة . يائسة حتى الموت . تندفع اليها .. لن تأخذه منها . لن تسمح لها . وعندما استيقظت كتبت :

« رائد . حبيبي .

الشوق يزداد . والحب في درجات تصاعدية . لكنه بين مد وجزر . اصل في بعض الاحيان الى درجة من الكراهية واليأس لا حد لها . واعود بعد قليل اذكيها بالذكريات الحلوة . الذكريات التي اعيش عليهـا وقت الفراغ وصدى كلماتك التي كنت تدغدغ بها اذني فارتعش لها وابـدأ بالنشوة التي تغذيني وتحيي ذلك القلب الذي تعذب سنوات طوالا .

سأكتب من الآن على كيفي وبغير برنامج مخطط. ان زعلت او رضيت شيء لا اهمية له عندي . لن ادع القلـق والاضطراب يسيطران علـي ويجعلانني اعيش في دوامة من الحيرة . سأجبر نفسي على تحمل كل شيء. انا قلت لك معك مهلة تسعة اشهر وبعدها ابدأ بدوري . سيكون مفاجأة لك . ولن اعض الخشب بعد اليوم . أليس كذلك .

اني محاطة بغموض يا رائد من كل الجهات . انتظر المفاجأة السعيدة ولي امل كبير بها . رائد .. مشتاقة جدا اليك ـ تأخرت عليَّ ، فكري مشغول . طمني عنك باية طريقة كانـت .. تحمّل المسؤولية ولو مـرة بمفردك لكي تقدر ظروفي .

منـى » .

★ ★ ★

ساهرها رائد وعلم منها ان زوجها المسجون ببيروت في حبس الرمل سيقضي ستة اشهر اخرى فداء لرسوم المحكمة . هذا هو القانون. افرحها هذا ولم يزل حزنها . تأجيل تنفيذ الحكم فيها ، لم يلغ الحكم .

ــ يا للالم . مشاكل كثيرة لا نهاية لها .

ــ أنر سبيلي . ارجوك .

ــ غبية انت يا مترجمة غير امينة ، كالمتعيشين بترجمة البرتو مورافيا. وكنت تريدين ان تبيعي وجودك ووجود اولادك بليلة حميمة مـع رجل ظننت انك تحبينه .

ــ الا هذا .. أنت أناني ــ صاحت منفجرة ــ تعتبرني غير أهل لان احب . لم تشفق علي لانني لست اهلا الا للتسريـة حول المنـاضد وفي المخادع ؟ مع ذلك اذا قتلني عندما يخرج من السجن اكون قد انتحرت .

صامت . ثورتها تلاشت . قالت بانكسار :

ــ انت خيرتني وانا اخترت . فضلتك ــ اعتذر . لعلني افرطت في الشراب .

ــ لا تعتذري . انت قلت ما يجب ان يقال .

نادى النادل :

ــ قل للمدير ان جوهرة ستغيب مدة ثلاثة ايام بحسابي . ليرسل لي فاتورة الحساب بذلك .

اعطاها رسالة لتقرأها وتوقعها . وافهمها ماذا تعمل . وبلغت الساعة الآن العاشرة . وامامه الكأس ذهبية والثلج فضة والمذاب رحيق . وهي قبالته مهندمة كطاووس . ترجمت له من عندها :

« حبي لك حب التراب للمطر . وعلاقتي بك علاقة النور بالقمـر . وانت في فلكك السماوي . رفضتني فبكيت وذهبت الريح بصوتـي . وانت في علاك كما الافلاك في الليالي الصافية . ابتهلت فلم يرق لي قلبك.

وسمعت الهة الرحمة ابتهالي فأحضرتـك اليَّ مأسورا في القيود . هـذا حبيبك يا اجمل من القمر . خذيه فهو لك . حبيبي لي عندما يريدنـي . حبيبته انا عندما يحبني . وجميلة انا عندما يرنو الي . وانا له عندما يكون حرا بلا اغلال . اطلقي سراح الحبيب ايتها الالهة القديسة ، ودعيـه حرا ليحبني عندما يشاء . فالحب للاحرار وليس لمن في القيود . حبيبي انت . سألثم جراحك امتص منها السموم . اغسل صدرك بدموعي . الارض ظمأى وانت المطر ، فاسقني وخذني » .

اوقف سيارته امام بناية تسكن فيها فتشجعت ومدت عنقها كأداة من مخلفات الجيوش الايطالية المنهزمة في طبرق وطبعت على خده قبلة .

★ ★ ★

تحكم بها الهوى فصار لها سجنا . سقطـت في الحب وهو حماقـة لذيذة .

« افديه ان حفظ الهوى او ضيع   ملك الفؤاد فما عسى ان اصنع »

ملك كل نابضة في جسدها وعقلها . القلب تاه . امرأة بشوق دائم . تكتب اليه رسائلها .

(رائد حبيبي .

للمرة السادسة خلال يومين أكتب اليك . اكتب للتسليـة فقط لان لدي وقتا وفراغا . لا لكي اطمئنك عني او اشغل وقتك بقراءة رسائلي . على كل الايام آتية والحساب بيننا . اني اتعذب لاعلم عنك القليـل . ليس بحوزتي اي خبر . لا تدعني أعيش فيجو مليء بالشك الذي يقتلني.

الحب يعذبني . والغيرة المخيفـة تداهمني . لن اسمح لك بهـذا . اعيش في جو لا بأس به من الراحة . ولا شيء ينغص حياتي غير بعـدك عني . افكر في المستقبل ليل نهار . اني اتعذب من الحرمان . واشعر انك نقيضي تماما . لاول مرة اراك بعيدا عني ولا يمكنني التقرب منك . لا ادري لماذا ؟ اظن السبب منك وانت .. الا تشعر ان كتاباتي متقطعـة لا

صلة لها ببعضها ؟ هذا من الهذيان • ان الشوق يقتلني •
منى •)

وعندما يأتي ستقول له اكثر • لكن الذي اتى كان امين الاسود• يحمل لها شوقا ولمائدة الشراب اشواقا • وفي محطة الكأس الثالثة برقت عيناه • وفي الرابعة ذبلت جفونه فتفرس فيها • علك لقمة بلا رغبة ومد يده الى ركبتها فشد باصابعه عليها • جسد خامد بلا نار • قلب كصخرة مغمورة بالماء • وجدها بمظهر مختلف •

في محطة الكأس الخامسة •• وصل القطار • نهض وسبقها الى الغرفة وارتمى بالسرير • تأخرت • ناداها بحنق • دخلت • جذبها اليه • ازاح ثيابها • ملأها بانفاسه المخمورة • حرتق وتحشرج صوته وشع النور في الغرفة ونام بارد الدم ، واستيقظ مع الفجر مضطربا فوجدها مستيقظة فعاد الى نومه ـ ولما نهض مع الصباح فكر بأن غيابه قد غير فيها بعض نفسيتها •

اعلمها انه يود لو تصحبه الى الداخل فعطلة الصيف قد بدأت • ولا بأس ان تقضي معه شهرا بكامله هناك • ابدت عدم رغبتها بل ابدت رفضها •• ثم انصاعت قائلة بانها تنفذ ما يأمرها به • فهذا هو دورها •

ـ اذن ستصحبينني عن غير رغبة ؟ ـ علا صوته ـ ومستاءة ؟

وعلى غير عادته في الصباح فقد شدها اليه « بفحولة » • بعنف • تقلصت عضلاته • تذمرت منى وتأففت فلم يبال بها • هكذا يحب العناق ، كما يعتصر برتقالة • والوى بفمه على شفتيها فصرخت من الالم ونعتته بالشراسة المتزايدة •

ـ يسيئك عناقي فعناق من يرضيك ؟

ـ ألا تستحي مما تقول ؟

عانقها من جديد • قبل شفتيها بوحشية كأنه يقضمهما •• يحطم اضلاعها •• تحملت « فحولته » بصبر استسلمت لعناقه باستشهاد بلا حس عاطفي • تزداد همودا وما كانت من قبل متحركة ـ يفكر ـ لكنها لم تكن على مثل همودها الآن •

مضت الى اوراقها تخط لرائد رسالة :

احبك انت وحدك . لا احب احدا غيرك . علمتني الحب الذي كنت محرومة منه طوال سنوات . رغم كل شيء . اصبحت احب الحياة وانت . اتحدى بك العالم وبك اعتز . علمتني الا اخجل من عـواطفي . علمتني الثقة بنفسي .. حتى صرت فخورة بنفسي لانني احبك » .

التقى امين برائد فروى له ان الوضع تأزم في دمشق بالنسبة له ولسعيد عارف ويخشى ان يجعلوهما كنقطة الارتكاز في الدائرة . فالقانون لا يرحم ــ والتحقيق جار . لكنه مع المتهمين بالغش والجشع ارحم بمـا لا يقاس منه ، مما كان مع المناضلين السياسيين . اما بالنسبة لسعيد عـارف فربما مرضه خير له ، يبعده عن الجو المباحثي والتحقيق القضائي .

ــ انتم محظوظون يا امين . لكم من يتدخل ويلفلف وينقـذكم .. وربما يأتي وقت لا ينفع فيه الوسطاء ولا المحامون .

ــ هذا الوقت ليس بقريب .

★ ★ ★

ــ سأتوقف عن كتابة الرسائل اليك . اخاف ان تقع بيد غريبة .

ــ لا بأس . قولي مني . ما في قلبك فاسمعه بقلبي . والآن ساخرج .

ــ لن تخرج قبل ان توصلني الى سريري واغفو بين ذراعيك .

طوقهـا وغفت واستكانت وتسلل خارجا فاجتـاز الطرف الشرقي لطرطوس وأفكاره تتواتر متزاحمة . حتى كان امام مزار الشيخ جمال . شاهد الغدير وقد جف تاركا قاعـا مسجّدا بالحشيش اليابس .. أين اشجار السنديان تنشر الظل على جنباته ؟ هل مرت عاصفة فأتت عليهـا قبل مجيء الصيف ؟ اسوار تحيط بالمكان انشأوها لمقبرة جديدة .

ــ الشجر المتأصل في تربته لا يقتلع .

ــ الطبيعة الغاضبة لا تعجز عن شيء .

ــ الاسوار المرفوعة ليست من عناصر الطبيعة .

ـ مات الغدير والانبات الخضر الزاحفة ـ والسنديان العتيق هوى .
ـ الانسان حوّل الظلال الوارفة الى تربة مقدسة لدفن الجثث .
ـ تحيط بها الاسوار . لماذا والميت لا يهرب ؟
ـ عادة اكتسبوها من تعاملهم مع الاحياء .
ـ وجعلوا من الربيع الاخضر حقلا بشعا .
ـ احرقوا العشب حطموا السنديان . بأمر من ؟ سألوا من قبل ارتكاب جريمتهم ؟ (لا تقطعوا شجرة . لا تمثلوا بجثة) .

يوم جاء الى متنزه السلطان وهي معه ـ الجنون ! ـ العاصفة فاجأتهما .. بالجو المتقلب . العواطف ايضا تتقلب ، صمود قلبين اثبت من جذوع السنديان التي اقتلعوها . كل شيء يقتلع .. الا الظلم لانه ليس احسن الاشياء .



مأساة عتقها الزمن

عادت جوهرة من بيروت وروت لرائد ما جرى لها مع زوجها الحبيس.
من آلة العزف يتصاعد صوت نلسون كونسالفس بأغنية برازيلية. الصوت مليء بالحرارة والصدق .

ــ سأترجم لك اغنية البوليرو البرازيلي .

ــ انت لا تعرفين البرتغالية . انت نسيت أنك لم تصلي الى البرازيل ؟

(أغني للتعيسات الضحايا . المتسكعات متصيدات الرجال في شوارع ريو دي جانيرو . شقيات النفوس ، بيوتهن الملاهي . اليهن اقدم انشودة أمل بعد العشـار ورسالة محبة وقد تدمرن . في نشوة الليل المنتحر . يشربن من اكواب الشرف المهـدور . يبعن الجسد . للنسوة التعيسات اغني انشودة حب وامل بالنهوض) .

(قسمات وجهه وحشية . عيناه ملتهبتان بالحقد . قبضتاه اطبقتا على القضبان .

ــ أعد الايام .. يوما يوما . ساعة ساعة . دقيقة دقيقـة وكأنها لا تمـر .

ــ دفعت رسوم المحكمة . ستخرج في غضون ثلاثة ايام .

سأقتلك عندما اخرج .. ساقطة .

ــ لن ادعك ترجع الى السجن ثانية .

خرجت . سلمه الحارس رسالة منها .

(رحمة بأولادنا . كي لا يتشردوا . والبنتان لئلا تسقطا . لن تجدني في الحياة فتقتلني وترجع الى سجنك . ستجدني جثة هامدة فـلا تتهـم

بقتلي) .
مثل بناء يوشك ان يقع . عيناه نار آكلة . فمه شدقا ذئب جريح .
ــ سأقتلها ولو كانت جثة . سأقتلها . سأقتلها .
صاح به الحارس وقد قرأ رسالتها :
ــ وانا سأنسى انك رجل شهم ثأر في يوم لشرفه . يبدو انك قاتل وحسب) .

★ ★ ★

قالت مريم شيئا ورائد مثل حجرة لا يتحرك . نفد صبره فقال :
ــ هل انتهيت يا مريم ؟ اذن دعيني اخلد الى نفسي في هذه الشرفة ولك ان تجلسي معي اذا شئت .. بغير كلام .
رجع برأسه الى ظهر المقعد الوثير وعيناه معقودتا النظرات في الجواء الواسعة الآخذة بالترصع بالحجارة الكريمة . كواكب واجرام وانجم . تناولت انسام مبتردة وجهه ، ورسم طيف الضوء المنسحب في اول المساء فوق محياه ظلالا كئيبة .
« ــ هل فقدت شيئا يا رائد ؟
ــ البلد فقد اشياء .
ــ المصيبة التي يتقاسمها الجميع تهون على الجميع .
ــ الا هذه ضخامتها من نوع جديد .
ــ انت نفسك . هل فقدت شيئا ؟ قلم حبر . ولاعة . منديلا هدية ؟
ــ فقدت الدرب الى فهم ما يجري .
ــ اذن ألمك قديم قدم الازمان » .
الظلال المسائية كئيبة . مثلها نفسه . شوق الى الماضي . ود ان يلمس ذراعها ويلف خصرها . شعرها المكلل بالبياض مثل سماء في اول اشراقها . بدانة اهانت قوامها ولم تذهب بكل جمال الفتاة التي كانتها .
ابتسم ...
تململت مريم . من زمان لم يجاملها . السماء اشرقت في عينيها ، ثم

انخضت قبيل هبوب العاصفة . النخلة اهتزت . تنفضت سعفها من برد . تساقط رطبا ووداء صوتها بين هادىء وراجف تسلل الى فؤاده ينزع منه شوكا يحرك فيه شوقا .

« ماذا لو دعوتها ؟ هذا اللون من المرأة غريب عني . جديد . متسلل الى حياتي . له جاذب خاص وطعم لا ريب حرِّيف » .

يعد في سواد الليل الحجارة المنثورة .. اضواء في الفضاء ..

ـ اني ابالغ كثيرا ـ تهمس مريم ـ يثيرني اتفه امر فارتكب الهفوات.

بلغ ما عده من عيون الضوء الثلاثين . هفواتها اكثر . وفاض عددها على عدد النجوم واخواتها ، وانتهت الى اغلاط . اخطاء ، جنح . جنايات ...

ـ حمقاء انا . لماذا تثير غيرتي جارة ليس لها قصد ؟

بلغ ما عده رقما كبيرا . ليس ثمة في السماء نجم سيار .. كوكب دري . النجوم احتجبت . ضاع رائد . الماضي . الزمان الشاب . حكاية حب . هو وهي .

ـ أنغص حياتك . حقا لم اعد احسن التصرف .

ـ اقتربي يا مريم .

خائفة . متوجسة . لف ذراعه هول خصرها المليء فانجذبت اليه كأنها تقع واستقرت رأسها المكتهلة فوق صدره .. رفعت راحة يده الى شفتيها. فاحس بهما دافئتين ناعمتين . ملمس شوق وعطر . قبلهما . صادق هو مع نفسه . يمتلك اللحظة لونا من المرأة كان منسيا عنده .

★ ★ ★

عاد امين شريكه المريض واستقبلته هدى بوجه جامد كأنه خال من الحس . لا تعيش مأساة زوجها . لا تشعر معه ـ فكر امين ـ تتصرف من غير سلطة رجل عليها . تتزين كعادتها . تلبس افخر الازياء . ـ الى هنا فكر الرجل ـ اما هي .. فتقوم بزيارات طويلة تعود منها سيئة المزاج ـ يفكر سعيد ـ كانها هي المريض وليس هو ، فيستاء ويكبت ويتحمل ثم ينفجر :

ـ انما عدو المرء اهله يا امين • انها تتركني لعذابي وتغيب عني كأنني لست سعيد ذلك الزمان •• اغدق عليها النعم بكل انواعها • تنال كل شيء ـ الآن ـ وانا مزروع هنا بشللي خشبة لا تورق ولا تزهر • أليس هذا هو الخراب ؟ ماذا يفيد المال وهو كثير ؟ الا ان الزوجة والدولة متفقتان على اتلافه •

لا يجهر امين برأيه ويحتفظ به لنفسه : الامر ليس فادحا جدا • يندرج في المأساة العتيقة •• فسعيد مرشح من زمان لتخونه هدى • والزنا صار شائعا لدى الزوجات كما هي شائعة الفضيلة •• نجنا يا رب من هكذا حالة •

لا يهتم سعيد بالمؤثرات العاطفية • صارح بهذا شريكه امين • فالخطأ يصير صوابا بعد استحالة تصحيحه • يقع سعيد في اللامبالاة التي هي حالات الرفض والقبول سلبا وايجابا معا • وتشتمل على المضمون الذهني في الشكل العملي •• العجز عن التغيير•• فلتصنع ما تشاء• ستعود اليه•

ـ التحقيق لا يزال جاريا في موضوع الانهيار • ابق بفراشك •

ـ وهل بامكاني مغادرته ؟ اذن خسائرنا محققة •• آه •• تلك هي الطامة الكبرى لا املك لها دفعا •• الخراب • الخراب !

ـ هناك من يعمل بالتي هي احسن للفلفة الامور وسيظهر التحقيق عدم وجود الغش في المواد •• قضاء وقدر •

« هدى بالمقارنة هي اهون الشرور » •••

دخل رائد العالم مبتسما يشيع التفاؤل حوله فراعه مرأى العجوز الناقه بغير عافية ، كأنه يبكي • وبدت عليه معالم الشيخوخة كما لو حلت به فجأة فاذلته فقبع باريكة كأنها وهو صنعا معا فالتحما •• وخرج الى الشرفة قليلا • تطلع الى طرف من شقة منى فلحقت هدى به :

ـ عدت الى هروبك مني •

ـ اخفضي من صوتك •

ـ لا يهمني فهو هالك لا محالة •

ـ كيف تجرؤين ؟ كيف ؟

في وجهها معالم شعور انساني ممزق .. مستهلك . لهفة للتخلص من ثقل ميت .

ـ الانسان . كل انسان هو منحط . تافه . وضمنا وحش . هذا المريض الذي تراه ـ اشارت اليه برأسها ـ منحط وجارح ايضا . اناني وطمّاع . بت لا اشفق عليه .

عينا سعيد تتابعان رائد وهدى وتحوّمان بنظراتهما في ارجاء الحجرة. ابتسامة بلهاء شوهاء .. رجع اليه رائد فشكا له المريض شجونه وبلواه فجعل يطيب خاطره .

« هل يعرف سعيد ؟ اراه يرى ولا يرى . رب من علم وما وعى . او وعى فسكت لعلة » .

(ـ مني . ارى امين غير مبال بك كأنه لا يغار او كأنه يتركك لي . ويخيل اليّ انه لن يتأثر اذا ما علم بالامر .

ـ اظنه يكرهني . لا يقيم لي غير دور الحاجة لتصريف غرائزه . وربما يريدني ان اقع في سواه لينتقم مني . انه لا يحب حتى اولاده) .

همست هدى لرائد بشيء وبدا سعيد كتلة غيظ واهتمام وشراسة :

ـ كنتم تحسبون كلامي نعيب بوم فانظر الآن يا رائد الى ما يجري. خسائر ما كانت متوقعة . وطارت الارباح .

ـ يجب الا يثيرك ما يجري . عافيتك هي الاهم .

وتحركت هدى لتقول شيئا فلم يمهلها سعيد وصاح بها :

ـ كفي عن نقنقتك ودعينا نتحدث . اه . اه !. كيف تطارد الرجل بسخافاتها ؟!

استأذن رائد لينصرف واعترض سعيد بخبث :

ـ ابق معي يا رائد . ستكف عن ازعاجك .

ـ لا يا سعيد . السيدة هدى لا تزعجني مطلقا . انما لهفتها عليك تلح عليّ لاوصيك بالاهتمام بصحتك فالانفعال يؤذيك .

ـ حقا . هكذا اذن ؟! لا بأس .

أمين الاسود صامت يستمع سارح الفكر غير بعيد وصحبت هـدى رائد الى الباب :

ــ انك تشفق عليه اكثر مما تشفق علي .. « والحي خير من الميت » .

استأثر بعدد من النساء . يفترسنه بحبهن وكل منهن فريسة رغباتها حتى القهر . حبيبات عدوات . لا يستطيع محاربتهن .

★ ★ ★

دخل امين الى شقته ورأسه تدور ، وثمة فيها اسئلة عديدة واستقرت نظراته على منى .. تطلعاته غريبة . تحسها الآن ولا تجـد لها تفسيرا . فتتساءل اذن عن السبب الذي يجعله مؤخرا لا يدعوها الى الغرفة المظلمة وقد يمر عليه اسبوع واسبوعان كذلك فتوفر على نفسها حالة الاشمئزاز وان تكن تشعر بأنه يهملها فيداخلها حس بالغبن. أتراها ان أطال اهماله لها ستزحف هي اليه ؟

حتى هذا التساؤل يرد في فكرها . فكم تمنت لو كانت مع رائد في جميع ايام عمرها . كانت هي التي ستناديه . واكتشفت في نفسها خوفـا من امين ــ ماذا لو علم ؟ يتفاقم خوفها . لا . لن يعلم . ولن يعلم احد .

في الشارع ينظر اليها كثيرون باشتهاء . تتلقى مكالمات هاتفـية من مجهولين . تغلق الخط بعنف .. تثير ــ وهي تعرف جيدا ــ في الرجال شهواتهم . ولو شاءت ان تخون امين لكان له منها في كل يوم زوج مـن القرون . لو كان ذكيا لقدّر فيها هذا . اما رائد فحبيبها وزوجها الحقيقي بعده .

كتبت رغم اعلامها له بانها لن تكتب :

رائد حبيبي .

اقبلت عليك بلهفة وحضنتك باعتـداد وصممت على الاحتفاظ بـك شعاعا ينير حياتي ويضفي عليها جمالا واسترد بك شبابي وكرامة أنوثتي وامل عمري . اعيد هذه الكلمات ، وعندما اتت مكالمتك الهاتفية احسست فورا بشلل في اعصابي وعلمت بانك غير آت . لهذا السبب كان صوتـي يرتجف . كنت اود ان اكسر السماعة وعدت الى نفسي كأني راجعة مـن

معركة خسرت فيها الغالي .

أعيش الآن على اعصابي . استمعت لام كلثوم ونمت والدموع تنهمر من عيني . لا تضحك مني . اني في اشد الشوق . ضعفانة جدا . سترى ذلك عندما تلقاني . لا ادري ماذا اكتب غير ذلك . انا بانتظارك . منى) .

★ ★ ★

مر حزيران شهر المرارة .

في المقاهي نقر حجارة النرد وسائر اوقاع الاوركسترا المقهوية . وفي حدائق البلدية في قلب المدينة تقام حفلات يعزف فيها « الخنافس » العرب السوريون ، يقرعون على الطنبور ويزعقون مع الاجهزة الالكترونية . وتهتز خصورهم كغلمان العصر العباسي .

ثم توزع الجوائز يقدمها في سحب خاص على « الطونبولا » ، تجار الخردة والقمصان المخرمة والجزادين النسائية والصداري والكيلوتات . بقي فقط ان تقدم كيلوات من البطاطا والزبدة المستوردتين ، كدعاية تجارية . الا ان هذين الصنفين غير موجودين في كثير من الاشهر . فالقطع النادر نادر . « والاشتراكية » أمنت للناس الاصناف الاكثر الحاحا ولزوما للحالة النفسية . الويسكي والسنزانو وسجائر كنت وملبورو . « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

البلدية أجرت حدائقها فيسبيل الحصول على المال . ولا يأتي بالمال الا المال . « ردوا مال البلدية الى البلدية ». وحزيران لم يجد في الناس اي تبديل فدخل في طبيعة الشهور واحدا غير مرقوم .

بعد ان فتح رائد لمريم باب رغباتها على الليالي الملاح عاد فاغلقه فامتد بينهما حاجز جليدي لا يذوب . وعادت تنظر من جديد بعداء الى النساء اللواتي يحظن بزوجها .

في متنزه السلطان جلس مسند الظهر الى جذع شجرة تحت وارف افنان ، من حوله اشجار الاجاص والعرائش والتفاح ، تحجبه عن الانظار. في فكره مريم .. تحبه وتعشقه . يعرف ــ وانها تخفي عواطفها .

••• « مريم • هزّي اليك بجذع النخلة في ليلة حنان وسمو عاطفي• اسودّ القمر يا مريم • فقد الانسان دربه وتشرد • حلت الغربة به وهو في وطنه • صارت الارض ــ حبه الاعظم ــ غريبة مشقية • امضي في عنادك فهذا من طبيعة المرأة • »

ــ ألا تحتل طاولة في الشرفة ففيها ثمة اناس طيبون ؟

ــ انما عن الناس ابتعد •

ــ جنة بلا ناس لا تداس •

ــ ابحث عن جحيم تطفىء ناره ناري • واواره يأكل قلقي •

زجاجة ويسكي وكأس وثلج وبعض الموالح اتى بها النادل اليه حيث هو جالس الى الارض مسند الجذع الى شجرة ، وسرت في بدنه الرشفات الاولى •• لعبــة النشوة تتسلل الى دمائــه • لم يذق طعاما منــذ يوم بكامله •

شعر بخفة • استهان بالامور ــ بالازواج • بالمشاريع •• وبالسنديان الذي اقتلعوه لينشئوا مكانه مقبرة • قضوا على الركن الهادىء الجميل •• اناس غير متحرجين من شيء • لا يعانون من عقدة حب الاشياء الجميلة:

في نفسه جروح جديدة • دواؤها مجهول • هل سيعود في يوم ــ بعد ان اهتدى الى حب يكفيه ــ الى التشرد بين اثداء النساء وخصورهن ، ويعيش بافكار تاجر الرقيق يروز البضاعة قبل ان يشتريها •• يتحسس اطرافها واعضاءها ليتيقن من جودتها ؟

أيعود الى مفهوم ماضيه • يرفض المرأة كحب يعترف بها كجنس ؟

عاشق الارض • عابدها • من اجلها يمد يديه للقيود وليس من اجل امرأة • عاش لمنى زمنا من عمره •• يريده ان يستمر ــ لن ينساها • ولن يدع آثارها ترحل عنه •

(رائد حبيبي •

الحب يعذبني والشوق يكويني والحرمان يقتلني • وانا بانتظارك • اعيش على امل اللقــاء القريب وكأنه اللقــاء الاول • الآن شعرت بأنني ضعيفة جدا لا اقوى على الصبر • سأكتب اليك كل ما كان يجــول في

خاطري منذ البداية عندما كنت القاك •
كنت اشعر في قلبي بدبيب غريب وفي خيالي بصور حالمة • كنت انت نوعا آخر من الرجال • كنت اشعر انك انسان بكل معنى الكلمة • كنت تعاملني كأنني انثى فقط • وقد احببتك قبل ان اعرف انك تبادلني عواطفي • وكان الحب شيئا جديدا على حياتي • على تفكيري • على قلبي •

منى •)

★ ★ ★

وقد حدث بعد سنين • وكانت تحل رسائلها محل الكلام • الحب صلة اقوى من الامومة والبنوّة • قيود عاطفية متشنجة مثل عنف الحياة •• وانه ليحترق بعشقها بلا اناة• تأسره • تعوّده ــ حتى الادمان ــ على نوع من المرأة الجنسية ، حجما ووضعا وحركة وصوتا وعطرا •
ألم تقل له انها ستنسيه جميع النساء ؟ لم تعد تطيب له النساء •• إلاهي • صدق وعيدها •
المدينة كلها زهرة بين يديه • المدينة هي • بسحر عينيها • بلون ذهب وجهها • جيدها • ثدييها • ذراعيها • بطنها • فخذيها • شعرها • المدينة هي وألف قبلة طبعها على جسدها •• وألف غيرها • وألف • وألف • هي المدينة • سماؤها اتساع عينيها • استعبدته مدينة بلا ضمير •
أتسمع يا زمن ؟ انفجر يا زمن •
في الليل • بشرفته انفجر قمر بلون اسود في سماء لا تفهمه بعد ان ارسل عن مرآته نور سواه • قمر غريب كعاشق غير مجاب •
اختف يا زهر الزنبق والليمون• عد يا بحار الى رحلة ابعادك• انطفىء يا نور في اصقاع الظلمة •• الى ان يأتي الصيف •• العاصفة ستقتلع احسن الاشجار) •
ــ مقطع تؤجل قراءته الى ما بعد سنوات ــ
يتساقط سعيد عارف في كل يوم اكثر ، بدنا ونفسا • وحياته كأنها

لا تزن شيئا • وفجأة تيقظت فيه غيرة العاجز •• عقدة الضحية • هـدى المشعة بالنضارة• لؤلؤة في ضوء باهر• أنثى فادحة الاغراء كبيرة الاثارة• امرأة لا يظهر مثلها الا في احلام الرجال •

« مِنْ صُنْعِ يدَيَّ • أناقتُها من فضل جيبي • لولا مالي لظلت نرجسة برية بين الاشواك • ماليَ انا ــ وليس ابواها ــ خلقَها فاتنة سيدة مجتمع تحفةً أنثوية مرموقة تستقطب الانظار • لا فضل لسوايَ عليها الا في تكوينها أنثى وأفعى في شكل امـرأة • تختلف عن الافعى بأنها لا تقتل في العض وتقتل في غير ذلك • »

طلب اليها ان تنقله الى الشرفة • أنهضته وأسندته الى صدرها فلامس بوجهه عنقهـا ونهديها • عطرها الممزوج بحرارة بدنها المثير يغمـره • دفء بشرتها يبث شذا الأنثى • أغمض عينيه يحلم بماضيه يومَ تزوجها وكان قويا ففاضت ابتسامة بوجهه ما لبثت ان غارت في بطن بشرته وقد شعر الآن بضعفه فسألته :

ــ لماذا تغمض عينيك هكذا كأنك نائم وما أنت بنائـم وأنا أنقلك الى الشرفة ؟

ــ ألا تعرفين ؟

ــ بالطبع لا أعرف •

القوة المالية • رافعة قيم الانسان ، بدت له الآن تافهة ومدعاة للقهر• لا تجديه • المالُ وقف على باب الصبا ذليلا لا يجرؤ على طرقه •

« ستشبع فترعوي • اما مشاريعي فأهملتها • أتستحق امرأة تضحية كبرى ؟ »

(روى له رائد حكاية جوهرة • قتل زوجُها أخته ودخل السجن • مثال للعنف المتزمت • ثائر للشرف • جبار من جبابرة الاخلاق السخيفة يقضي في السجن عشر سنين •• الى ماذا انتهت زوجته ؟)

« حماقة • تلك حقيقة العصر الموبوء بالخيانات الزوجية • بالثأر • بأحكام السجن • أين رائد الآن ؟ من مدة لم أره • قد عرف أن الحيـاة أثمن من الربح والمشاريـع • تجري وراءَه النساء • هل هدى بينهن ؟

ماذا يغريها فيه ؟ اذن مع من تزني القحباء ؟ »

أجلسته في الشرفة بمقعد مريح واسع • أحاطته بالوسائد الطرية • سوت المسند وراء ظهر وانحنت فوقه وهي بقميص النوم الرقيق • لفه شعرها الذهبي المرخي ، وأنفاسها ورائحة الانثى أطيب من عطرها • قشعريرة لذيذة سرت في أوصاله فتلمس بيديه خصرها وبطنها وظهرها • نقلهما في بدنها •نهداها الطليقان تأرجحا بنزق وكياسة فوق وجهه وكتفيه ينقران ببرعميهما جبينه وشفتيه •

ضمها اليه وشفتاه فوق ثدييها • ضغط بعنف • تأرجحت واختل توازنها وسقطت فوقه فاحتضنها مقلبـا في بدنها يديه ووجهه ملتصقـا بها بكل مسام بدنه ونبضات حسه وفوران رغبته •

تخبطت وقاومت وهو يغرق في نهديها لثما وشما ولمسا ويخترق بأنامله الحرير كأصابـع أخطبـوط في كل ما وصلت اليه يداه • يمتص عطرها وما فاح من بدنها العَرِق من رائحة الانثى ألتي قضت ليلة من لياليها في حرارة الشوق للجنس •

صاحت به والشرفة تطل على الجوار • ما تركها ويداه تتنقلان فوق فخذيها المكشوفين ونهديها وبطنها وردفيها وتستقر احداهما في ركن حميم من بدنها وهو يهمهم ويهمدر غير عابىء بالاعتبارات • بدائـي جمحت غريزته فضاع وتيقظ نصفه المحروم في اثارة مجنونة • وبدت هي شبه عارية بين يديه القويتين ، متوجعة مغلوبة •

ازداد في هجومه تشبثا بها ووقعا عليها • ولانت مقاومتها وتراخت بين يديه ورجته أن يتركها لترخي ستائر الشرفة فتعود اليه •

لم تعد • وقفت تلهث مثل حيوان مجرّح حوصر عند جدار• وجهها مرسوم بسيماء من اعتدي على عفافها • خصل شعرها متناثرة بغير نظام ، صدرها المهان يخفق ، بدنها الذي تعرض للاغتصاب يرتجف بنقمة • اطلقت صوتها بحقد :

ــ وحش ، وحش •

لا يستطيع النهوض ، العرق نبت في جبينه وسال فوق وجهه الابيض

من الغضب . لهث متعبا . أطرق واهتز رأسه بعصبية وصدر عنه نشيج مخنوق كفحيح وحشي مكبوت .

رشت على جسدها الحار شبه العاري من زجاجة بخاخة عطرا انثويا مثيرا وارتدت أبين فساطينها اثارة وبدت له صغيرة ناضجة نضرة في اول زواجها ، تمايلت امام عينيه غير مبالية به وتراقصت وابتسمت له متحدية، لوحت اليه بيدها وتطايرت خصلات شعرها .. « تشاو » وخرجت .

منسحق بمقعده مفتتّ القوى مقهور. بكى وخجل. حدقتاه رصاص منصهر وقد برُد . زحف الى جهاز الهاتف :

ـ استاذ ابراهيم التركي ؟ انا سعيد عارف . الصحة ؟ لا تسأل . نعم . نعم .. ارجو ان تحضر ومعك الكاتب بالعدل وسجلاّته .. بل الآن .. مهما كلّف الامر . أجل . سأنتظر .

تنهّد بارتياح . تسلّل خدر مريح حاقد الى أعصابه .

ـ الى الجحيم أيتها الافعى .. عاهرة بيتي .

(أيها الحاملُ مشعلاه نورُكَ جناحطير ليلي لا يدركالنهارَ ويتبدد. غريق بطن الارض شمعتُك المذاب . مثل دودة سُدّت من حولهاالمطلات. أيها الليل . لن توقدَ فيك شعلة . كما الماء أنت تطفىء اللهب . مات الليل وما تفجّر في أحشائه النهار . اصفرّ الصباح وما لامست أهدابه فراشات عمرها بخلود الزهور . أهو الشؤم أم هي الحياة هكذا ؟!

القوي لا يسحق الضعيف انما يفعل هذا من حُسب فيالاقوياء وليس منهم . ما القوي قاسي القلب بل من يشعر عند تعامله مع الآخرين بأنه انسان . فيا ليلة تهدّمت فيها النجوم واعتكر فيها لون القمر . ان قلوبا شابتها أغبرة الحقد صارت غدّة تعصر سُمّ الافعى) .

ـ من نشيدٍ ملحمي قبل ظهور دانتي ـ

★ ★ ★

شحوب في عينيها مثل أجنحة الفراشات الساكنة وهو صامت . لون وجهه مزيج من الأسى والعناد . قدمت له كأسا كسائل ذهبي . أرادت

الامساك بيده .. داخلها انه في حالة صعبة . ابتسامته الآن مثل وردة منتزعة من بين الاشواك .. ممزقة .

أفكار جوهرة منفرطة . لا تدري ماذا سيكون . والسجين المحكوم؟ أنغام ناعمة مثل مسرى أفعى . تزحف مبحوحة ...

(راح الحلم بعد ان اخترق كالريح دربي . وظلت الريح بغير وعد وبشرى . فجلستُ تحت شجرة التفاح أبكي . ناداني صوت :

ـ سمراء لا تبكي . أنت بدء الزمن . أنت للحب رصد .

قمت الى زهرة أعانقها فذوت وتساقط مخملها .

ـ سمراء لا تبكي . الحب كالربيع يعود مع كلِ موسم .

ـ الحب تناثر بين يدي كوريقات مزمنة . هجرني حبيبي .

وقفت أمام مرآتي . شعري أسودُ ليل . مقلتايَ نرجستان . أهدابي وسوسات حلي . ثغري وردة . خدّاي وهج النار . الابتسامة على شفتي زنابق . عاد اليَّ الحبيب .)

ـ جوهرة . أمسكي بيدي كما الشاطىء بالمرساة . يداكهما الشاطىء .

ريح غضوب تتبعثر فوق جبينه . العمود الثابت ـ هو رائد العالم ـ من بطن الارض الى السماء .. يتحطم .

رسالة من مجهولة شوّشت باله :

(ربما ليس للعشيق الاخلاص بعد ان لم يكن للزوج . نساء بعد ان يعشقن غير أزواجهن يتحول الحب عندهن الى انفلات وتعوّد . كما يتحوّلن مع التغيير المتوالي الى ساقطات لهن في السوق الجنسي سعر حتى ولو لم يتقاضينه . أنت الذكي فافهم ؟ ـ انتهت الرسالة ـ

خواطره افرازات مجتمع متحضر بلغ من التطور الصناعي شأوا بعيداً . منى . انها مع كل الاعتبارات .. هي .. كما .. يظن .. لو أنها .. لو أنه .. لكن .. انما . قد عشقها رجل له في المجتمع أثر وفي العشق باع . وأقنعها أنها احدى سيدات الحسن والجمال البارع .. مبالغة ؟

رجال يخونون نساءً . ونساء يخنّ رجالاً . قادة يخونون شعوبهم . وحكام يخونون بلادهم . ما العجب؟ للخيانة سِفر سميك واسع الصفحات .

هي من عاداتِ العصر ومسالك الزمن .

« ما العجب في ان تخونني حبيبة ؟ الى أين انتهيت يا رائد بتفكيرك المتشائم . ماذا في الامر من غرابة ؟ انها استعذبت العشق الحرام فطمعت بقائمة طويلة من العشاق .. حقا انك مجنون ! »

رجل هـــامّ . ناضج . مثقف . حجرة شطرنج تلعب به النساء . سيحضرهن ليحاورهن :

(ــ هل تظنين أنها قادرة على هذا ؟ / ــ انها امرأة . / ــ والحب ؟ / ــ يتغيَّر . ــ من حوار له مع جوهرة ــ)

(ــ من زمان وأنت هاربة من منطق الحياة الزوجية. / ــ أليس أنت الهارب. تبحث عن ماذا ؟ /ــ الحب. الوفاء. /ــ تجدهما في بيتك ./ ــ متى ؟ / ــ عندما تعود . ــ من حواره مع مريم ــ

(ــ ما الحب ؟ هل ينتهي ؟ / ــ ليس في الكتب التي أقرأها شرح حقوقي له . / ــ أسألكِ عن الحب وليس عن الكتب . / ــ أنا أحب. لا أفسِّر الحب . / ــ الى متى تظلين وفية ؟ / ــ انا غير مجابــة . / ــ هي مجابة . / انها لا تحب . أنت تحبها . ــ من حواره مع جمانة ــ

(ــ لماذا ليس الحب هو النهاية الخالصة ؟ / ــ أنت بادىء . لم تصل بعد . / ــ وهي ؟ / ــ المفضلة . تصنع ما تشاء . / ــ ولكنها لم تكن كذلك . / ــ قد صارت . ــ من حواره مع هدى ــ

(ــ في لحظات من الهوى وشطحات الخيال . / ــ الخيال شطح كثيرا يا رائد . / ــ وحلمك ان يكون لك ولد مني . وقلتِ ستحبينه بجنون ؟ /ــ كما أحبك وبجنون./ــلم أعد أصدق. / ــ كنتَ أخاف منك وصرتَ تخاف مني ؟ ــ من حوار أخير له مع منى ــ

عاد من جولته المجنونة بسيارتــه . سرعة مئة وأربعين بالساعة . مسحوق بالحزن. يفضل على حياته الآن، حياة السجن في زمن الدكتاتوريات.

(ــ أيها المواطن المنحرف الهدام . هنا بيتك . وزملاؤك المسجونون هم عائلتك . وستقيم فيه الى ما شاء الله . ولكَ منا في كلِ يوم عدد

من السياط وظفر يُقلع حتى تكتمل أصابعك العشر فتستريح الى أن تنبت لك أظفار من جديد •)

اللحظة التي فيها الهزيمة الحزيرانية وذلّها •• ما من عزاء • القهرُ كلمة تعبّر عن واقع من يواجه مثل مشكلة رائد العالم • وهي في قاموس الحياة تعني كل تعاسات الدنيا المدموغة بالهوان • ويكون فيها السبب من التفاهة بحيث لا يُحارب •

ــ حبيبي رائد • سأقدّم اليك القهوة فورا لأنني مضطرة للخروج•

ــ منى • لا قهوةَ •• لن أوَخر خروجك •

ــ لا تذهب وتتركني الآن وحدي سأخرج بعد قليل اذن •

دخلت الى غرفتها وعادت بعد دقيقتين فلم تجده •••

(يومَ حذّرها ــ حبي لكِ وكرامتي لي ــ قبِلتْ بحماس ووثّقت اخلاصها له بعهد وفاء أبدي • الميزان منصوب بكفتيه ، والدنيا ليست كما يريدها الانسان •• لذلك هو ثوري فردي التصرّف ، لن يرضى بأن تُسلكه في عداد العاديين • فهو حالة خاصة صعبة التعايش مع الآخرين•

ــ ألا تصدّقين أن فيَّ نارا تأكل ذاتها ؟

ــ أنا لم أوْقن بهذه النار يا رائد وان ارتضيت بها •)

« أنا وحبي وكرامتي مثل طائر فقد مقطَنه وصلب على أشواك الدرب•
يا حب ما أقساك !• »

منذ اليوم سيتشرد رائد العالم المتمكن في الارض والنظام القائم • واحد من وجوه المجتمع الجـائع للحب والثراء والخبز • صقر تهشمت مخالبه وصار حمامة • أسد أصابه عياء العمر •

اختفِ يا زهر الزنبق والليمون وامضِ الى برد الاصقاع يا نور الفجر• واهرب الى أعالي البحار يا ملاّح الحظ الاسود• ستمرّ العاصفة لتقتلع أحسن الرجال •

ــ رائد العالم • توشوشك الأنباء • أيها الواقـع في القفص • اذا مرت بك العاصفة بسلام فسترميك بغير أضلاع صلبة •

والآن •• أنت مدعو الى محكمة تنظر في أمرك :

ـ رائد العالم . أربعون سنة . ثري . مثقف . لا يمارس أعمالا .
انك متهم . هل أنت بريء ؟
ـ لا . ولست مخطئا .
ـ أنت قلت : ان المرأة جسد ؟ والحب جنس ؟ والصلة الحقيقيــة والأقوم هي التي بين الرجل والمرأة ، وهي غير طبقية ولا عقائدية ؟
ـ هذا صحيح .
ـ ومرت عليك ريح طوت غصونك؟ وصدفت امرأة كذّبتمفاهيمك فانهارتْ كما انهار سدّ مأرب ؟
ـ دائما توافه الامور تأتي على عظائمها .
ـ عندما يأتي الطوفــان ... يبني الانسان فُلْكا منقذا . ماذا صنعت أنت ؟
ـ بعد الطوفان . اسمعوا ماذا حدث يا قضاتي .
(... اننا لا نبيعك يا ذا القرنين الأَرْزَ خشبا ، بل أفلاكا حربية وتتقاضى منك عنها ثمنا اكبر .) . ـ من قلب لبنان بتصرف ـ لأمين الريحاني ـ
(... والآن أرسلتُ رجلا حكيما صاحب فهم حورامَ أبي ، ابن امرأة من بنات دان وأبوه رجل صوري ماهر في صناعة الذهب والفضة والنحاس ونقش كل نوع من النقش واختراع كل اختراع يُلقى عليه مع حكمائك وحكماء سيدي داود أبيك . والآن الحنطــة والشعير والزيت والخمر التي ذكرها سيدي فليرسلها لعبيده ونحن نقطع خشبا من لبنان حسب كل احتياجك ونأتي به أرماثا على البحر الى يافا وأنت تصْعِده الى أورشليم .)
ـ رسالة حيرام الفينيقي الى سليمان ـ من التوراة والتاريخ ـ
(... ولتَهْزَم صيدون وصور وبيروتوطرطوس وأرواد.وليذهب الوطن وليبقَ المالُ الى ان يأتي المستقبل .. يوم يجيء المسيح فيُدفع ثمن دمه ثلاثون من الفضة .)
ـ من كتابات محفوظة ـ

(••• حتى بنات لوط غرّرن بأبيهن • وتحوّلت أمهن الى قالبٍ من الملح الصلب • ولو ظلت حيّة لاتتابتها الغيرة العمياء ولقتلت بناتها المزاحمات •

ــ يعقوب بن اسحق صارع ربّه يهوه ولم يغلبه ونال منه على جنبه ضربة عصا علمت فيه •

ــ وراحاب محترفة الجنس المأجور • باعت عاي من العبرانيين الذين هدّموا أسوارها وأحرقوها بمن فيها من بشر وحيوان • ونجت راحاب وأهلها لأن لها كرامة الجواسيس •)

ــ من التوراة بتصرف ــ

(••• أمراء من لبنان جلدوا شعوبهم وأبناء عمومتهم ليجبوا المال للسلطان العثماني ، رفعهم المفهوم السائد الى مراتب المجد التراثي •)

ــ من التاريخ اللبناني ــ

(••• الهزيمة المسلسلة • تزكم الأنوف بروائحها • الاحتلالات الصهيونية • اللامنطق• السكون ــ حالة فيكل مكان ــ والزمن يمر••)

ــ من أنباء العصر ــ

المحكمة تستمع • وتسأله بعد كل كلامه :

ــ كيف اذن تضع كرامتك في احدى كفتي الميزان ، مقابل جنس انت وحدك اسميته حبا ؟

ــ انا احببت حبا لم اعرف له مثيلا من قبل • وربما لم يعرف مثل عنفه سواي •

ــ حكمنا عليك ان تظل في عذابك •

★ ★ ★

بعد ستة اعوام حب ، وجدها امرأة غامضة غير قادرة على فرض شخصيتها الذاتية مع زوجها • وبدا له وجهها بلا وهج ذهبي • مليئا بالكآبة والقلق • وعيناها تبحثان عن اكذوبة تعادل مجموعة نظرياته مما يجعله ــ لو صدقها ــ يعيد النظر في مفاهيمه •

انها منى اخرى غير التي يعرفها ــ الكراهية ايضا مثل الحب . بنـاء يقام حجرا فوق حجر . ليس قادرا على ان يكرهها .

عانقته . نهداها الصغيران ارتاحا الى صدره . شفتاها تنقلتـا على شفتيه ووجهه واستقرتا على شحمة اذنه .. مقدمة بالتأكيد ... ليست المصيبة كبيرة لان المرأة جسد ــ فهو عندما يريد يشتريهن بالمال ــ بـل لانها ليست جسدا فقط ، فقد كانت الرزينة .

ــ منى . ستعجبين مما اقول . ليس للموت طعم المرارة . ولا للحياة نكهة البقاء اللذيذة . النساء مع كل جمالهن لا يثرنني . ربما هذه حالـة من اليأس مرحلية ...

ــ انا في حالة ضياع . لا اقدر على فهم ما تقول .

ــ اعلمي اذن انني اتحطم مثل جوزة فارغة .

ــ وكنت تحطم قلوبهن ...

ــ بدأت تفهمينني .. وتعادينني .

ــ أنت واهم . لا اعاديك . أحبك .

ــ أنا أتألم ــ اتعلمين ؟ ــ باناقة . بكبرياء . مثل زهرة تجثت لتوضع في مزهرية . تعطش وساقها في الماء . تموت بتواضع ونبل .

واقف . ينظر الى شقة هدى . لا يرى .. في عينيه جمرتان . تبتسم. تدعوه الى مخدعها .. تسبقه اليه .. لا يتزحزح . تعود اليه :

ــ افهمي شيئا . بل انظري في وجهي واحفري في ذاكرتك الى زمـن آت طويل ما ترين وما تسمعين .

غاصت ابتسامتها . انسابت اليه نظراتها متكسرة حزينة باغراء غـير مقصود . فيها اثارة آسرة ..

ــ أنا عشت لك ردحا من عمري الواعي المسؤول وصار لي فيك حق ابدي .. وسيأتي يوم اجد فيه بابك مغلقا بوجهي ...

ــ لن تجده ..

ــ فأحطمه بقدمي . وسيأتي يوم فاريدك فيه .. ولن يثنيني أمر .

دنت منه مبتسمة . فتحت القميص على نهديها رفعت اليـه وجههـا

التصقت به • عيناها شبه مطبقتان • عانقته بنعومة واستسلام وهمست :
ـ انا لك الآن • ومتى شئت •• حبيبي •
انخفض صوته • ازداد مع ذلك وعيدا :
ـ وقد انساك • بل سأنساك • لكن ليس الآن • وربما ليس في الآتي القريب جدا •
ـ رائد • انا مريضة • لا ادري ماذا بي •• لا افهم ما يحدث لي • انا غير طبيعية •
ـ انت تحبين غيري • توزعين عواطفك بيني وبينه • من هو ؟
ـ قل ما تشاء ـ ابتسمت ـ وهذا غير صحيح •• انا سأجن •
لم تعد مبتسمة • وجهها • جسدها • حالات من الجمال والاثارة •• من العادية ايضا •• من البشاعة •• ليست منى • ابعدها عنه • وهو يشتهيها •
ـ أنت طبيعية •
ـ رائد • انت احسن مني ـ بمرارة وألم تقول ـ انا لا اساوي شيئا • اخرجني من حياتك •
ـ قد افعل اذا عرفت السبب • من تحبين ؟
ـ لا احد غيرك • لو كنت احب لصارحتك • اخرجني من حياتك •••
ـ لتخرجي من حياتي يجب ان تكرهيني •
ـ انا احبك فكيف اكرهك ؟! رائد •• عندما تغيب عني انساك ولا اشعر نحوك بأي حب •••
ـ لا اريد ان اخسرك • منى •• احبك • فلا تخسريني • انا لست انسانا عاديا تجدينه على قارعة الطريق • انا رجل متميز • وتعرفين انه لا يصعب عليّ اقتناء النساء الجميلات • هجرتهن من اجلك • وثمة بقايا لهن فيّ •• بك اتحرر منها • لا تعيديني الى ماض اكرهه • انا لا أصلح لاكون العوبة بيدي امرأة •

متألمة . وجهها قاتم . في حيرة . فجأة تبتسم كأنها استثقلت الحزن . ثم يرتدي وجهها سمات الغيظ .. ستنفجر .

ــ تذكري زحفك اليّ . انت بدأت . وانت صرّحت . وانت طلبت. ويومها قلت لك انني اخشى ان يحدث ما حدث .. وكنت ترتعشين عندما أتفرس في وجهك . تعيشين برضائي . وتشقين بغضبي . فماذا حدث ؟

ــ انا مريضة . انت احسن مني . اعصابي تنهار . انا حقيرة . تافهة . ارجوك . اخرجني من حياتك .

لا . لا يستطيع .. نهبت سيارته الدرب . لا يعرف تجربـة كهذه . لا يستطيع مقارنة ما يحدث بأية سابقة . مأساة حقيرة لبعدها عن المنطق . ونار تأكل نفسها فيه .. وكالشمس لا تنطفىء .



المصلوب ظلماً

تطلع رائد العالم الى السماء . اي الجِواء هذا ؟ خريف ؟ اصفرت القلوب وجفت من الروح . تسلل اليبس الى اوردتها مثل شجرة التين تساقط اوراقها تغذي الشوك والديدان .

مجمَّع عواطف عدد من الحسان . قطب جاذب في دائرتهن . يتحكم بقانون دوراتهن العاطفية . اذا اختل نظامه اختل مدارهن . لن تقهره امرأة الا بحساب سعادتها .. كالمنتحرة .

رحلته الحياتية ـ صارت اليوم ـ بلا مجد . مهاجرة .. تتبعثر فيها حبات العقد فالنساء اللواتي يدرن في فلكه هن حوريات الدنيا بجمالهن . يمسكهن بخيوط معقودة الى اطراف انامله .. يحركهن وهو مقتنع بأن ربه خلقه للعشق والالم الى جانب السياسة والمال .. لكن نكسات الحياة مستترة كالضمائر في الكلمات .

فاهم .. وبادىء الآن كما لو كان يحبو في مرحلة الفهم .

تلقته مريم مروعة وامسكت بذراعيه فربت على ظهر يدها مطمئنا والفجر يدنو .. كان متعبا وحزينا . ربطة عنقه مائلة عن عمودها . صورة متقنة الصنع للانسان المحطم بشراسة .

ـ هل أنت مريض ؟ هل تشكو من ألم ؟ يا الهي ! هذا الشحوب في وجهك كأنك طعنت في السن فجأة .

ـ ايه .. ايه .. النخلة يا مريم . بخلت بالعاطفة . منعت المحبة .. لم تعد قادرة على ان تساقط ثمار الرحمة . اه .. دنيا مليئة بالمفارقات ..

بالجحود • فالى اين الرجل المعتز بنفسه سائر ؟ جميع قيم رائد العالم هوت بلا كرامة •

ــ لا تيأس يا رائد • النخلــة غير بخيلة • ما تزال تحمــل العواطف والرحمة •

ذراعاها تحيطان به وصدرها يلاصــق صدره • خدها الى ذراعــه تؤرجحه بحنان ووجهــا مطبوع بالفرح وانعقــدت ابتسامة بلهاء كبدء ضحكة فوق شفتيه •

« يا رجلي • حبي • يا اقوى الرجال وأتعسهم » •

ــ رائد • ثمة رجل معذب مسبب ألم للآخرين ••

ــ للأخريات تقصدين ؟

ــ أنا اولاهن •

ــ من الذي جعلك متألمة ؟

ــ أنا أتعست نفسي وآلمتها •

ــ تعترفين بعد وقت طويل يا مريم •

استلقى بفراشه وهي جالسة بطرف السرير تداعب بأناملها المرتعشة ذراعــه وصدره • تعيش حلما عذبا • العصفور عــاد الى عشه • بعض الرجال بيوتهم أقفاص •

تمنى لو يطول بقاؤه في خدر حنانهــا ويتحول الوقت المحدود الى زمن • للسجن ــ القفص •• مبرّاته • يقيم حاجزا بين الانسان وعــالمه الصاخب • لكن البيوت لا تصلح للسجون • فليس كل قيّم عليها جلادا • للسجون انظمة واعراف وتقاليد وسلوك • وارهاب وتعذيب ، ولاقامــة جميع هذه الحــدود يتوجب احداث ثورة ثقافيــة ــ فيه ــ والا كيف ستتحول امرأة مثل مريم الى سجّان صغير صارم التقاطيع وحشي ، بيده سوط وبالاخرى قلاّعة أظفار ؟

أخرجه الوقت الذي قضّاه في غرفتــه مع مريم من ظنونــه وأفكار حبه • فالحب أنهى دور الموازين والاخــلاق والاعراف • قزّمها فلا هي ذات حجم طبيعي ولا هي من خصائص النفس العاشقــة • والحب يخلق

مفهوما ذاتيا انانيا وقسوة في الوصول الى الهدف ولا مبالاة ، وقوة بطرة غير متسامحة .

يود رائد العالم ان يتخلص من حبه .

★ ★ ★

منى ساعة جدار معطوبة . في حالة ذعر . من ماذا ؟

يقضي أمين لحظات مسائه في معاقرة الخمرة على مهل . يعتصر الليمون في صحن المقبلات ويجف كبئر انحبس عنهـا المطر . ويرى منى صارت — أكثر من قبل — باردة .. ثلجا لا يذوب .

تستاء صامتة من مرآه وهو يشرب على مهل ، يمضغ ببطء ولا قابلية ، لقمات الطعام . « يلعوسها » . « يتلقمص » بها .. كأنـه لا يأكل . او كأنه لا ينتهي من أكله . تثور أعصابها وتكبتها . هذا من شأنه . لا حق لها بالاعتراض عليه .. وتعاني مع ذلك من « نرفزة » تستهلـك هدوءها وتعذّبها .

رآها رائد واجمة . شاردة . أمين في عملـه . ابتسمت وشدت على يده ولم ترتم بين ذراعيه . اولادها في خارج الشقة . وهما وحدهما .

— سآتيك بالقهوة المرة التي تحبها .

— جئت لاتحدث اليك . لا تصرفي دقيقة واحدة في المطبخ .

صرفت دقائـق . ربما اكثر مما يتطلب صنعها . ثـم عادت فجلست قبالته وامالت رأسها فاستقرت نظراتها على الجدار وشردت كأنها نسيته .

« سادية تتلذذ بشقائي » .

— غبت عنك اياما فماذا كان شعورك ؟

— أنت لن تصدقني . لا ادري ماذا يحدث لي . لم اشعر بغيابك كأنني لا أعرفك .

— منى . ثمة في داخلي وحش شرس اسمه الكرامة . يتململ . بـدأ يفقد انسانيته . مهان . سينتصر عليك وستفقدينني .

— كنت أبكي من الشوق اليك ومن الغيرة وأسألـك أين كنت ومن شاهدت وأخاف ان تنساني . لا أحس الآن بشيء من هذا .

ــ تافهة أنت ووقحة .
ــ نعم . ساقطة أيضا .
ــ أنا لم اعشق ساقطة ..
ــ رائد . ارجوك . انا مريضة . انا لا أستحقك . ارحمني. أتوسل اليك . أنت احسن مني . افضل ...
ــ ان كنت مريضة فثمة علاج .. لكن ليس هــذا سببا .. أتعلمين انني اود لو تتظاهرين بحبي كما من قبل . انا لا اتصور أنني ارضى بأن افقدك . اخدعيني بتظاهرك الى ان استطيع هضم فكرة تخليك عني .
ــ لم أتظاهر من قبل . ولن اتظاهر الآن .
ــ أكذبي اذن الى ان اتعود على نسيانــك . اما الآن فأنا في حــالة نفسية سيئة . في وضع احتاج فيه لحبك . لعاطفتك . لا استطيع بحال ان اهجرك او تهجريني . افهمي قولي . افهميني .
تبتسم ــ تتقلقل الابتسامة . كأنها تخفيها وتبديها معا . لا تتمكن من الحالين :
ــ منى ، لم يكن حبنا عبثا . ولم يكن برغبتنا . انسقنا اليه بعاطفة فوقية سامية وقاهرة .. لا تحوليه الى غلطة تعادل الزنا . حبنــا تجاوز القوانين والاعراف . تخطى زمنا من الاعتبارات المتوارثة .. ارتفــع عن العار والفسق . فلا تقتليه فيصبح عملا ساقطا .
تسمع وكأنها لا تعي . لا تتزحزح عن موقفها .. سيقبلها . قال لها . نهضت تلقائيا . مسبلة اليدين .. دنت منه ولم تمد ذراعيها لعناقه :
ــ قبلني . لن احس .. انا مثل خشبة .
ضمها . لامس براحتيه ظهرها . داعب صدرها . استوعبت راحتــه ثديها . التصق بها وألصقها به . خشبة . قالب من الثلج .

★ ★ ★

أتى مد الزمن بأصابعه الاخطبوطية يشده الى النسيان . وثمــة الآن بينه وبينهن حاجز من الصقيع . عاش معهن زمنا . سيعيش الآن لحظات

مع ازواجهن المعتزين برجولتهم . بفحولتهم . بسيطرتهم على الزوجات . والزوجات . ما أمرهن ؟

انهن ــ بل عد على اصابعك ــ رائد العالم لا يعترف بالمصطلح الذي يعبر عن تطلع المرأة الى غير زوجها ويفيد بأنها ادخلت العشيق الى فراشها .

أولا : جميعهن خرجن على حدود الازواج . ثانيا : لا يعترفن بما حدث كأنه لم يحدث او حق لا يلومهن احد عليه . ثالثا : لا يعترفن بمدلول ذلك المصطلح . رابعا : لكل منهن اكثر من سبب .. اجتهاد .. احتكام . مبرر . خامسا : الفضيلة ونقيضها لا وجود لهما في قاموسهن .

الازواج لا يدرون . وأنت ــ رائد العالم ــ جمعتهم حول طاولة مستديرة فأحاطوا بك من كل جانب . امرك معهم عجب فقد يسندونك الى الجدار ويشكلون مفرزة اعدام صغيرة ... ربما .. فتريح وتستريح ويكون عزاؤك أنك تركت أكثر من ارملة صادقة الحزن .

جرى الحوار ...

(سعيد عارف ــ السيد البورجوازي ــ بلغت من زمنك القمتين : السن والثراء . قطب مالي جاذب في هذه المدينة وما تركت التشكّي والتباكي . خوف فقر . وهدى ؟ بدأت سيرتك معها وكان عليك ان تبتعد عنها وهي في الخامسة عشرة . فالعقاقير باتت اليوم لا تنفع معك . أتعرف ماذا يحدث للسيف مع الزمن ؟ يتحول الى حديدة صدئة لا تقطع . مثله الانسان . لن أدافع عن براءتي ، وانت لن تدعوني الى المبارزة . بل انتظر . ستلقون انتم المجتمعين هنا عليّ قرعة) .

(اذن !! ها . ها .. أراك عدت الى الحرية . تريد مني نصيبك من الثأر . وانت لا تعرفني وانا لا اعرفك ؟ فمن انت ؟ متسرع احمق . مزّقت صلات الرحم . اولغت في دم اختك ولم تنقذ شرفك . اسمك جوهر . ما افلح من سمّاك . جوهرة لا تزال جوهرة بالرغم من حمأة حاضرها . « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » . لو صحت المقولة ما رأيت آكلة بثدييها . القول قول والفعل غيره . تذبح الشرف لتنقذ الشرف . يا

جوهر .. الحماقة ليست من حق امثالك . الحماقة والزود عن الشرف — في زماننا — ترف . المترفون وحدهم لهم الحق بارتكاب الاثنين . مع ذلك تراهم عنهما منصرفين . انت شهم . مكابر . صف معهم الآن) .

(وأنت يا صابر . ستنال المراد . الجنة يرثها الصابرون . جمانة لا تختلف عن اية مراهقة . الا انها احبت رجلا ناضجا . هل قرأت في الروايات انهن في الليل يعانقن وسائدهن ويدغدغن الاغطية ويبكين كأي متألمة من وجع الضرس ويحلمن بالرجل ويعشقنه وحيدات تحت اللحاف ؟ هذا ليس في الروايات بل في الواقع ولهذا السبب كثرت الروايات . فاعلم اذن انها ستتزوجك فيضمكما سرير واحد . لكنك ستظل بين احضانها الى وقت طويل ، مجرد وسادة . جمانة من نوع — اعرف انا واحداته — يتزوجن فجأة ممن كن يرفضن . وذلك بسبب من العناد . النقمة . ثم بعدئذ يكرهن انفسهن على احتقارهم وربما استبدالهم بالتعويض العيني. صف الآن الى جانب هؤلاء فانتم في النهاية لن تقترعوا .. ستتكاتفون) .

(... هاه ها .. أمين الاسود ؟ بالطبع انت احق الجميع بالحضور . أنت البداية والنهاية .. محور الاحداث . اذا رغبت بالعدّ ... مادة اولى : انت ابله . جاهل . مدع . مادة ثانية : رجولتك . فحولتك .. فقاعة صابون . تنفّ وتنفجر . مادة ثالثة : صوت سيدك. منفذ اوامره. مادة رابعة ! مسنود الى سور هو منى مجاهد شاكر . بصك رسمي . وفي الواقع لست وحدك مالكها . أنت الشريك — ربما — الاصغر . بالطبع الاكبر هو انا . انت الزوج بحكم المصادفة . وانا الحبيب بالاختيار . بالانتقاء . بالاصطفاء . بالانتخاب الحر . تلك هي حكايتنا معا يا امين . بالمصادفة حدث لي ذلك . كما حدث لها . أليس لها — في النهاية — دور في لعبة الحياة ؟ لعبت منى دورها فكان الذي تراه . بحق ؟ بلا حق ؟ لا احد يدري . اما الضحية فهي منى . كيف ؟ الا تعرف ؟ وانا ايضا ضحية . شهيد حي . ربي خلقني وفيّ عنصر الحب كما في النار عنصرها الجوهر . اردت رفع حبي الى مصاف العذرية والسمو ، وان ابعد به عن الجسد . تعذبت بشراسة وظننت انني واصل الى ذلك . لكن في يوم ... لم يعد

ذلك ممكنا . انها حواء . وجميعهن في النهاية يصنعن ذلك . ولولا انهن هكذا لاندثر العنصر وغاب القمر . والآن يا امين .. انا لا اكرهك ، بل اشاركك في ألمك ، خسرانك منى فادح . وعزاؤك انني مثلك قد خسرتها . صَفٌ معهم) .

(حتى انت يا عزيز عبد الرحمن !؟ ولا ناقة لك هنا ولا جمل .. وجئت ترمي حجرك .. والمنطق ؟ تقول : الاخلاق والكرامة وقدسية المبادىء والنضال ـ المناضلون أنبياء او كَهَنَة ؟ من يصدق ؟ أنسيت يا مادي النظرية هذا الطين .. الوحل .. القوانين الطبقية ؟ حسنا . عندما تغير العالم جئتني لنتحاور ونحتكم . اما ان تجعل المبادىء قانونا ـ وهي فقط مبادىء ـ على قديم قديم ثماره التخلف وتجعل منها الحكم كما « النار بين المعادن » فهذا لا . أليس ثمة في مدينتكم الفاضلة رجال ونساء ؟ ام ان الرجال فيها قد جففوا عواطفهم ؟ والنساء .. هل غادرن كونهن نساء ؟ اذن ـ من حضر السوق عرف ما يصنع ـ فارم بسهمك مع هؤلاء او فاذهب) .

(... مريم ! مريم ! ماذا جئت تصنعين ؟ اما ترين مسيحك الصغير يصلب على باب طرطوس وانت تنظرين ؟ « يا أمرأة لم تأت ساعتي بعد » . مالي ولك ؟ . « ابعدي عني هذه الكأس » . اما ترين ايضا هنا صف الخصوم القضاة ؟ قريبا يصيرون جلادين . يتآمرون الآن على من اسعد نساءهم بعد ان فشلوا . اتشاركينهم في غضبهم ؟ ولو انصفوا لبرأوني ، فان أيا من هؤلاء الاشاوس لأرحم منهن . والله وطأة قضاتي لأخف علي من حبيباتي . تذكرين يا مريم كيف كن يهدّمن سكينتي . يفرضن علي اراداتهن . يشعلن رغباتي . يفجرن دمي ـ هذه من نافذة . وتلك من شرفة . واحدة في الطريق . واخرى في سيارتي . وواحدة برسائلها ومثلها في شقتها . ينتهبن عواطفي . يتوزعن بينهن احاسيسي ويسلبنني استقراري. اني كفّرتُ بارضائهن عن ذنوبي. وها أتى ازواجهن ليصلبوا على سور طرطوس من كان بريئا . أهذه هي الفضيلة يا مريم ؟ قولي لهم .. انك وحدك قد دفعت بآلامك كل حسابي ، وبعذابك كفّرت عن

اغلاطي • اخبريهم عن ليالي الشقية عن ايامي العصية ، فانا ايضا جرّحت واذا واحدة تقاسمها اثنان فثلمت ، فكيف بي تقاسمتني نسوة عدة فتوزعت عليهن ؟ انت يا مريم •• لك ان تختاري ، ففي البلد ثمة حرية كما يقولون، فاختاري بين عفوك وقتلي) •

انفضّ الاجتماع وراح كل واحد في حال سبيله •

★ ★ ★

استقبل سعيد عارف محاميه الاستاذ ابراهيم التركي والكاتب بالعدل، وأجرى معهما حوارا طويلا حاول فيه كل طرف اقناع الآخر بوجهة نظره• وفي النهاية كان رأي سعيد هو النافذ • وهذا يؤكد ان العجوز لم يعد مطمئنا •• وان الريبة بهدى ، صارت في نفسه صخـرة كبيرة لا يفتتها عفو ولا تسامح •

قال محاميه ووجهه ناضح بالخيبة :

ــ ايه • ايه •• وتمثل بالشعر • « لا يصلح العطار ما افسد الدهر » •

وافق الكاتب بالعدل على كلامه ، وخرج الاثنان لينفذا ارادة الرجل الناقم •• فللحرمان صوت وحشي • حرمانه بالرغم من ثرائه •• كبير •



انها مادة بشرية

الليل مأخوذ الخناق بظلمة لا يشقها ضياء وقد اعتكر منذ العصر جو هذا اليوم منذرا بشر مجهول . الا ان الطبيعة تتلقى صدمات الجواء مثل ترس كبير فتحولها الى ريح ـ مطر . رعد . برق .. ثم يستكين كل شيء .

ونامت طرطوس كأمرأة محافظة اشبعت رغباتها وظلت كوة مضيئة فيها « ديك ذهبي » أحمر يغمز باحدى عينيه باغراء ..

وقف امامه ينظر الى الحروف المضيئة المتحدية ، وبدا وجهه قشرة صخرة عتيقة وعيناه الوحشيتان متعبتين .

(السجن والسجّان والقضبان. الحنان الوحيد كان النور المتسلل من الكوة في القاووش .

ـ انت جوهر . ادخـــل . فمنذ اليوم انت رقم . بلا اسم . بلا شخصية بلا عنوان . ستنطح الجدار كلما تقت الى نسمة بحر . ستأكل الى مائدة اسمها الشرف . وتسبح بحمد سيد اسمه الشرف . وسيكون هذا عزاءك الى ان يأتي قدرك باليوم الاخير من محبوسيتك) .

البار الاميركي في الركن . صراع الديكين على الجدار . القنـــاديل الملونة . ساهر ليل فرغت كأسه وطفح بالوهم رأسه يصفق طالبا المدد .

اختلط السائل بذوب الثلج ـ سنوات بغير شراب . لذعه الكحول . حرق صدره ـ انتفض وتجرع من جديد .

(كان ثملا وواعيا . يستطيع التفكير بعاره ورؤية العيون تنظر اليه. والايدي .. الاصابع العشر .. وهو تحت الشمس بلا غطاء . كرجـــل عاري الجسد في الشارع ـ العرض ـ غال ـ من استرخصه ذلّ . عيون

لبنان كله ترقبه . هل هو جوهر حقا ؟ هل سيغسل شرفه الذي لوثته تلك الشقيقة ؟

تتالت الطعنات . الاصابع المشيرة تراجعت . العيون عادت من تنظرها .

ـ تفضل . من اليوم حتى عشرة اعوام) .

بعد ثلاث كؤوس تهادن النور مع الظلام . لم تأت أين هي ؟ سأل عنها . هن ثلاث . أيهن ؟ يراها من وراء القضبان في العام مرتين او اربع مرات . ما شكلها هنا ماذا تلبس ؟ غانية بشكل آخر . ثياب ضيقة لماعة مكشوفة الفخذين والصدر . لكنه قد تسلمها مباشرة من بيت ابيها وما سمعت بوجود الملاهي .

أتت الشقراء . ابتسامتها متكلفة . وفي وجهه شراسة وضيق لم يعجباها فتحفزت للنهوض فأمسك بمعصمها فأجفلت فضحك باقتضاب مكشرا :

ـ اين جوهرة .. عاهرة مثلك تعمل هنا ؟

قفزت واقفة وهرولت مبتعدة ورجع اليه النادل يعلمه ان ثمة من يريد التحدث اليه فليتبعه ، وسار معه فادخله حجرة جانبية واغلق وراءه الباب فكان امام رجل قاسي الملامح نفاذ النظرات جاف الاسارير . قوي المظهر . نثار ثلج خفيف خضّب فوديه ولم يعبث بشبابه .

ـ من أنت ؟ ماذا تريد مني ؟ هل أنت شرطي ؟

ـ وهل فيّ شيء منه ؟

في قفص ترويض الوحوش يمدون ايديهم الى السبع . رائد العالم يتقدم من جوهر وقد اغرق هذا يده في جيبه . سكين ؟ مسدس ؟ ربما .

ظاهرة بشرية قديمة . حيّرت العقول . ما تزال معلّما بشريا غير حضاري : الشجاعة .. ما تكون ؟ خدعة . غرور . تورط . قوة صماء بغير ذكاء . تهور . جنون . مهمة شرف . محاولة انتحار . عنفوان كرامة . أكذوبة متسترة . نبل ؟ اي شيء هيَ ؟

ـ تريد جوهرة ؟ سآخذك اليها .

ابتسم رائد وبدا له اللحظة وديعا جذابا مهيبا . فارقته شراستــه . سبقه الى مغادرة الحجرة فلحق به . وتوقفت بهما السيــارة في الطرف الشمالي للمدينة . امام بناية بثلاثة طوابق .

ـ في الاخير . تسكن .. سترحب بك . ليست خائفة .

ـ مهما يكن من امر فانها خاطئة .. وعندي .. الخاطئة ...

ـ طلق ناري او .. طعنة بسكين ؟ طبعا . والعدالة تنفذ فيها .

ـ صحيح . ربما . لكن .. هذا صحيح .

ـ أتدري ماذا ينقصنا لنعرف الصحيح ؟ الغباء . الغباء . امــا اذا تعلمنا وكنا فيعداد الاذكياء رفضنا كلهذه المفاهيم عن الصحيحوتحكمنا بردود فعلنا وعارضنا هذا المعهود الدارج . فما الصحيح اذن ؟

ـ الصحيح الحفاظ على الشرف .

ـ انها تعرف انك آت وسلاحك بيدك .

أخرج جوهر يده من جيبه . فتح قبضته ..

ـ احتفظ بسلاحك واستعمله ان شئت فهي غير مهتمة بالحياة . وقع خطوات وحركة في الباب ونور اضاء وانشق عن وجه ...

(مثل البدر وجهها . سمراء صغيرة . سوداء العينين . بريئة . احبها فخطبها من ابيها . لم تكن تعرف شيئا . تزوجها واخذها الى بيته وتوالى مجيء الاولاد وفرقهما الزمن الثائر للشرف والعرض) .

« مثل قمر اسمر قديم قضمه التنين مرارا ثم بصقه. ألف رجلعرفت العاهرة ، او اكثر . شرف الرجال في عرضهم » .

ـ تراجعت مولية لهما ظهرها . رائد بقربه يكاد يلاصقه ثم استدارت تتفرس في الاثنين . هي طرف . والرجلان طرف . رفعت رأسها . الشجاعة تلك الظاهرة كانت فيها من يأسها .

★ ★ ★

ـ لا شك انك تتساءلين يا منى . لماذا اتيت ؟

ظل ابتسامة كالغبار على وجهها . حاجباها في استغراب :

ـ انك تعقد الامور يا رائد .

ــ هل الامور معقدة ؟ عجيب ! وبهذه البساطة ؟!
أتت فورا بالقهوة • ابدى استغرابه :
ــ كانت مهيأة • لا تشرب اذا لم يرقك هذا • أتعرف من تلفنت الي تسألني عنك ؟ هدى • وليست هذه فقط • كان هان الامر • اتعلم من كانت الاخرى ؟
ــ غير مهم• هدى• جمانة• جوهرة• ربى• سحر •• مجد•• لا يهم•
صاحت بحنق :
ــ مجد •• وربى •• وسحر ولا ادري اية مضروبة دم اخرى • فمن هنَّ ؟
ــ هل يهمك ان تعرفي ؟
دخلت الى غرفتها مستاءة رافضة ولم تعد • ومرت دقائق ولا صوت ولا وقع • وجدها مسندة الكتف الى خزانة الثياب ووجهها بين راحتيها وظهرها اليه • واحست بأنفاسه ولم تستدر • امسك بكتفيها • ملساء حارة • عطرة • مثيرة •
استدارت اليه وصارت بين ذراعيه وصدرها بنافريه اللطيفتين المتباعدين كأنهما اختصما ، مضغوط الى صدره • لامس براحتيه كتفيها وظهرها وخصرها الى تفاحتي وركيها النافرين بردفين غير غليظين •• وانزل يديه •• وابعدها عنها •• لن يحدث شيء • فانزلت يديها عن كتفيه •• هز برأسه متفكرا غير متفهم •
ــ بماذا تفكر ؟
ــ بأمين •
ــ مسافر وانا افكر بمريم •
ــ ليكون التعادل والعمل بالمثل ؟
ــ بل لانها تلفتت الي تسألني عنك •
(ــ ماذا دهاك يا مريم ؟ رائد لا يأتي في غياب أمين •
ــ وماذا في الامر يا عزيزتي ؟ ــ وهي تضحك ــ نحن في مجتمع راق • انا استقبل اصدقاء رائد في غيابه • لا تحملي الامر محمل الريبة •

لكنني قلقة عليه • مضى يومان من غير ان يأتي الى البيت • ولا اعلم اين هو متغلغل • فهل تعلمين ؟

ـ لعله مسافر • فانا لم اره منذ شهر تقريبا •

ـ شاهده ابنه اليوم في سيارته ، وكان ذاهبا باتجاه بملكة •

ـ اطمئني اذن • هل كان معه في السيارة احد ؟ من اصدقائه اعني ؟

لم يعجبها السؤال • وبدا لمنى انها كظمت غيظا :

ـ بالواقع ليس خوفي من زياراته للسيدات المعروفات بالاتزان والفضيلة • انما خوفي عليه من الساقطات • ولا يخفاك يا عزيزتي منى •• بنات الحرام كثيرات وان تسترن بالزوج • أليس الامر كذلك يا عزيزتي ؟

ـ اجل • الامر حقا كذلك يا عزيزتي) •

قال ببرود :

ـ اجل • ان الامر كذلك • وبعدئذ ؟

ـ انتهت المكالمة •

ـ لا غالبة ولا مغلوبة •

ـ يرضيك ان تتنازع عليك النساء ــ وبنبرة حادة ــ أين كنت ؟

ـ عند احدى بنات الحرام •

ـ ما ناقص لك غيرها ! بنت الحرام عند مريم هي أية امرأة تحبك •

ـ لم تنلك شتيمتها •

ـ وهدى بكل صفاقة • قالت ماذا ؟ أين رائد العالم ؟ فانتهرتها • وما شأني انا به ؟ قالت : لا شأن لاي منا به • ومع ذلك فانه يشغلنا جميعا ويعبث بحياتنا ويتعبنا • سألتها : اذن لماذا تبحثين عنه ؟ قالت لانني اريده في امر هام •• ان سعيد •• لكن • ارجوك •• بلغيه انني اريده لامر • فهو في النهاية يضيع ويلتقى عندك •

هز برأسه وسأل :

ـ وبعدئذ • ماذا ؟

ـ طاب لك الحديث ؟! انتهت المكالمة •

ـ بغير تعادل • انتصرت عليها • اه •• اني اطلت مكوثي •

ـ لم تخبرني اين كنت . حقا اين ؟ ـ بمثل الصياح الحانق ـ لماذا لا تقول ؟

ـ ماذا حدث .. منى ؟ ما اهتمامك بي ؟ مع ذلك مريم قالت انني غبت يومين . لا . بل غبت ثلاثة ايام .

★ ★ ★

(ـ لا افكر بالهرب منه . لا اخافه . لكنني خجلة . سيراني في الملهى أجالس الرجال وبهذا الهندام .. يا لعاري !

ـ اذهبي الى بيتك وسأنتظره هنا الى ان يأتي فأجري معه حديثا اقرر بعده ماذا اصنع .

ظهر في اليوم الثالث . وكان رائد يتردد الى الملهى باستمرار . ويقضي اوقات راحته في فندق بملكة يتصل بالملهى هاتفيا :

ـ انا رائد العالم . من رواد هذا الملهى .. حسنا . لنتصارح . امامك خيار اولي من بين طروحات كثيرة . الطلاق وهو عقلانية بغيضة . الصفح .. فأنت وهي ضحيتان لقدر غاشم هو النظام السائد بالعقلية البائدة . او ان تقتلها فتريحها وتعود الى سجنك او الى المشنقة في الجرم الثاني . ويتشرد اولادك . والصبيتان . طبعا ستزورانك في السجن كما كانت تفعل امهما . وستتشردان الى ان يقتلهما اخواهما عندما يكبران) .

سألته منى : وبعدئذ . ماذا جرى ؟

ـ تقابلا في الشقة . وجها لوجه . وانا بقربه مستعد لاي طارىء . نقّل نظراته فيّ وفيها . في أرض القاعة . في الاثاث القليل الرخيص . في منفضة السجائر . قدمت له سيجارة . تناولها بآلية ولم يرفعها الى شفتيه. وتوقعت ان يخرج سلاحه .

(جوهرة في زينتها الكاملة بغير تبرج الملهى . نضيرة وشاحبة قليلا . شفتاها جافتان من خوف ـ ربما لا ـ صدرها عارم . ينظر الى صدرها . رجل يتفكر الماضي . يستعيد حلاوته ـ صدرها دليله اليه . مشدوه . مأخوذ . في عينيه رغبة .

الانثى الآن اجمل . سحرته . غاضب وسيلين . من علم الانثى كل

هذه الفنون !؟ بدت ضعيفة مستسلمة • بحاجة لمن يحميها) •
ــ قولي يا منى • من جعلها مغرية وان لم تكن جميلة ؟ فاتنة وان لم تكن حسناء ؟ أليس الرجل بما في نفسه من رغبات ؟ ان دمه ليفور وينخض ويحمر فوق احمراره فيرى المرأة التي يحب مثيرة آسرة ساحرة •
ــ اذن • هكذا نظرتك في المرأة غير الجميلة ؟
ــ وجوهر سلك سلوك الرجال المتمدينين • الحضارة • تلك الاعجوبة • فيها يتغاضون • ويغضون النظر • مقدّمة للصفح •
ــ انك قمت بعمل رائع • ستغفر مريم لك غيابك •
ــ وهدى •• هل ستغفر ؟
صاحت بغيظ وانتفضت رافضة ما تسمع فضحك :
ــ تغارين منها ؟ أهو الحب قد عاش ؟ قام من بين الانقاض ؟
ــ لا ادري ــ بأسى وهدوء ــ لا اعرف ماذا يحدث لي •
« لن افقده •• انهن يتربصن بي ليأخذنه مني • مجنونة انا • أفرّط به • أين ذهب حبي له ؟ ما زلت فخورة به وأريده معي » •
اقتربت منه • سترضيه • ستمتعه •• الا يريد ؟ ثقته بنفسه • بعواطفه التي مزقتها •• سيمر وقت ••• قبل أن ••

★ ★ ★

الظلام ينقّل خطواته بتثاقل ليرحل • دخل بيته مترنحا فاحاطته مريم بذراعيها فاستسلم لها وهو الآن حالة نفسية موزعة في مهب القهر والانتصار • وضمته الى صدرها • سيستكين ويركن لدفء عواطفها • في وجهها نقاء الانثى الساذجة وبقايا جمال يتوقد :
ــ غيابك اقلقني • ماذا بك ؟
ــ القلق يطبع العصر كله ، فهل تكتفين بقولي ؟•• ايه • ايه •• يا مريم من جعل المرأة جميلة مغرية من غير ان تكون جميلة ، هل تعلمين ؟
ــ حبها لحبيبها يا رائد) •
نهض بعد ان نام ساعات • تناول سماعة الهاتف في غرفة مكتبه :
ــ هل أنت بخير يا منى ؟

ـ رائد . انا بانتظارك . هل ستأتي ؟ لماذا تلفنت لي اذن ؟
ـ نزوة مزاجية دفعتني لسماع صوتك .
ـ حسنا .. أتعرف بماذا افكر الآن ؟
ـ أن تصنعي ما سأصنعه انا .

اغلق الخط . تأرجحت السماعة بيدها . علائم الرضى على وجهها . « يحبني . يتألم بي . ليكن . وكنت خائفة . الاولاد يكبرون . بدأوا يدركون . يتساءلون بغير وضوح . وامين يتفرّس فيّ .. انتصرت على رائد العالم . يجري ورائي وانا واقفة . وتجري وراءه جميع النساء . أعذبه وهو متمسك بي. أ ُشقيه.. تحققوعدي له. ان أنسيه نساء الدنيا جميعا . قد حدث ذلك » .

(ـ انت وانا ايامنا الآتية . هل اضعت شيئا يا منى؟ لماذا انتحزينة؟
ـ اضعتك انت يا رائد فاضعت نفسي وفرحي ـ سعيدة من لم تفقد شيئا ، والوطن فقد اجزاء . والقيم ضياءها ـ لا تهمني القيم ولا الوطن الذي هو للجميع ـ انت سادية يا منى . تتلذذين بتعذيبي . ومازوكية تتلذذين بتعذيب نفسك) .

الهاتف تحت يدها . منذ ايام لم يأت . لم يتلفن . اين هو ؟ مع أي منهن ؟ الغيرة الشرسة . ستسأل مريم عنه .. ألم يعد الى بيت الطاعة ؟ رفعت السماعة ..

ـ انا يا رائد . اخيرا وجدتك . انا بانتظارك . مريضة ... محمومة. احبك . احبك . احبك .

ارتمت بين ذراعيه . محمومة. ذابلة، فحملها الىغرفتها ومدّدها فوق الفراش . وتلمست ذراعيه وتلمس صدرها .. برفق وشد فوقها الغطاء .

★ ★ ★

استجوبوه في دمشق وقال لهم انه موظف في الشركة مأمور . وما حدث كان خارجا عن نطاق مسؤوليته وارادته . كل شيء في البناء قام وفق المواصفات المتفق عليها . وتحت مراقبة المراقبين الفنيين . وعن سعيد عارف قال انه مريض ممنوع عن الكلام وهو ليس مسؤولا عن العمل .

استبقوه ريثما ينتهي التحقيق ، فجعل يقضي لياليه في ملهى الكروان .

تجالسه دانمركية شقراء فارهة • تؤدي ادوار عري • فيبدو لون بشرتها تحت الاضواء المتغيرة ، اصفر مشوبا بالحمرة •• هذه تشاركه شرابه ومحتويات جيبه بنشاط وحسن تعامل وتنسيه في الساعات الاخيرة من الليل ازعاجات التحقيق •

وانه ليحسب •• ان ثراء الدنيا كله ، لا يستحق يوما واحدا من شعوره بالقلق وهو ماثل امام المحققين • بالرغم من انهم رحماء به هو المتهم بالغش في البناء وبتخريب الاقتصاد الوطني •• اكثر مما كان امثالهم ، رحماء مع المناضلين في سبيل الجماهير ونهوض الوطن •

الدانمركية • شعلة وليست امرأة فحسب • بين يديه •• وتلك •• منى •• تستلقي •• فيأخذ بازاحة ثيابها عن فخذيها • وتغوص انامله بينهما في قمة المثلث • ينزع باقي ما عليه •• لا تتحرك • لا تصوّت • وينتهي كل شيء بدقيقة ••

يتكرر هذا في كل مرة •• متباعدة المرة عن الاخرى او غير متباعدة • انما التكرار ممل • نمطية واحدة تزهق روحه • اما الدانمركية فتأتيه متباطئة وقد اولعت النور • تتمايل •• تنزع عن بدنها ما ترتدي قطعة قطعة حتى تكون مثل •• لا يهم •• عارية • متجردة من كل نسيج •

تنسيه الرتابة • فنانة • تكر وتفر • تعاركه • تتوجع في انقضاضاته • تتأوه تعرق • تشقى لتصل بنفسها وبه الى اللذة • تنال نصيبها من جسده وهي معه • وتنال مالا منه • منى بالمجان وتلك هي الميزة التي تجعلها مزاحمة للدانمركية •

واليوم • أبلغوه ان التحقيقات قد انتهت وان بمستطاعه الانصراف الى بيته • اطمأن ولم يطمئن •• سيرى فواز بك ـ لقبه ثابت بالرغم من القرارات الاشتراكية ـ فهو الذي سيدبر الامور بوسائله الخاصة • لا يكفي ان يدافع امين عن سعيد وعن نفسه بالكلام • فهناك وسيلة أنجع •• دفع له دفعة على الحساب • وسيدفع عندما يعلن عدم مسؤولية الشركة عن انهيار البناء •

يكون امين بهذا قد اخلص لسيده سعيد عارف • لكن لا بأس في ان

يبقى يومين آخرين بدمشق بحساب ولعه بالآنسة آريكا الدانمركية المبدعة في مخدع الغرام . تمتّعه بالطرق المتقدمة في عمل الحب . كله عمل ...

وآب اخيرا بعد اربعة ايام تلفن خللها لمنى يعلمها ان التحقيق لن ينتهي الا بعد وقت . وسيتأخر . ابق ما شئت ـ قالت له ـ ولا كلمة عتاب او شوق .

« هذه امرأة لا تظهر عواطفها . تحتفظ بحرارة حبها لي في قلبها . ومع ذلك لا بأس . لا تتقاضى مني شيئا مما تتقاضى تلك الدانمركية الشبقة » .

طمأنها عن التحقيق . فواز بك سيدبر الامر . كل شيء في هذه الدولة ما يزال يدبر . وهذا من حسناتها ..

توترت حباله الصوتية . كأن في صوته انحباسا . تناول لقمة عن المائدة . علكها متماهلا . « تلقمس » بها . طقطقت بفظاظة في حنكه . تنقوزت الكلمات المرددة المعادة . لا جديد ـ الاسطوانة المكررة .. نفد صبر منى . لا تسمع ومجبرة على ان تسمع . ثارت اعصابها وكبتتها . لا ينتهي كلامه . وينسى .. ويسكت . ويشرب . ويمضغ كأنه قد نسي ما في فمه فيطبق شفتيه ..

متضجرة . ساكتة . جالسة وفائرة الدم من الغيظ . تكرهه . تحتقره. تافه . تستطيع الاستغناء عنه تماما .

عيناه اتجهتا الآن الى فخذيها . امتدت يده . قرصها بغلظة . يثيرها . يحرك رغبتها .. غريزتها . شهوتها . يقضم شفتيها . تمثل الآن دورها عن غير قصد . لا تفكير عندها في الامر . لا ظل لها .

سارت وراءه . أطفأت الضوء استلقت ، حيوانة أليفة لا ترفض . لا تشارك . فرك ثدييها باصابعه . توجعت . علك شفتها . انفاسه كريهة . صرخت . ابعدت وجهها . يداه تعركان بدنها . تتغلغل تحت ثيابها المرفوعة بين فخذيها . عقدت ذراعيها فوق رأسها . نصفها منفتح .. امرأة كسول ـ فكر ـ تنال بغيتها بلا عناء . انتهى .

قامت الى المغسلة .. افرغت ما في جوفها . غسلت وجهها وسائر

بدنها • وفي ليلتها هذه لم تنم • افكار شرسة تفترسهـا مكمّلة عمليـة افتراسه لها •

★ ★ ★

ـ ثمة سبب يدفعني لزيارتك فلا تظني انـه الحب ـ ففي مرات لا اشعر نحوك بغير البغض واراك مجردة من كل جمال • حبي جعلك جميلة، وقبل ان احبك كنت لا تعتنين بهندامك وزيـك • كنت مهملة الى حـد يبعث على الضجر •

ابتسمت • فكرت : يقول الحقيقة •• ويحبها •• لا يكرهها • مرتدية ثوبا حريريا فضفاضا مشقوقا فوق صدرها • جالسة قبالته • لفت ساقا فوق ساق • تهدل الثوب البيتي فانزاح فكشف جانبا من فخذيها • لم تخفهما • ثدياها اذا ما انحنت او مالت اطلا كرتين منفصلتين متحفزتين • عيناها مبحرتان في سحر غامض • تجذبه • تؤثر فيه • جامدة النظرات ••

ـ ومع ذلك فانالك يا رائد • ولك مني ما تشاء عندما تشاء •

تهز ساقيهـا هزا خفيفا •• تراقص نغما خفيـا ، فخذاها مشرقتـان ناعمتان ، اهدابها تكسرت باستسلام واجفانها مسبلة ، وشفتاها ظامئتان • تقلّبهما على بعضهما بحركة شبه مخفية وتجمدان • جسدها حار ـ يفكر رائد ـ يطلب حبا • ترخي سحابة من سيجارتها تثير ضبابا وعطرا •

دنت منه • أرخت تنهيدة ارتياح مثل تأوه لذيذ • تتمطى • تريـد • مـن يجرؤ على رفض رغباتها • مالت صوبه ، ثـدياها ظهرا ببرعميهـا الاسمرين ، منفلتين وثابتين ، يرتجفان بعنفهما • تدعوه بكل مسام بدنها • برغباتها المتفجرة • بشبقها الممنوع عن امين • بذبول عينيها • دعوة مثيرة الى فراشها • ستمتّعه • يعرف •• بالشكل الذي يريد • لا تعرف ما يريد

ـ يقول لها ـ تجهلين •

اطبقت اجفانها • مسترخية قبالته • وهو يقترب منها على مهل • يقف وراء مقعدها • اناملـه تغلّس في خصلات شعرها المنساب • تنحدر الـى جيدها •• فوق اضلاعها •• خصرها اللين النحيل • بطنها الاملس الضائع •

تلامس ساقيها . ركبتيها . فخذيها .. وتتململ تغلغلت الرغبة في حسّها اليقظ . تتحرك . لا تستطيع .. ستنهض معه .. تمضي معه .

يدخن بهدوء . بقسوة . اهتز كل بدنها . متغطرس . حقود . ادركها البكاء .

ـ انا قلت انك لا تعلمين ماذا اريد .

وهو لا يعلم ماذا تريد . ماذا في خاطر الانثى اذا ما رفضت ؟ الافعى اذا ما دعس ذنبها ؟. ـ انها المرأة المثارة ـ لأشد خطرا عندما لا تجاب .

يتعذب بشوقه اليها عذابا بعنف الموت . رغبته فيها اقوى من رغبتها فيه . ينتحر في الرغبة المغلولة . في امتناعه عنها . حماقة الرجال . تلك صورة لها يرسمها بدم قلبه .

غادرها . نظرت الى البناية المقابلة فلم تر احدا . هدى تخلى عنها رائد ـ تشك في الامر ـ ويحاربها الزوج .. بدأت دولتها تدول .

لا تدري منى ماذا تصنع لتنفث حقدها . ستنشب اظفارها في مرآتها .

★ ★ ★

احست هدى بما يبطن زوجها فقامت بزيارتين لمريم فلم تر رائد ، وقالت لها مريم انها لم تره منذ يومين . فهل تعلمين اين هو يا هدى ؟

ورأته بعد ان عاد امين من دمشق ، فقد استدعاه سعيد عارف واختلى به مدة ساعتين . وعندما خرج من غرفة المريض كانت معالم الغضب في ناظريه .

ـ أبحث عنك منذ اكثر من اسبوع وانت لم تتصل بي ...

ـ هدى . الموقف خطير . تذرعي بالصبر وعامليه بالحسنى . لا تتصلي بي سأتصل انا بك . اعرف ما يجري . مفهوم ؟

آمر اللهجة . وهي موافقة الا ان تلين لسعيد . وفي اليوم التالي زارت مريم فلم تجد رائد في البيت . وكانت مريم كلما عرجت هدى الى الحديث عن رائد في امره مع زوجها ، تغير الموضوع . وتقول لها ببساطة بريئة القصد . انها محظوظة مؤخرا فصديقاتها يزرنها كثيرا ولا تعرف كيف تعبر لهن عن امتنانها .

وعندما رجعت الى شقتها وجدت امين عند سعيد وكان يؤكد لــه ان زمام الامور لم يفلت من ايديهما • وما من شيء ضائع للآن • التحقيــق لصالحهما وثمة ن يعمل لاخراجهما من المسؤوليــة كما تخرج الشعرة من العجين •

المريض المقعد متفائل ومتحمس • فــوق زوايا فمه ابتسامــة خبيثة جشعة • شاهدتها عندما دخلت عليهما فانقطــع حديثهما ، فسارع سعيد يأمرها بالخروج •

بلغت الخامسة والعشرين • تجذبها الحياة البهيجة • لم تعش زمنهــا الشاب • طاقاتها مكبوتــة • الصبا • اي شيء هــو ، اي سعادة !؟ أي تعاسة ؟ شبابها عدوهــا • جمالها عدوها • رمياهــا في احضان العجوز الاناني •

« ستعــذرون هدى يا قضاة الحق ، فانهــا الآن صارت تدرك معنى الوجود •• والخريف يريد الحلول مكان الربيع في نفسهــا • ترفض • تقاوم • تثور • القانون الذي طبقوه على بنت الخامسة عشرة • لا يمكن ان تقبله بنت الخامسة والعشرين • اعذروها فأول علاقــة حب بين رجل وامرأة لم تكن في ظل قانون الزواج » •

تكره هذا الزوج المعتدي • اشتراها وهي لا تــدرك • مسؤول عن انزلاقها •

« رباه انا ضحية • لست خاطئة • أعِنِّي يا الله وانزع من كياني روح صبوتي ونار صباي• وجردني من كل حس الانثى الذي أوجدته فيَّ » •

في غرفة الناقه الآمل بالعودة الى عالم الاعمال والصفقات، عاد الحديث بين الرجلين الى حرارته • وعندما خرج امين التقى برائد العالــم الذي وصل الآن :

ــ أمين ، هل علمت بما صنع ؟

ــ انها في نظره زانية •

ــ وما هو برهانه ؟

ـ ما هي عليه من صبا وجمال وما هو عليه من شيخوخة وعجز .
ربما .
ـ ربما ؟ أهذا منطق ؟
ـ سعيد مصمم على حرمانها وسيعين احدهم وصيا على اولاده وماله .
ـ تلك مأساة اوجدتها بالاصل الحماقة . وتعالجها الحماقة . المنطق ينهزم عندما يسترسل الانسان الى اهوائه فتقع المآسي فيتداركونها بأشرس الحلول .
(ـ لكنك تكبرها كثيرا يا سعيد وهي بلا رأي . طفلة او تكاد . فكيف تزوجتها ؟
ـ أجزلت لاهلها العطاء واغمرها بالنعم . بالذهب . صغيرة . اربيها على مزاجي وذوقي . اعجنها بطريقتي ، فهي مادة خام غفل من الاحاسيس المحددة والمشاعر الناضجة . غير معبأة بالمفاهيم .. اجعلها كما اريد .
ـ لكنها مادة بشرية وليست مجرد مادة !.)

بدء البدايات

لرائد العالم آراء مثل فلسفات غير مقام عليها البرهان • ما من شيء – بنظره – ينتهي • فلكل شيء امتدادة • الانسان • المادة • الكلمة • التاريخ • وحتى الموت • فللنهاية بعدئذ بداية • وبدء البدايات حالة واقعة تأتي في الاخير وتكون الاولى ولان للحادثة آثارا تمتد في حياة الناس • فالنهاية اذن بداية •

النكسة – الهزيمة العربية الكارثة – لم تكن الانتهاء • بل الابتداء من وراء • من الاخير • وبعد خمس سنين او ست على حدوثها فانها مرحلة تاريخية لها ما سبقها • وليس – الآن بنوع خاص – هذا ما يشغله • ربما ظن ان عصره الذهبي – بمصطلح المؤرخين – شبابه العاطفي ونشاطه ، قد بدأ بالزوال •

آخر امجاده الغرامية •• مني • تراجعت لم تكمل معه المشوار • يعيد النظر في المسألة التي اسمها رائد العالم ، بعد ان طلب منه سعيد ان يكون وصيا على اولاده وماله •

اذن رائد العالم لم يعد شابا عاطفيا بل صار رجلا حقوقيا مسؤولا ، وليس لهذا السبب سيكتب رسالة الى النساء اللواتي يحطن بزورقه كأمواج البحر ، فيودعهن قبل ان يذهب الى الموت الذي هو الابتعاد عن الحب •

اليكن حبيباتي •

أكتب لاعتذر واعتزل • انا رمز الاغلبية في الرجال الذين يتمنون ان يصنعوا ما صنعت •

بالامس كنت مع رجالكن حول طاولة مستديرة • طرحت عليهم الامر •• ودعوتهم لمحاكمتي • مبارزتي او قتلي • حثثتهم على اختصار الشكليات وتقليل الحيثيات ، فانفضوا على غير اتفاق ، مثل السياسيين العرب في المؤتمرات • او لانهم لم يجدوا على هذا الصدّيق مأخذا •

أدعوكن حبيباتي الى تقرير مصيري • في حوار حول طاولة مستديرة تخرجن منه بقرار صارم • وأنصحكن • انسين الحسنات وتذكرن السيئات • الحب حسنات • وفي المحبين السيئات ــ يأت قراركن اسرع وأدق •

لكن قبل التئام هذا المجمع اريد ان اسمعكن ما قال التاريخ من غير تدرج زمني وسأربط الأقوال بمراجعها :

ــ (أنت الجدير بخدمات المرأة وزوجي يغتصب جسدي) •

ــ جونريل لعشيقها • مأساة الملك لير ــ شكسبير ــ

ــ (فمهما تكونين من شيطان فان شكل امرأة يقيك) •

ــ دوق ألبني لزوجته • مأساة الملك لير • ــ شكسبير ــ

ــ « كانت محاطة دوما بتحف الحياة المترفة وبما تبدعه الصناعة الحديثة من زخارف فاقدة الحياة » •

ــ امرأة في الثلاثين ــ بلزاك ــ

ــ « ان ازواجهن يضيعون فرصة الحب ولا يشبعونهن بالقدر الكافي• فتفيق النساء وتفوسهن ولهى واجسامهن عطشى يردن المنهل فلا يجدنه • يحاولن والازواج عنهن في بعاد حتى لو كن في ربيع عرسهن • واني لانفي زواجي من احدهم لو كنت امرأة » •

ــ ثورة الطبيعة ــ مكسيم غوركي ــ

ــ « ان اسافا ونائلة الجرهميين من اليمن كانا عاشقين اقبلا يحجان فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت ففجرا فمسخا فأخرجا من البيت فوضعا في مكان فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب » •

ــ كتاب الاصنام ــ الكلبي عن ابي صالح عن ابن العباس ــ

« من يحب حبا صادقا يعاقب عقابا شديدا • طوال حياتها ستظل تعذني اسيرا تعذبه ، مع حبها اياي على طريقتها في الوقت نفسه » •

ـ الابله ـ دوستويفسكي •

ـ « فقال يهوذا : اخرجوها فتحرق • اما هي فلما اخرجت ارسلت الى حميها قائلة مِنَ الرجل الذي هذه له انا حبلى • وقالت : حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه ؟

ـ التوراة ـ تكوين ـ

ـ « فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي • فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج الى الخارج » •

ـ التوراة ـ تكوين ـ

انتهى كلام التاريخ •

لن اطيل عليكن فانتن تعلمن ماذا اريد فلا تجعلن من امري نـدوة نقاش وثمة لي في نفس كل منكن الى جانب الحب غل وحزازة واحكمن •• أبريء انا ام مذنب ؟

ختاما • انا رائد العالم الذي أحبكّن على درجات مختلفة من الشوق والمرارة والسعادة اناشدكن العتق •

اضع بصماتي مع توقيعي •

اما ما كتب فكان رسالة اليها •••

ـ مني ـ بالهاتف ـ انها رسالة جوابية على سبعين كتبتها انت اليّ في العامين الاخيرين •

ـ ماذا فيها ؟

ـ لو كان لك ان تعرفي مضمونها بصوتي ما كتبتها •

ـ رسالة لا تهم إلاّ هما • فلا يضيّع القارىء وقته بتلاوتها • ـ مني •

هذه هي الرسالة الثانية •

الاولى لم اكتبها اليك • والساعة الآن ليل حم ظلامه وعس على اموره من رابته الحياة فخاف • انا في خوف من ذاتي •• ان اخون ايمانـي

بالرفض ، واصبح من أهل القبول بكل حالة .. واخون الحب . فهما : الرفض والحب متحالفان .

ما رفضت الا لأنني احببت . رفضت الخلقية السائدة لانها النفاق والقوانين لانها ليست العدالة . والشرف التقليدي لان خارطته جزء محدود في وسط المرأة ، والوطن لانه ملك الحكام الطبقيين وليس ملك الشعب .

الشنفرى الصعلوك المتشرد ــ الشاعر ــ ارفعه الى مصاف النبلاء الفرسان . جسد الارادة الصلبة والبداوة القاسية .. فلا تسألي عن شهادة المنشأ التي يملكها . المنشأ بحد ذاته زائف مغلوط .

لم أنم منذ يومين . ثمة السادة الافكار يدقون جدار عزلتي يوقظون ما اغتصب القهر من رغباتي . يستبيحون سعادة العهر وهو حرم من قدسيات الفرد شاء ان يجمل به زمانه في بعد عن قانون الزواج الطبقي .

من زمن اطبقت دفاتري فلا اكتب ، مسافر في سلوك جديد . اردت ان اكتب الى جميع حبيباتي ولم افعل . كتبت اليك .. انت من ستقرأ آخر كلماتي عندما تكون لي كلمة اخيرة وتتلمس جراحي يوم يقضى بان تكون لي جراح .

انت حبيبتي وصديقتي ــ طوال سنين ــ اقتحمت لياليَّ ، فحرمتني نعمة النوم فعاقرت عذابي وزاوجت رغباتي بالحرمان ، وطردت المحسوبات عليَّ حبيبات واتحدت بآلامي كما الفولاذ المنصهر ببعضه . واري زمنا ابكر بي ليغيبني قبل انصراف الشمس . وما تزال في قلبي خيوط من الحس والنار .

بقيت لي كأس البلور فيها ذهب وألماس مذابان . بحَيْرَةٍ ما حرّكت صفحتها حسناء ولا اغتسل برحيقها نهدان . مهجورة لم تمس ــ تطلب حبيبا لا يأتي . وحلمت بها حلما . تفاحا كان وعطر زنبق وزهر رمان . وسادتي ذراع أرجعتني الى مراهقتي، واستيقظت ولم أعد لأنام، فالنوم موت . ومع الحياة الحركة .. والحقيقة في اللاوعي العاقل .

تغزّلت بك وقلت : عيون اللؤلؤ والمرجان والشفاه السمر والخدود بلون الذهب . ساذج انا وبدائي .. لكنني صادق .. رأيتك اجمل

النساء • افتنهن • مجنون انا ؟ وانكرت احلامي •• دعوا للام وليدهـا وللرجـل رفيقته وبعدئذ اصنعوا من احلامها كعابا لأحذيتكم • دعوا للعصفور ريشه وللارض ان تنبت زهرا وشوكا • أتنكرين حقي بالكأس ــ وانت هجرتني ــ أتساوي العافية الشوق المحروم واللقاء المفجوع ؟

اني مذ وعيت ركبت هول ملحمة اشق بحار القوانين والتيار جارف • لا اعرف لينا ولا وسطا • احلم بأن ألقي في يوم مرساتي ، بحارا عتيقا في كل بقعة من جلده وشم يحكي عن حب ماض •

رفعتك ــ انت موزا ــ الالهة الموحية الحمقاء الى مصاف حبيبة •• والى اعلى برج في عواطف النساء وسقطت ثمرة نضجت في غير اوانها عن عود غير ذي براءة فتلقيتك بذراعيّ • وظللت ــ كما شئت انا ــ حبيبتي الموحية • الوجه الذهبي • بريق الشمس في عينيك ودفء العسل المطفـأ بنور البدر في خديك •

الهتي ــ موزا ــ أتسمعين صوتي ؟

★ ★ ★

سلمها الرسالة يدا بيد وهي تتمسك به تدعوه ليدخل •

ــ لو اني وجدت من ارسلها معه ما جئت بها اليك •

غادرها مفجوعة الاحاسيس وشل الحزن للحظات تفكيرها ، ثم قرأتها وهي واعية الى ان المأساة ــ المهزلة تكبر •

عند الظهر دخل امين غاضبا يلوح بيديه معلنا ان كل شيء قد ضاع • لم تعبأ فصاح بها كأن الذي ضاع لا يعنيها • فقالت بلا اهتمام :

ــ ما من شيء بعد الآن يعنيني •

ــ حتى أنا طبعا ؟

ــ ما عنيتك انت •

ــ انهارت الآمال • كشفوا عملنا المغشوش فضاعت الارباح •

لا يعنيها ولا صراخه يؤثر فيها • غارقة في سلبيتها • هل بدأ خريف عمرها ؟ هل بدأت رياحه تعصف بها •

ــ سعيد لا يهمه ان يخسر فعنده الكثير • ولم يعد عنده من يبـذر

امواله . بعد ان حرم هدى من الارث وجعل من عشيقها رائد العالم وصيا على امواله واولاده .

انتفضت ولم تكبت ردة فعلها :

ــ رائد ليس عشيقها . لا تتجنى عليه وعليها .

ــ ليس عشيقها ــ بتهكم وسخرية ــ لماذا لا ؟ ولماذا تغتاظين ؟ مــا شأنك انت بالامر ؟ هه .! ام انكن جميعا سواء ؟

ــ لا اسمح لك . افهمت ؟ اياك ان .. افهم ما انت قائل .

اخضر وجهها من الغيظ . ضحك امين بحيرة . ازداد غضبها . طوقها بذراعيه بشراسة وهي تدفعه عنها ولا تستطيع . حانقة حتى العظم .

ــ أسأت اليك عن غير قصد يا زوجتي الوفية .

ولكي يؤكــد لها اعتذاره وتنزيهه لها ألوى بشفتيــه على شفتيهــا فصرخت من الالم ودفعته عنها بعنف لم يعهده منها :

ــ أدميت شفتي بوحشيتك .

ــ ما قصدتها . لكن ماذا تقولين وحشيتي ؟!

مسحت فوق فمها وولته ظهرها غاضبة ودخلت الى غرفتها .

تذكر أمين دوره المسؤول ــ والمغطى ــ في انهيار مشروع الداخل . السبب هو الجشع الكبير المتزايد . التمادي في الغش . وجود المراقبين الذين يغضون النظر .

ــ منى . انا ذاهب . أتسمعين ؟

خرجت مظلمة الجبين وفي نفسها يعتمل غيظ انتشر في صوتها :

ــ قبل ان تذهب . اسمع ما سأقوله لك ...

لم تجده في القاعة . اصطفق الباب وراءه .

« انت المسافر قل في سبارتا .. اننا هنا في القبر واننا قمنا بواجبنا » .

ــ كتابة فوق حجر تذكاري حيث سقط ليونيدس في ملاقاته للغزاة الفرس الذين اتوا يطلبون ارضا وماء ــ

★ ★ ★

ردد رائد امام سعيد قول شكسبير :

« لا تلومينا يا آداب . لكي نعرف ما في اذهان اعدائنا يجب ان نشتق قلوبهم » .
ـ يا لعبقرية شكسبير . كأنه يعيش معنا !. اذن يا سعيد . اهـذه هي وسيلتك الى معرفة ما تكن الصدور ؟ وبمن تتهمها ؟
ـ لا اتهمها بشخص معين ولكنها بالتأكيد ستزني فور موتي .
ـ ولهذا تصدر عليها حكما مسبقا لم يأت بمثله حاكم ظالم . لا . لا اوافق على هذا ولن اكون وصيا عنك .
ـ رائد . لماذا اخترتك انت من غير الجميع ؟ لانك الوحيد الذي اثق به . اما ترى حالي ؟ لا تتخل عني .

متهالك . ممصوص العافية . عيناه كأنهما تودعان المرئيات ، لن يبلغ صاحبهما الشاطىء . صوته يتداعى في آخر الكلام حتى يخرس .

ـ صرت أخاف منك يا سعيد . لماذا كل هذا الحقد ؟
ـ انا اعتز بكرامتي وهي رفضتني بلؤم .
ـ سأصلح بينكما يا سعيد .. فاجنح للسلم يا رجل .
ـ اللعبة وصلت الى نهايتها . أين عافيتي ؟ واين حنانهـا ؟ لا . لا صلح معها .
ـ هي ستصالحك وتقبل يدك. امتريد منها قبلة اخرى «غير شكل». دع التشاؤم . ستعود المياه بينكما الى مجاريها . وانت ستتماثل للشفاء. والآن سأتركك لاتحدث الى السيدة هدى .

المرأة علته . خاتمة عذابه . مسؤولة عن تعاسته . بعد كل تلك السنين من عمل وحياة .. وجد نفسه منبوذا . المرأة هي التي نبذته .. فوق علته الصحية .
خرج رائد . حيا هدى . لم تجب . ابتسم . لا بأس . سيفاوضها .. المسألة كبيرة . ابتدرته وما جلست :
ـ حبي لك .. انت لم تقدره . وانا صنت نفسي وصددت معجبين كثيرين .. من أجلك أنت وليس لانني احترم سعيد عارف ، فلتعلم أنت

انني لو كنت اريد رجلا اي رجـل لحصلت على عشرات الرجال • انـا عاشقة ولست متهورة مستهترة ، والا ما جريت وراءك وثمة حولي نصف رجال طرطوس يقبّلون قدمي •

ابتسم بمرح مهوّناً عليها ثورتها فتابعت :

ـ اذا كنت في شك فسترى انني سأكون لاي رجل يعترض دربي • ارى ان تفهم كلامي ، لا ان تحسبني لعبة بين يـديك انت رائد العـالم العظيم •• كان عليك ان تحترم عواطفي التي تظنها جامحة ، فانا استطيع التحكم بعواطفي •• لا ان اكبتها •• فلا تقلل من شأنها •

ـ حقا هذا هو الصحيح • انا موافق على كلامك ، انما •• هدى •• الامر خطير • يجب ان انقذ حقوقك ، فدعيني اعالجه بما يستلزم من وعي •• وانت تصرفي بحكمة • هادنيه وجاريه •• فاني للآن اؤخر توقيعه على الاوراق •

ـ تنصحني بأن اكون متعة لـه ؟! لا • لا • فليحرمني مـن جميع حقوقي • لن اجعله يمتلكني بعد الآن • يجب ان تفهم انت شعوري •

★ ★ ★

وصل الآن امين الاسود وحال شاهدهما تغيَّرت ملامح وجهه وبـان فيها الغيظ • حيّاهما ودخل الى غرفة سعيد •

جلست بأريكة وقد غادرها رائد بين اصابعها سيجارة وفوجئت بأمين وبيده الولاعة •• حدجته بنظرة غير ودية واشعلتها منه ، وانسحب مـن جديد الى غرفة سعيد وتناهى اليهـا حوارهما وفيـه انسجام ، فنهضت وقرعت الباب فانقطع الحوار :

ـ انا خارجة الآن • هل تريد شيئا ؟

لم يرد وهي لم تنتظر الجواب واغلقت الباب وراءها فانتفض امـين وقال لشريكه كأنه يستأنف كلامه :

ـ ها انت ترى أنها خرجت ••

ـ وماذا في الامر ؟ انها تخرج دائما • لم تعد تبالي بي • سـأطلب ممرضة من مستشفى الحكمة الجراحي ••

ـ انك حرمتها من الارث وهذا عليها اقسى مـن الطلاق • ووكلت

رائد وصيا .. فماذا تراها ستصنع ؟ أعمل حاسبتك الذهنية الالكترونية يا سعيد ؟

ـ أجل .. ماذا ستصنع ؟

ـ ستذهب بعدئذ الى مريم فتتباكى أمامها .. أرأيت يا مريـم مـا صنعه بي سعيد ؟ ورائد وصيه . هل تقبلين بكل هذا الظلم يلحق بي ؟

قاطعه ببساطة :

ـ رائد لا يستطيع صنع شيء لها فهو وصي بعدي .

ـ وانا اعني ذلك . بعدك .

ـ أي تعتبرني ميتا ؟ أليس كذلك ؟!

ـ لا تحزن يا سعيد . ألست واقعيا ؟ والا لماذا عينت وصيا ؟ أليس للمستقبل ؟ انتقاما منها وحفظا لحقوق اولادك ؟

ـ اجل .. ولكن هدى لن تلجأ الى مريم.

ـ لماذا ؟. انا سأجيب : مريم لا تحب هدى ولا منى . ـ التعجب في عيني سعيد ـ لانها تغار منهما . ومنى زوجتي ـ ادرجهـا مع كل شعوري باخلاصها في عـداد النساء اللواتي يثرن غيرة مريم ، والمهم . انت وثقت برائد وحده واسقطت الآخرين من حسابك .

ـ من هم الآخرون ؟

ـ رائد ليس صديقك الوحيد ولم يكن في يوم شريكك . بـل لم يكن صديقك بمعنى الصداقة وانت تسلم عنقك لرجل تغار زوجتـه من زوجتك ـ فمن هو رائد بالنسبة للسيدة هدى ؟ لا . احتفظ بهدوئك . فانا ذكرت زوجتي ايضا وزججتها في الموضوع . السيدة هدى على خلاف معك وهو وكيلك ضد مصلحتها . للمرأة حدس قلما يخطىء . ومريـم اذن ...

ـ انت تركز على رائد وهدى . فماذا تقصد ؟

ـ رويدك . الطبيب اوصاك بأن لا تسمح لاعصابك بأن تثور .. كن واقعيا يا سعيد . السيدة هدى امرأة فاضلة .. لكنك تشك فيها . أليس

كذلك ؟ وتتهمها بأنها ستتصرف بعد موتك ــ بعد العمر الطويل ــ وفق أهوائها ، فماذا ستصنع ورائد هو الوصي ؟ امرأة فاتنة ــ مع الاعتذار عن أي التباس في وصفي لها ــ وشابة ، ومال زوجها تحسبه مالا حلالا لهـا ومحرّما عليها ، بيد رجل زير نساء ، يصرف مبالغ طائلة عليهن ٠

ساكن الظاهر يحترق في داخله ٠ يستمع يتابع امين :

ــ ألا تفكر عندئذ بأن تعقد معه صفقة ، تتبادل فيها المنـافع مقابل الرغبات ؟ فيعطيها من مالك مقابل عواطفها ؟

سعيد عارف أصفر الوجه حتى البياض ٠ حبات عرق انعقدت فـوق وجهه ٠ عيناه جامدتان ٠ انفاسه متلاحقة ضيقة ٠ يستمع ولا يملك رفض هذه الحقائق ٠

ــ انا صديقك قبل ان اكون شريكك ٠ مخلص لك حتى النهايـة ٠ رميتني خارج الحلبة ، فأين وضعت معنوياتي امام الناس الذين يتساءلون لماذا رائد العالم وصيه وليس امين الاسود غير المتهم بأمر ؟

سعيد يكاد يختنق ٠ ينضغط صدره ٠

ــ لانني لست غنيا فانا لست أهلا للامانة ؟ اما هـو فثراؤه ضمانة ؟ الامانة رصيدها المال وليست الاخلاق ٠ هل سيشرف هو على اعمالك ؟ هل سيتابع مشاريعك ؟ هل يستطيع القيام بها ؟٠٠ اسمع قرعا على الباب ٠

عاد ومعه رجل بيده ورقة :

ــ أبى الا ان يراك ٠ لم يقبل ان احل في التبلغ مكانك

ــ اخطار من المحكمة العسكرية ــ يقول الدخيل ــ وقّع هنا ٠٠

انسحب المبلّغ وسقطت الورقة من يد سعيد وارتجف كل بدنه وجعل قلبه يهبط ويرتفع ونفسه يضيق فسارع امين يسعفه ببعض الحبوب وبقليل من الماء وهو يقول :

ــ هذا اخطار شكلي ٠ الامر سينتهي بخير والمسألة ليست سياسية بل اقتصادية ، وتخريب الاقتصاد اخف جرما بكثير من تخريب النظـام السياسي ٠ الدولة تفهم هذا ، والمسألة ستتلفلف ٠ فكر الآن بالامر الآخر ٠

سيفكر بالمضايقات والخسائر وبالمحكمة العسكرية والقاضي الفرد ٠

« النهاية . ربما تقترب وهدى ستزني فور ... ان لم تكن تزني منذ زمن . ستتمتع بمالي مع عشاقها . ليتني لم أجن ثروة . امين على حق . لن يكون لها ذلك . سأفوت الفرصة عليها » .

امين ماض في كلامه ..

الوصي .. وتبديله . والزنا . والمال المتروك . والمشاريع غير المنجزة . والعقارات والاراضي . وكل هذا بيد من ؟ وهربت مما وممن ؟ ووقعت اين ومع من ؟ من يكون ؟. العشيق . وهي .. من ستجد غيره ؟.

لا يسكت عن كلامه . وسعيد يأمره بالسكوت .. يصيح .. تخور قواه . نوبة تفاجئه ..

هرع امين الى جهاز الهاتف .. طلب الطبيب صاحب مستشفى الحكمة الجراحي .. من صنع معجزة قد يصنع اخرى .. وتلفن لمريم . لمنى . لجمانة . يسألهن عن هدى ؟ لا يعرفن اين هي . ورائد ؟ لا يعرفن اين هو. لم يرينه هذا النهار .

ولما كان ظهر النهار حضر رائد العالم على عجل فوجد سعيد عارف قد فارق الحياة . محزن ان ينتهي الانسان نهاية لا عودة له بعدها .

وأتت هدى فاستقبلها رائد واخذ بيدها وابعدها عن غرفة سعيد ، وبدا عليها الاسى بشكل لم يفاجئها واستعادت روعها قليلا ، وقال الطبيب لرائد :

ــ كانت وفاته من نوبة قلبية معاودة . ربما من تأثرات حادة عانى منها مؤخرا .

كلام مرموز وواضح ، وأكد أمين لرائد :

ــ لم يتحمل الصدمة . فالى جانب ما كبدته هدى من آلام لم توفره قوانين الدولة ، وحاولت جهدي لامنع مبلغ المحكمة من الوصول اليه الا ان الرجل كان مصمما على اخطاره مباشرة .

وعندما رجع أمين الى بيته مساء وجد منى ما تزال على عبوسها ، ووضعت مائدة العشاء واجمة وتحركت بآلية وجلست في غرفتها . فلم يقل شيئا غير كلمات اقتبسها عن شريكه الراحل :

ـ انه الخراب اتى . الخراب اتى .

★ ★ ★

خرج عزيز عبد الرحمن مع رائد من بيت سعيد واجتازا الشارع وقال :

ـ لكل امر نهاية ومهما يكن فان العجوز قد عاش في خوف ومات في خوف .

ـ قل في القهر أيضا فالقهر منتهى الالم .

وعندما التقى رائد بأمين في شقته سأله عن آخر لحظات الراحل :

ـ ما كدت أسعفه بالحبوب حتى أخذ يتلاشى. حان أجله فلم ينفعه دواء . ووصل الطبيب اليه فوجده هامدا .

لم يكن أمين قد فرغ من طعامه . كان بغير شهية وابى رائد ان يشاركه بكأس من الشراب .

قرف من الذي جرى ويجري ـ رائد العالم ـ فالمأساة .. لا . انها لم تصل الى غير حدود المهزلة المحزنة . استطرد امين الاسود في روايته :

ـ آخر ما تلفظ به ـ وحسبته ما يزال متمالكا وعيه ـ كان : الخراب جاء . الخراب جاء . وظننته سيقول أيضا كلاما آخر الا انه صمت .

ازدرد لقمة كأنه يتردد فيها وسأل كأنه يؤكد في سؤاله حقيقة مسلما بهـا :

ـ الخاسرة الكبيرة اذن هي الارملة الجميلة ؟

ـ لا أظن . لا ..

ـ وهل أبقى لها شيئا بعد ان حرمها من رزقه وماله ؟

ـ انها واولادها ، الورثاء الوحيدون وبغير وصي او ولي .

ـ ماذا تقول ؟ رائد . ألست انت الوصي ؟

ـ أمين . علاقتك بالمرحوم انتقلت ارثا الى زوجته مع كل مشاريعكما.

ـ اذن ما من وصية ولا حرمان ...

ـ أخّرت تنظيم الوصية لاتوصل الى اقناع سعيد بالاستغناء عنها ، وفي القوانين الجارية للزوجة الحق ـ ان حرمها زوجها ـ بوراثة الثمن

من نصف ما يملك ، ورضخ ، ربما ظن انه سيعيش مدة اخرى . لا احد يصدق نفسه بأنه مائت على عجل .

ابتسمت منى .. شامتة قالت :

ــ ماذا ستصنع يا أمين الآن ؟ تعاملك سيكون مع المرأة وهي في نظرك خلقت فقط للبيت ؟

ــ هــذا صحيح . رأيي هو كذلــك . لكن للامر حل . وجدتــه . وجدته . هو أنت رائد العالم .

ــ أنا ؟

ــ اسمع يا رائد . هدى لا تثق بي بل تكرهني ولــن تتعاون معي ، وجميع حقوقي مع زوجها الراحل العزيز غير واضحة .

قاطعه رائد مبتسما بيأس منه :

ــ وهل كنت انت ايضا تظن بأن الرجل لن يموت ؟

ــ المهم . ستكون اما ممثلي او ممثلها .

ــ وهل سترضى هي بي ؟

ــ رائد . رائد .. اي سؤال ساذج هذا ؟! هــدى لا ترضى بك ؟ اعوذ بالله .

خرجت منى مستاءة . ما خطبها ؟ أتعود اليها غيرتها ؟ لو كانت ريحا سموما لهبّت على الاثنين . ناداها امين فرجعت :

ــ نعم .. بماذا تأمر ؟

في سؤالها غير الانصياع المعهود . استغرب :

ــ ماذا أأمر ؟ ما هذه اللهجة ؟ حقا .. قويت النساء على الرجال بعد ان نقص عددهم واحدا .

مثل النكتة . ضحك رائد وضحك امين واحتفظت منى بحنقها . انهما الآن في صف واحــد . مرشحان لخطب ود هــدى . وسيكون لرائد في حياتها دور مقابل دور لها في حياته . خاطبته بجرأة :

ــ اذا لم يتم تعيينك وصيا من قبل المرحوم فسيكون الآن من قبلها . متى سيصدر المرسوم ؟

امين يسمع وهـو هازل بما يشابه من سمع نكتـة • وهي جادة بما يشابه من توجّس خيفة • ورائد في موقف طبيعي :

ــ لن يصدر المرسوم •

هزت برأسها آسفة بغير فرح • بألم ربما •• وأمين يقول :

ــ اذن الخراب الخراب •

ــ ما الخراب يا امين ؟ هل حلت فيك روحه ؟

ــ رائد • لا تسخر • جميع مصالحي • احـلامي • اتعابي على كف عفريت هو هدى سعيد •

ــ عفريت جميل • امين لا تحزن • انها لن تتخلى عنك •

★ ★ ★

تريد مني ان تثور على الاثنين • رائد لانسراحه في وجود هدى وامين لكرهها له • وتريد ان تقول لهذا كلاما لا يرضيه فتعلن عن جهرها برأيها فيه وفي نفسها •

وآلمها ان رائد يتهيأ ليقيم مع الارملة الحسناء علاقة وطيدة ــ هكذا تظن ــ والا فما معنى تردده الكثير عليها في شقتها بعد موت زوجها ؟!

نقمتها على الوضع المستجد تنعكس على أمين ، ففي اليوم التالي للقائه برائد انتفضت :

ــ لماذا اعلاؤك الصوت عليّ أما حان لك ان تتهذب ؟

ــ ماذا ؟ ماذا ؟

ــ ولماذا تظنني ساكتة لك طوال عمري معك ؟ من انت في نهاية الامر ؟ تحسب حالك ماذا ؟

وفي الليل أوت الى سريرها وهو ما يزال في عشائه • يشرب كؤوسه ويتناول طعامه ببلادة •

وعندما أطفأ النور ودنا منها لم تعبأ • مسّها فلم تتحرك فهزها بعنف فلم ترد عليه • متصلبة البدن • ستنام وما نامت • فغمغم بكلام وانصرف عنهـا •

تقضّى ليلهـا اسود • لم تغف فيه لحظـة • تفكر بهدى •• وكان

زوجها وهو في الحياة لم يستطع كبح جماحها ، فمات وخلف لها الحرية والثراء فماذا عساها الآن ان تصنع بهما ؟

ستزور مريم • مريم هي ضحية منى وهدى وجميع النساء اللــواتي يتحركن في مدار رائد العالم ، وستكون هدى حليفتها الآن بعد ان تعاظم خطر هدى عليها •

لكن •• لماذا ؟ اما نسيت منى رائد ؟ ألم يذهب حبه من قلبها ؟ فلماذا تجدد ارتباطها به وهذه المرة عن طريق زوجته ؟

أتكفّر منى عن ذنبهــا بذهابها الى مريم كما المؤمنــة امام مزار القديسين ؟

وتريد ان تنسى الحاضر وتعود الى حالتها الماضية الاولى وستعيش بلا حب • ما سبب الحب لها شيئا من السعادة يغلب الالم • الحب أتعسهــا • ما مستقبل حبها ؟ لم تتعود عليه • الخوف قضى على الحب لماذا تفكر كثيرا وهي التي تريد ان تنسى ؟ ! بل لماذا هي في خوف دائم ؟

★ ★ ★

يقول عزيز عبد الرحمن لرائد العالم بكثير من الجدية والتروّي :

ــ انك ثري حتى ولو لم تعمل • أراضيك التــي تتحسن اسعارهــا انتقلت من خانة مئات الالوف الى الملايين •• تجمع مالا وتطحن مالا فلا ينقص ثراؤك • تحتكر نساء وسواك يبحث عن زوجــة متواضعة بشق النفس وفي هذا الشرق جــوع للجنس تستأثر انت بعــدد من النساء وأزواجهن يتضوّرون من الجوع اليهن، فلا يزيد هذا بسعادتك• عملك مثل احتكار الرأسماليين للخيرات •• تستهلك منها حاجتك وتمنع الباقي عن الآخرين فيحدث الاختلال في المجتمع بين الذين يملكون والذين لا يملكون •

ابتسم رائد العالم • هز برأسه بين موافق ومعارض :

ــ عزيز • أنت تعالج الامر من وجهة نظر معروفة وانــك واصل الى اثبات نظريتك ، لولا انني لست كما تظن • قلْ : كان الله بعونك يا رائد •• أردت اسعادهن فأتعست نفسك •

ــ أرى بينك وبين سعيد عارف شبها في أمر • سعيد احتكر مالا كثيرا

وامرأة واحدة . فما داما له . ومات عنهما كأنه لم يملك منهما شيئا ... ثم عانى من حمية شديدة ..

ــ وبعدئذ ؟. يا للتشبيه الساقط في الخطأ .

ــ وكانت حميته المضنية والاصعب . امتنــاع هدى عنه ورفضهــا لرغباته .

ــ وانا . بماذا تشبهني به ؟

ــ لم ترو امرأة جوعك العاطفي كأن بك لا تجــد فيهن الا العملــة الزائفة مهما كثرت اعدادها وارتفعت ارقامها لا تغني حاملها .

قاطعه رائد :

ــ الكلام واضح وأنت لا تعرف السبب الذي يؤكد صحة نظريتك .

انه يكمن في انني لم اجد المرأة المخلصة التــي اذا احبت صدقت واذا عشقت لا تتراجع .

ــ قد يكون ذلك فانا لا اعرف حقا . تجاربي صفر في هذا الميدان .

ــ آه يا عزيز .. أنت الربحان اذن فلا تحزن .

★ ★ ★

تتهمه منى بأنه يكثر التردد على هدى ، فيبتسم رائد بقهر :

ــ وماذا يهمك مني او منها ؟ انها لم تكد لك كما كدت لهــا . لــم تفتعل المواقف لتثير غيرتك كما افتعلت انت لتعذيبها . كانت صادقــة في حبها من غير ان تحقد عليك .

ــ وما ادراك بكل هذا ؟

ــ ألست ألتقي بها كثيرا ؟ الا اعرف حقيقــة شعورها وتصرفاتهــا ؟ وأعرف حقيقة شعورك وتصرفاتك ؟.. اما كانت اندفاعاتك العاطفية نحوي بسبب من كرهك لامين ومن شوقك للجنس ؟ ثم كان حماسك كحمــاس فرس في سباق لتصلي قبل هدى الى قلبي .

ساكتة . مقتنعة ؟ ربما .. او ربما . لا

ــ فأين الصدق اذن ؟

توجه الى منزل هدى ، فوجد امها عنـدها فعرفتها به وقدم لامهـا التعازي فما بدت له مكترثة بموت صهرها الذي يكبرها هي سنـا .. وانفردت هدى به لتناقش معه بعض امور تركها المرحوم بوفاته .. لـم تناقش شيئا من ذلك :

ـ جئت تعزيني ؟ العزاء لن يكون الآن . فانا ارملة منذ تزوجت ولن يزيدني الترمل حرمانا من الحب ، فانا بالاصل محرومة من قبل .

جلست الى جانبه وبدت في ثوبها الاسود اكثر اشراقا ونعومة . مـا صنع فيها حدادها الا ان زاد في جمالها .

أما هو ففي وارد التفكير بما آلت اليه مني .

(عليه ان ينساها . لن يعيش في مهب مزاجها المتقلب اكثر مما عاش . قد اتعسته اياما كثيرة ، عندما احبها بحرارة وتفان .. وعندما انقلبت هي على حبه فجأة بكثير من الجبن والنذالة .

لو يضع النقاط على الحروف . يتكون لها واقع لا يشرّفها . وانـه ليحبها لا ريب ، وسيظل الى مرحلة ما يحبها ويحتقرها في الوقت نفسه ، وبعدئذ .. انه لواثق سيكرهها ، ولن يبق لها في نفسه أكثر مـن ذكرى المرارة والشفقة) .

ـ رائد . حبيبي . هل تسمعني ؟ بماذا تفكر ؟

ـ كنت سارحا في ما سيأتي .. ماذا هدى ؟

امتدت يدها اليه وامسكت بيده ، واخذتها الى صدرها وضمتها ثـم رفعتها الى شفتيها تقبلها .

الحب مرة اخرى . رمزه امرأة تعيش ايامها الى ان تبدّل رأيها .

الحب الذي هو حاجة ، هو عرضة للتطور . للنمو . للتشوه . مـادة موجودة . حالة قائمة . حجرة في بناء .

سيكون حبها له اليوم ، وربما لسواه في غد كل شيء متحوّل وغـير ثابت . صادق وكاذب .. ما العجب ؟! لماذا الهرب ؟

لو فهم رائد العالم ان الحب عـارض ايضا ، وان المرأة مثل رمـال الصحراء .. لوفر على نفسه كثيرا من العذاب .

سأل هدى :

ـ ماذا قلت حبيبتي ؟

لم تجب • اسندت رأسها الى كتفه باطمئنان •• لن تقول شيئا • تعبت من القول • تريد الحب لا الكلام • تبتسم باطمئنان •

يتذكر الكلام الشعري الذي قاله لتلك :

« ضعي رأسك على كتفي وابكي • من بكت فوق كتفي ستظل لـــي الى الابد » •

ابتسم • يريد ان يضحك • يزيح رأسها عن كتفه • تستغرب • تنظر اليه بدهشة • لا يقول شيئا ، ولا يزعجه شيء • بين يديه اجمـــل حسان طرطوس • وغدا تغادره • فليفك رصده منها منذ الآن ، وليفكر بأن الماضي لا يعود والحاضر غير مستقر والمستقبل لمن يطمح فيه •



مطبعة المتني
شارع مار نهرا ـ فرن الشباك
لبنان ـ هاتف : ٢٨٣٦٣١

مؤسسة انطوان جلخ واخوانه
للتجليـد
لبنان ـ هاتف : ٢٦٩٢٤٢

